بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل بشارته للمؤمنين بأن الكفار سينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله وأنها ستكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، بشر المؤمنين هنا بأنهم سيغنمون أموال الكافرين وبين لهم أن هذه الغنائم يكون للمقاتلين أربعة أخماسها وأن خمسها يكون لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وأشار إلى أن من آمن بالله وما أنزل على عبده يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في بدر يزداد قلبه إيمانا بعظيم قدرة الله وكمال علمه وحكمته وقضائه وقدره وأن الأمور كلها بيد الله وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن حيث

يقول عز وجل : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ﴾ ... الخ الآيات الأربع.

ومعنى قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ ، أي واعرفوا أن كل شيء قل أو كثر أخذتموه من الكفار قهراً بالقتال فهو غنيمة لكم قد أحللته لكم دون غيركم من الأمم السابقة.

وقوله عز وجل : ﴿ فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين ﴾ الخ بيان بأن الغانمين إنما يستحقون من الغنيمة أربعة أخماسها وأن الخمس الخامس يكون لله ولرسوله وللأصناف الأربعة المذكورة معه هنا. وقد قسم الإسلام الأموال التي تؤخذ من الكفار إلى قسمين فجعل ما يحصل عليه المسلمون بالقتال غنيمة وجعل ما يستولي عليه المسلمون بلا قتال فيئا وجعل جميع الفيء لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وجعل خمس الغنيمة كالفيء تماما يكون لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . فللرسول صلى الله عليه وسلم ولخلفائه من بعده خمس الخمس ينفق منه على أهله وعلى مصالح المسلمين والخمس الثاني لذي القربى أي أقرباء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم ذوي القربى هنا ببني هاشم وبني المطلب دون غيرهم من ذوي القربى وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن أداء الخمس من الإيمان كما أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في حديث وفد عبدالقيس المروي في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا الخمس من المغنم ... الحديث. ولذلك

عنون البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان فقال : باب أداء الخمس من الإيمان وساق هذا الحديث. والخمس الثالث لليتامى الفقراء. واليتيم من مات أبوه وهو لم يبلغ الحلم. والخمس الرابع للفقراء والمساكين وهم من لا يملكون شيئاً أو يملكون دون نصاب الزكاة. والخمس الخامس لابن السبيل وهو المسافر المنقطع عن ماله. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إن كنتم آمنتم با لله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ أي إن كنتم صدقتم وأيقنتم بإلهكم ومعبودكم الحق وبما أنزل على عبده ورسوله محمد صلى ا لله عليه وسلم يوم الفرقان عندما تقابل جمع المسلمين حزب الرحمن وجمع المشركين حزب الشيطان يوم بدر الذي فرق ا لله فيه بين الحق والباطل فأعز فيه المسلمين مع قلة عددهم وعدتهم وأذل فيه المشركين مع كثرة عددهم وعدتهم ونصر الحق ودحر الباطل وقد أنزل ا لله عز وجل على رسوله صلى ا لله عليه وسلم فيه سورة الأنفال أو معظمها حتى سماها ابن عباس رضي ا لله عنهما سورة بدر كما ذكرت في صدر تفسير هذه السورة .

كما أنزل ا لله عز وجل على رسوله محمد صلى ا لله عليه وسلم وهو في طريقه إلى بدر البشارة بحصول المسلمين على العير أو النفير كما قال عز وجل : ﴿ وإذ يعدكم ا لله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ وقد حقق ا لله لهم وعده وحصل لهم النفير والنصر العزيز وكانت عاقبته أحسن العواقب وفرحوا بنصر ا لله لهم أشد من فرحهم لو حصل لهم العير . كما ثبت أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم حدد مصارع المشركين قبل المعركة بيوم فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي ا لله عنه قال : قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : هذا مصرع فلان ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا. قال : فما ماط

أحدهم عن موضع يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي لفظ لمسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول : هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله. قال عمر : فو الذي بعثه بالحق ما أخطئوا الحدود التي حد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهذه كذلك معجزة ظاهرة وآية بينة . وفي ليلة الجمعة التي وقعت معركة بدر في صبيحتها جعل الله تبارك وتعالى للمؤمنين آيات بينات أخرى فأنزل عليهم النعاس أماناً أمّنهم به ليدفع عنهم الخوف من كثرة عدوهم وقلة عددهم كما أنزل عليهم من السماء ماء شرب منه المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وتخذيله وتخويفه للنفوس وطهرهم الله ظاهرا وباطنا وثبت أقدامهم وشجع قلوبهم ، كما قال : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾. وقد مر في تفسير قوله عز وجل : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ما ذكره ابن كثير رحمه الله في تفسيره عن علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه يعني يوم بدر فقال : رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة اهـ.

وقوله عز وجل : ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ تذييل لبيان أنه عز وجل لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء فمن اعتصم به والتجأ إليه أيده ونصره. وقوله عز وجل : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل

منكم﴾ تذكير للمؤمنين بنعمة الله عز وجل عليهم يوم بدر أي اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنتم نزول بالعدوة الدنيا أي بشفير وادي بدر وشاطئه الأقرب مما يلي المدينة المنورة وأعداؤكم المشركون نزول بالعدوة القصوى أي بشفير الوادي وشطه وجانبه الأبعد من المدينة وقد كانت العدوة الدنيا رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا يمشي فيها إلا بتعب بخلاف العدوة القصوى وقد كان نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على أدنى ماء وجده و لم يكن كافياً فأشار الحباب بن المنذر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل ذلك . وقوله عز وجل : ﴿ والركب أسفل منكم ﴾ أي وعير قريش التي فيها تجارتهم مع أبي سفيان ورفاقه قد صارت أسفل منكم حيث كان أبو سفيان قد فر بها نحو ساحل البحر مبتعداً عن بدر عندما علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج بأصحابه لطلبها.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة ﴾ أي ولو كنتم خرجتم من المدينة وخرج المشركون من مكة على موعد بينكما للتلاقي والقتال في بدر ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم أنتم في الميعاد خوفاً منهم واستبعاداً للظفر بهم لكثرة عددهم وعدتهم وقلة عددكم وعدتكم فما بالكم وأنتم قد خرجتم غير مستعدين للقتال فلم يخرج معكم إلا العدد القليل من غير استعداد للحرب وقد علمتم أنكم ما خرجتم إلا للعير و لم يدر ببالكم النفير وإنما

فوجئتم بالعلم بـه وأنتـم في طريقكـم إلى بـدر كمـا روى البخـاري ومسـلم في صحيحيهما من حديث كعب بن مالك رضي ا لله عنه يقول في غزوة بدر : إنما خرج رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يريـد عـير قريـش حتـى جمـع ا لله بينهـم وبين عدوهم على غير ميعاد اهـ. وقد فعـل ا لله ذلـك لحكمتـه البالغـة وحجتـه الدامغة ليتحقق لكل ذي عقل أن ما اتفق لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم مـن النصر العزيز والفتح المبين ليس إلا صنعاً من صنع ا لله العزيز الحكيم وتدبيراً مـن تدبير البر الرحيم وخارقا من خوارق العادات ليزداد المؤمنون إيمانا وتوكلا علـى ا لله عز وجل وشكرا لنعمه وليعتصموا بحبل ا لله في جميع أمورهـم ويسـارعوا إلى الامتثال لأوامر ربهم ويبادروا إلى طاعة رسولهم محمد صلـى ا لله عليـه وسـلم . وقوله عز وجل : ﴿ ولكن ليقضى ا لله أمرا كان مفعولا ليهلك مـن هلـك عـن بينة ويحي من حي عن بينة ﴾ أي ولكن ا لله عز وجل جمعكم علـى غـير ميعـاد ليبرز مـا قدره وقضاه من نصره لأوليائه وقهره لأعدائه كـما قال عـز وجـل : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنـا لهـم الغالبون ﴾ حتى لايغتر مغتر بعدده وعدته ولا ييأس مؤمن من نصر ا لله ورحمتـه بسبب قلة عدده أو عدته ولهذا قال في سورة آل عمران عن غزوة بدر الكبرى : ﴿ وما جعله ا لله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند ا لله العزيز الحكيم ﴾ وأشار تبارك وتعالى هنا كذلـك إلى أن هـذا النصر العزيـز قـد حققه ا لله عز وجل للمؤمنين ليكون برهاناً شاهداً وحجـة ظـاهرة علـى أن ا لله هو الحق وأن رسوله حق وأن وعده حق حتـى يمـوت مـن يمـوت مـن الكـافرين المكلفين وقد أقيمت عليه الحجة والبرهان ويعيش مـن يعيـش مـن المؤمنـين علـى نور من ربه . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وإن ا لله لسميع عليم ﴾ تذييل لتأكيد أن

الله تبارك وتعالى لا تخفى عليه خافية ، يسمع دعاء الداعين وتضرع المتضرعين واستغاثة المستغيثين وأنه يعلم السر وأخفى ومن أخلص له العبادة وعمل الصالحات ومن أشرك به وعصى رسوله فينصر من أطاعه ويخذل من عصاه.
وقوله عز وجل : ﴿ إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ﴾ زيادة تفصيل لما يدبره أرحم الراحمين لإظهار حكمته وعلمه وقدرته حيث أرى رسوله صلى الله عليه وسلم في منامه المشركين قليلاً قبل لقائهم فأخبر أصحابه رضي الله عنهم بما رأى في منامه من قلة عدوهم فكان ذلك تشجيعا لهم على لقاء عدوهم وتثبيتا لهم ليطرد بذلك عنهم الخوف ويثبت أقدامهم وليس لقائل أن يقول : إن رؤيا الأنبياء وحي ولا يكون إلا صدقا وحقا فكيف يراهم قليلا مع كثرتهم إلا أن الجواب هو أن تفسر القلة بالضعف مع أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولاشك أن هذه الرؤيا المباركة كانت من أهم أسباب إقدام المؤمنين على لقاء عدوهم ودفع التنازع بينهم في شأن قتالهم ولا شك أن التنازع والاختلاف من أعظم أسباب الفشل والجبن ولكن الله سلم أي أنعم على المؤمنين بالسلامة من الفشل والتنازع حتى قويت قلوبهم واجترءوا على حرب عدوهم وقوله عز وجل : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تذييل لتأكيد علمه عز وجل بما يخطر في قلوب عباده من الجرأة أو الجبن أو الصبر أو الفزع وأن تدبيره خير تدبير لأنه اللطيف الخبير .

وقوله تعالى : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ هي أية أخرى من أعظم آيات الله في تلك المعركة وقد رآها الجمعان المتقاتلان بأعينهما يوم بدر حيث قضى عز

وجل بلقاء الجمعين فقلل المشركين في أعين المسلمين وقلل المسلمين في أعين المشركين ليغري بعضهم ببعض وليجترئوا على القتال ويهجم بعضهم على بعض وتقع المعركة التي قضي الله عز وجل أن تكون لإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله كما قال عز وجل : ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ ولاشك أن الكفار كانوا أكثر من ثلاثة أمثال المسلمين فلما التحم الجمعان كان المسلمون يرون المشركين مثليهم رأي العين أي حوالي ستمائة مقاتل مع أنهم كانوا بين التسعمائة والألف ويمكن أن يكون الله عز وجل بعد التحام المعركة جعل المشركين يرون المسلمين مثليهم رأي العين لتفاجئهم الكثرة والظاهر أن ذلك كان بسبب تنزل الملائكة لتأييد المؤمنين بأرض المعركة والعلم عند الله عز وجل.

وقوله عز وجل : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي إلى الله وحده مصير الأمور كلها وتدبير شئون عباده ونواصيهم بيده ولابد أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ

لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى ماحققه لأوليائه المسلمين من النصر المبين في بدر وما أظهر في هذه المعركة من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة شرع هنا في بيان أسباب النصر وأسباب الهزيمة في أي معركة تدور بين أوليائه وأعدائه في أي زمان وأي مكان لتكون نبراساً يهتدي به المهتدون من أي لون ومن أي جنس فقال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ .. الخ الآيات الخمس وقد جعل الله تبارك وتعالى أسباب النصر فيما يأتي :

أولاً :الإيمان المقتضي للتصديق بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره والمقتضى كذلك أن يكون الله ورسوله أحب إلى المقاتل مما سواهما وأن يكون قصده من القتال أن تكون كلمة الله هي العليا.

ثانياً : الثبات عند اللقاء وعدم الفرار إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة.

ثالثاً : كثرة ذكر الله عند لقاء العدو بقلبه ولسانه.

رابعاً : لزوم طاعة الله وطاعة رسوله والبعد عن المعاصي والسيئات.

خامساً : ترك الاختلاف والتنازع لأنه يؤدي إلى الفشل والجبن والهزيمة وذهاب القوة.

سادساً : الصبر وضبط النفس عن الجزع.

سابعاً : الحذر من البطر والرياء والصد عن سبيل الله.

ثامناً : الاحتراس من دسائس الشيطان.

تاسعاً : عدم الاغترار بما قد يكون مع المقاتل من القوة.

عاشراً : التوكل على الله والاعتماد عليه وطلب النصر منه.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ووقر الإيمان في قلوبهم. ومعنى قوله : ﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ أي إذا تقابلتم مع جماعة من أعدائكم في معركة من المعارك فاثبتوا عند اللقاء ولاتولوا عدوكم الأدبار ولاتفروا. وقد صار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في هذا الثبات و لم يؤثر أن واحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم قتل وهو مدبر بل كانوا يستقبلون الموت بنحورهم كما وصفهم كعب بن زهير :

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل

لا يقع الطعن إلا في نحورهموا ومالهم عن حياض الموت تهليل

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ أي وأكثروا من ذكر الله عز وجل بقلوبكم وألسنتكم وأكثروا من دعائه وطلب النصر منه بصوت غير جهوري لأن ذكر الله عز وجل بهذا الموطن من أعظم أسباب الفلاح والفوز والنصر على الأعداء ولاشك أن ذكر الله عز وجل عند لقاء العدو يدل على أن الإيمان بالله وحبه قد خالط شغاف قلبه حيث يذكر المحب حبيبه عند لقاء عدوه كما قال الشاعر:

ذكـرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت فينا المثقفة السمر

وكما قال عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ أي وسارعوا إلى امتثـال أوامر الله ورسوله صلى الله عليـه وسـلم وابتعـدوا كـل البعـد عـن معصيـة الله ورسوله واحذروا مخالفة رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم وعلـى المؤمنـين أن يتذكروا ما أصاب المسلمين يوم أحد و ماجرّت عليهم مخالفة بعـض الرمـاة أمـر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقـد سـبقت في تفسير قوله تبـارك وتعـالى : ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ مـارواه البخـاري في صحيحـه من حديث الـبراء بـن عـازب رضـي الله عنهمـا قـال : لقينـا المشـركين يومئـذٍ وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً من الرماة وأمر عليهم عبدالله بن جبير وقال : لاتبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فـلا تـبرحوا ، وإن رأيتموهـم ظهـروا علينا فلاتعينوننا. فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عـن سوقهن حتى بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمـة فقـال عبـدالله : عهد النبي صلـى الله عليـه وسـلم أن لاتـبرحوا ، فـأبوا ، فلمـا أبـوا صـرف الله وجوههم. الحديث. وفي هذا يقول الله عز وجل : ﴿ ولقد صدقكم الله وعـده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد مـا أراكـم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكـم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ وذكرت في تفسير هذه الآية أن المقصود من فشلهم وتنازعهم في الأمر وعصيانهم هو ماكان مـن الرمـاة عندمـا رأوا المسـلمين حصـدوا المشـركين وانتصـروا عليهـم وهربـوا مـن أرض المعركـة

وسقط لواؤهم بعد قتل صاحبه وانكشفت أرض المعركة من المشركين وظهرت الغنائم فأخذ بعض الرماة يقولون : الغنيمة الغنيمة فذكرهم أميرهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه وعنهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنهم في غمرة فرحة النصر فشلوا أي تراخوا وضعف صبرهم ونازعوا أميرهم وعصوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أمرهم بأن لايبرحوا مكانهم حتى جاء في لفظ للبخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما : (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم فهزمهم الله) ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ أي ولاتختلفوا مع بعضكم ولا مع من ولاه الله أمركم فيؤول حالكم إلى الفشل أي إلى الضعف والهزيمة ويذهب ريحكم أي تنكسر شوكتكم وتذهب قوتكم. والعرب يقولون لمن أقبلت عليه الدنيا : الريح مقبلة عليه ويقولون : هبت ريح فلان قال عبيد بن الأبرص :

كما حميناك يوم النعف من شطب والفضل للقوم من ريح ومن عدد

والنعف هو ما انحدر من حزونة الجبل وشطب جبل في ديار بني أسد.

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور) ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ أي واحبسوا أنفسكم عن الجزع عند شدائد الحرب ليكون الله معكم بإعانتكم وتأييدكم وإمدادكم وإنزال النصر عليكم لأنه عز وجل مع الصابرين بعونه وتسديده وتأييده وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن أبي أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظر في بعض أيامه التي لقي فيه العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: أيها الناس لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا

ا لله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. وقوله تعالى : ﴿ ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل ا لله وا لله بما يعملون محيط ﴾ ترهيب من مشابهة الكفار الذين خرجوا من مكة إلى بدر بطرا ورياء وسمعة وصدا عن سبيل ا لله بعد ترغيب المسلمين في الأعمال الجالبة لنصر ا لله لهم وتحذيرهم من أضدادها . قال ابن جرير رحمه ا لله في تفسير هذه الآية : وهذا تقدم من ا لله جل ثناؤه للمؤمنين به وبرسوله أن لا يعملوا عملا إلا لله خاصة وطلب ماعنده لارئاء الناس كما فعل القوم من المشركين في مسيرهم إلى بدر طلب رئاء الناس وذلك أنهم أخبروا بفوت العير رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وأصحابه وقيل لهم انصرفوا فقد سلمت العير التي جئتم لنصرتها فأبوا وقالوا : نأتي بدرا فنشرب بها الخمر وتعزف علينا القيان وتتحدث بنا العرب فيها فسُقوا مكان الخمر كؤوس المنايا اهـ. وقال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن مسلم وعاصم بن عمر وعبدا لله بن أبي بكر ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا عن ابن عباس قال لما رأى أبوسفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها ا لله فارجعوا فقال أبو جهل بن هشام وا لله لا نرجع حتى نرد بدراً ـ وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام ـ فنقيم عليها ثلاثا وننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا فامضوا اهـ. والبطر هو الطغيان في النعم وترك شكرها والفخر والأشر والكبر ، ورئاء الناس أي العمل من أجل السمعة لاحبا في الخير وإنما المقصود ثناء الناس على المرائي ليصفوه بالشجاعة والكرم والبذل وهم يصدون عن سبيل ا لله بمحاربة

أوليائه والعمل على إطفاء نور الإسلام والله متم نوره ولو كره الكافرون لأنه قد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ولاتخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم ﴾ الخ . بيان لما كان من تهييج الشيطان لكفار قريش وتحضيضهم للخروج لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي وقد تخوف الكفار من أن ينقلب عليهم بعض القبائل العربية التي كان بينها وبين قريش ثأر فطمأنهم الشيطان وتعهد لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم بأنه لهم جار وأنه لن يصيبهم أحد من العرب بسوء وزين لهم الخروج لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا غالب لكم إني حافظ لكم من كل معتد يعتدي عليكم فلما وصلوا إلى بدر وأوحى الله إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ورأى إبليس أنه لاطاقة لجنده أمام جند الله نكص على عقبيه أي رجع القهقري وفر وولى مدبراً وقال إني بريء من جواركم إني أرى ما لا ترون أي أبصر مالا تبصرون إني خائف من الله والله شديد العقاب وهذا دأب الشيطان لعنه الله فإنه يغرر بمن يستجيب له حتى إذا أورده المهالك تبرأ منه وادعى الكذوب أنه يخاف الله كما قال عز وجل في سورة الحشر : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾. ولم ير إبليس أدحر ولا أصغر ولا أحقر في يوم من الأيام إلا يوم عرفة ويوم بدر . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية وقال مالك بن أنس عن إبراهيم ابن أبي عبلة عن طلحة بن عبيدالله بن كريز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما رؤي ابليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة وذلك مما يرى

من نزول الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رؤي يوم بدر اهـ. و لله در حسان رضي ا لله عنه إذ يقول :

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهموا لو يعلمون يقين العلم ماساروا

دلاهم بغـــرور ثم أسـلمهم إن الخبيث لمن والاه غــرّار

وقال إني لكم جـار فأوردهم شـر الموارد فيه الخزي والعـار

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على ا لله فإن ا لله عزيز حكيم ﴾ بيان لموقف المنافقين مرضى القلوب الذين لايستطيعون حرب الإسلام بسيوفهم كمشركي مكة فحاربوه بألسنتهم وكما أن ا لله عز وجل نصر المسلمين وهزم المشركين فإنه كذلك سينصر المسلمين على المنافقين وفي هذا بشارة للمؤمنين بأن ا لله ناصرهم على أعدائهم مهما كانوا وكيف كانوا. والمنافقون والذين في قلوبهم مرض هم شيء واحد فالنفاق ومرض القلب هنا صفتان لموصوف واحد. وقد تخلف المنافقون عن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يوم بدر فلم يخرج منهم إلا عدو ا لله رأس المنافقين عبدا لله بن أبي ابن سلول و لم يقاتل ، وقد خرج رئاء وسمعة ، وقد كان يظهر التدين وتغلي مراجل الحقد على الإسلام في قلبه فلا يدع فرصة إلا اهتبلها لتخذيل المسلمين وتفريق كلمتهم فهو حري أن يكون هو ومن على شاكلته من المنافقين بالمدينة هم الذين قالوا هذه المقالة وهذا شبيه بما حكى ا لله عز وجل عنهم في سورة الأحزاب حيث قال : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا ا لله ورسوله إلا غرورا * وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ إلى غيرها من الآيات التي فضح فيها المنافقين

وكشف سترهم وأخزاهم. أما تفسير أهل هذه المقالة بأنهم من أهل مكة فبعيد لأن النفاق لم ينبت بمكة لأن مكة وقتها كانت تحت سيطرة المشركين وسلطانهم والنفاق هو إظهار الإسلام وإخفاء الكفر ولاداعي له في مكة و لم يثبت بسند صحيح متصل بأنه كان بمكة نفاق أما قوله تعالى في سورة المدثر وهي مكية : ﴿ وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أرد الله بهذا مثلا ﴾ فمرض القلب والكفر صفتان لموصوف واحد كذلك . ومعنى قوله : ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ أي خدع هؤلاء المسلمين دينهم وزين لهم قتال أهل مكة وهم ليسوا أكفاء لقتالهم فهم مغرورون مخدوعون وقد أخزى الله هؤلاء المنافقين الذين قالوا هذه المقالة وفضح سترهم وأبلغ للمسلمين مقالتهم فازداد المسلمون إيماناً ويقيناً وازداد المنافقون خذلانا وخسراناً ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ أي ومن يعتمد على الله في كل شئونه ويفوض أمره إليه في سائر أحواله فإن الله يؤيده وينصره لأنه عز وجل عزيز غالب قاهر لايعجزه شيء ولايفوته شيء وهو حكيم في أوامره ونواهيه وتأييد أوليائه وخذلان أعدائه. وقد وصى الله تبارك وتعالى عباده بالتوكل عليه في جميع شئونهم وأشار عز وجل إلى أن التوكل عليه والاعتماد عليه وحده يفرج الكربات ويدفع الغوائل كما قال عز وجل : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقال : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين *﴾.

قال تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

بعد ترغيب المسلمين في الأعمال الصالحة التي تجلب لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة وأوضح لهم أسباب النصر على أعدائهم وأشار إلى تحذيرهم من دسائس الشيطان ووساوسه ووبخ المنافقين على مايطلقونه من سفيه القول ، شرع هنا في ترهيب الكافرين والمنافقين من مآلهم السيء وما سيلقونه عند الموت من ضرب وجوههم وأدبارهم على يد الملائكة الذين يتوفونهم وتبشيرهم لهم بعذاب الحريق وتوبيخهم لهم على سوء اعتقادهم وقبيح أعمالهم وأن الله تعالى قد جرت سنته مع أعدائه كآل فرعون والذين من قبلهم الذين عصوا رسل ربهم وكفروا بنعم الله عليهم أن يوقع بهم أشد العقاب في عاجلتهم وتوعدهم بشديد العذاب في آخرتهم وأنه سيوقع بكل من كذب رسله وكفر بنعمه مثل ما أوقعه بالمكذبين من آل فرعون والذين من قبلهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد *﴾ أي ولو تعاين

يامحمد حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكافرين من المشركين والمنافقين فتنزعها من أجسادهم وتضرب وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم يوم ورودكم جهنم وماظلمكم الله بهذا العذاب بل هو بما كسبت أيديكم وبما اقترفتم من الآثام والأوزار والمعاصي أيام حياتكم فحلت عليكم هذه العقوبة عند موتكم ويوم ورودكم تذوقون عذاب الحريق والله ليس بظلام للعبيد فلا يعاقب أحداً من خلقه إلا بجرم ارتكبه ولا يعذبه مثل هذا العذاب إلا بمعصيته إياه وتمرده على آياته وتكذيبه لرسله ومعنى قوله عز وجل: ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب *﴾ أي كسنة الله تعالى في فرعون وآله وسنته فيمن كان قبلهم من الذين كفروا كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط لما كفروا بالله وجحدوا بآياته وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق أخذتهم أخذ عزيز مقتدر وقد بطشت بمشركي قريش يوم بدر كما بطشت بهؤلاء المكذبين الذين سبقوهم ولم أظلم أحداً منهم بل أخذتهم بذنوبهم وعاقبتهم بسبب جرائمهم وكانت عقوبة الله لهم عقوبة القوي المقتدر العزيز الجبار. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم *﴾. هذا بيان للناس يبين الله لهم سنته في خلقه وأنه قد تفضل عليهم بنعمه وآلائه فمن شكر نعمة الله عليه زاده من نعمه وكلأه برعايته وحفظه من الشرور والآثام ومن كفر بنعمة الله التي أنعم بها عليه سلب منه نعمته وأوقع به عقوبته ، وقد أكد ذلك في مواضع من كتابه الكريم حيث قال هنا : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم *﴾ وقال في سورة الرعد : ﴿ له

معقباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر ا لله إن ا لله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد ا لله بقوم سوءاً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال *﴾ وكما قال عز وجل في سورة النحل : ﴿ وضرب ا لله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم ا لله فأذاقها ا لله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون *﴾ وكما قال عز وجل في سورة الأحزاب : ﴿ سنة ا لله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة ا لله تبديلا *﴾ وقوله عز وجل ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين *﴾ هو تأكيد لقوله عز وجل : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات ا لله ﴾ الآية . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين *﴾ أي قد دمر ا لله عليهم فمنهم من أغرقهم ا لله بالطوفان كقوم نوح ومنهم من أرسل ا لله عليه حاصباً وريحاً كقوم هود ومنهم من أخذته الصيحة كثمود ومنهم من قلب ا لله عليهم أرضهم فجعل عاليها سافلها كقوم لوط ومنهم من أخذته الرجفة كقوم شعيب ومنهم من خسف ا لله به الأرض كقارون ومنهم من أغرقهم ا لله في اليم كفرعون. وهؤلاء المكذبون جميعاً كانوا ظالمين لأنفسهم حيث أوردوها موارد حتفها بعصيانهم رسل ربهم وكفرهم بخالقهم فاطر السموات والأرض وما ظلمهم ا لله. وقد أطلت الحديث في مثل هذا المقام من سورة آل عمران عند تفسير قوله عز وجل : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم ا لله بذنوبهم وا لله شديد العقاب *﴾

قال تعالى :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

بعد ترهيب الكافرين والمنافقين من مآلهم السيئ وما سيلقونه عند موتهم من العذاب المخزي لهم كما مضت سنته عز وجل على ذلك وبشرهم بعذاب الحريق في جهنم شرع هنا في بيان أحوال الكافرين الشريرة وأنهم شر الخليقة وأسوأ من مشى على الأرض وأشار إلى أن قلوبهم قد أغلقت على الكفر فهم قد طبعوا على الانحراف عن الحق وعلى التمادي في الباطل وأنهم لا يوثق لهم بعهد ولايقفون في محاربة دين الله عند حد ولايخافون الله ، ولايرقبون في مؤمن إلاًّ ولاذمة ولذلك حض رسوله صلى الله عليه وسلم على أن يضربهم إذا التقى بهم في الحرب ضربة تجعلهم عبرة لمن وراءهم من الكفرة الذين لم يحاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلهم يحذرون ويسارعون إلى الإيمان بالله ورسوله وترك الصد عن سبيله . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ﴾ أي إن شر وأسوء ما دب على الأرض من البرية عند الله عز وجل هم الكافرون بالله ورسله الجاحدون لآيات الله وآلائه ونعمه المنحطون عن درجة البهائم والأنعام والحشرات . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ قال أبو السعود العمادي في تفسيره : حكم مترتب على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أصل الطبع لايلويهم صارف ولايثنيهم عاطف أصلا ، جيء به على وجه الاعتراض لا أنه عطف على كفروا

داخل معه في حيز الصلة التي حكم فيها بالفعل اهـ. ومعنى قوله تعالى: ﴿ الذين عاهدت منهم ﴾ أي الذين أخذت منهم عهدهم أو الذين عاهدوك إذ المباشر للعهد بالذات بعضهم لاكلهم . وقوله : ﴿ ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون * ﴾ أي الذين كلما عاهدتهم عهداً نقضوه لا يخجلون من ذلك ولا يخافون مغبة نقض العهد وهذا أقرب ما يكون في اليهود ، وقوله : ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ﴾ هو شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم أي فإن حاربوك والتقيت بهم في المعركة فنكل بهم تنكيلاً يرعب من وراءهم من الكفار والمنافقين ويزجرهم عن محاربتك والصد عن سبيل الله.

قال تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

هو بيان لأحكام الذين تشير الدلائل إلى أنهم ينوون نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين بما لاح منهم من أمارات الغدر ومخايل الشر بعد بيان أحكام الناقضين للعهد بالفعل. ومعنى قوله تعالى: ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ أي وإن علمت عن قوم من المعاهدين أنهم يريدون نقض العهد الذي بينك وبينهم فلاتعاجلهم ولاتباغتهم بالحرب حتى تعلن لهم أنك حرب لهم وهم حرب لك وأخبرهم بذلك إخباراً مكشوفاً بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من المعاهدة ولاتناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد حتى لايتوهم متوهم فيك شائبة خيانة أصلا ، وهذه التربية مثل أعلى في الوفاء

والابتعاد عن شبهة الخيانة ، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى بقوله عز وجل : ﴿ إن الله لايحب الخائنين ﴾ تحذيراً من الهجوم على العدو المعاهد قبل تحذيره وإنذاره ، وبياناً بأن الله لا يحب الخيانة حتى ولو في حق الكفار وهذا من الأمثلة العليا في تأديب المسلمين حتى يكونوا على أرقى درجات السلوك مع الكفار في الحرب والسلم فما بالك مع المسلمين. وقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود في الجهاد والترمذي في سننه والنسائي في الكبرى وابن حبان في صحيحه وأبو داود الطيالسي واللفظ للترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح عن شعبة قال : أخبرني أبو الفيض قال سمعت سليم بن عامر يقول : كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد وكان يسير في بلادهم حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم ، فإذا رجل على دابة أو على فرس وهو يقول : الله أكبر وفاء لاغدر ، وإذا هو عمرو بن عبسة فسأله معاوية عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهدا ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء قال : فرجع معاوية بالناس. وقد ضرب البخاري في صحيحه مثلا لكيفية النبذ إلى الكفار على سواء فقال في الجزية والموادعة مع أهل الحرب : باب كيف ينبذ إلى أهل العهد وقوله: ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ الآية ، حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرنا حميد بن عبدالرحمن أن أباهريرة قال : بعثني أبوبكر رضي الله عنه فيمن يؤذن يوم النحر بمنى : لا يحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان ، ويوم الحج الأكبر يوم النحر وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس : الحج الأصغر ، فنبذ أبوبكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم مشرك اهـ .

قال تعالى :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

هذا تيئيس للكفار من الانتصار على المسلمين وقطع لأطماع أعداء الله في توهم إطفاء نور الله ومعنى قوله عز وجل: ﴿ ولايحسبن الذين كفروا سبقوا ﴾ أي ولايخطرن ببال الكافرين أنهم يستطيعون إعجازنا وأن يفلتوا منا فإنهم تحت قهرنا وسلطاننا فمالهم من مفر كما قال عز وجل : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء مايحكمون * ﴾ أي أخطر ببال الذين يرتكبون المعاصي أن يفلتوا منا ، قبح حكمهم وخاب ظنهم وبئس ماخطر ببالهم . وقد أكد الله تبارك وتعالى ذلك بقوله عز وجل : ﴿ إنهم لايعجزون ﴾ أي إنهم لايستطيعون الإفلات من قبضتنا ، وكما قال عز وجل : ﴿ لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ﴾ أي ولايخطر ببالك أن الكفار يهربون منا ويستطيعون الفرار من عقوبتنا . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون * ﴾ بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه و سلم إذا حارب الكفار أن يضربهم الضربة التي تشرد من خلفهم من أمثالهم وأنه إذا خاف من المعاهدين نكثهم في عهدهم بما لاح له من أمارات ذلك أن ينبذ إليهم عهدهم على سواء

حتى يدفع كل شائبة من سمة الخيانة عن الإسلام والمسلمين أمر عز وجل المسلمين بأن يعدوا لأعدائهم ما استطاعوا من آلات الحرب لمقاتلتهم حسب طاقتهم وقدرتهم لأنه ينبغي للمسلمين بعد توكلهم على الله واعتمادهم عليه في النصر أن يبذلوا الأسباب التي ترهب أعداءهم وتخيفهم لينقطع طمعهم في محاربة الإسلام والمسلمين ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ أي وهيئوا لقتال أعدائكم كل ما تتمكنون من إعداده وتهيئته ، فالإعداد هو اتخاذ الشيء عدة لوقت الحاجة مما يناسب كل زمان ومكان ويكون قوة للمسلمين على أعدائهم من جميع آلات الحرب وأسلحته كالنبال والرصاص والمدافع والدبابات والطيارات والسفن المدرعة والغواصات والقنابل والصواريخ والحصون ونحوها وتدريب أبناء المسلمين على صناعتها وكيفية استعمالها وتعليم ركوب الخيل واختيار الجياد الصافنات منها ، لأن الخيل صالحة للحرب في السهل والجبل ، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي . كما روى مسلم عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله عز وجل فلايعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه. كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي أسيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل " كما روى مسلم من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى. كما

روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضى الله عنه قال : كان أبو طلحة يتترس مع النبي صلى الله عليه وسلم بترس واحد ، وكان أبوطلحة حسن الرمي فكان إذا رمى تشرف النبي صلى الله عليه وسلم فينظر إلى موضع نبله" ومعنى تشرف أي رفع رأسه وأتبع نظره سهم أبي طلحة.

والمراد برباط الخيل ربطها واقتناؤها للغزو ، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً با لله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة " كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" البركة في نواصي الخيل " كما روى البخاري في صحيحه من حديث عروة بن أبي الجعد البارقي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر والمغنم " كما روى مسلم في صحيحه من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوي ناصية فرس بإصبعه ويقول : " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة " الأجر والغنيمة" ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ أي تخوفون به عدو الله وعدوكم من الكفار فلا يجرؤون على محاربتكم ويكفُّون أذاهم عنكم ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ أي وترهبون به قوماً آخرين ممن حولكم من المنافقين من الأعراب وغيرهم لا تعرفونهم لشدة كتمان كفرهم لكن الله يعلمهم فإنه لاتخفى عليه خافية ، وكما قال عز وجل : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم ﴾

ومعنى قوله عز وجل ﴿ وماتنفقوا مـن شـيء في سبيل الله يـوف إليكـم وأنتـم لاتظلمون*﴾ أي وما تبذلوه من مال ونفقة في سبيل الله لإعداد آلـة الحـرب أو تدريب المحاربين أو الإنفاق على المجاهدين لإعـلاء كلمـة الله يـوف لكـم أجـره وستحصلون على ثوابه كاملاً غير منقـوص فـإن الله لايضيـع أجـر مـن أحسـن عملا.

قال تعالى :

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

بعد أن أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم إذا خاف من قوم خيانة أن ينبذ إليهم عهدهم على سواء وأمر المسلمين بإعداد القـوة الممكنـة لإرهـاب أعداء الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يميل إلى صلحهم ومسالمتهم إذا مالوا إلى الصلح والمسالمة وأن يتوكـل علـى الله عـز وجـل في دفـع شـرهم إذا كـانوا يريدون بالصلح المكر والخديعة ليتقووا ويستعدوا لحرب النبي صلـى الله عليـه وسلم وبين له صلى الله عليه وسلم أن الله عـز وجـل سيكفيه شـرورهم ويـرد كيدهم إلى نحورهم وضرب له مثلاً بما أيـده بـه مـن النصـر في بـدر وبتـأييده بالمؤمنين الذين كانوا قبل الإسلام أعداء متنـاحرين متقـاتلين فـألف بـين قلوبهـم بفضله وكانوا على شفا حفرة من النار فـأنقذهم منهـا. ومعنـى ﴿ وإن جنحـوا

للسلم فاجنح لها ﴾ أي وإن مالوا إلى المصالحة والمسالمة وطلبوا منك ذلك فمل إلى مصالحتهم ومهادنتهم . ومعنى : ﴿ وتوكل على الله ﴾ أي صالحهم معتمداً على الله عز وجل في دفع شرهم ومكرهم إن كانوا يطلبون الصلح خداعاً ومكراً ومكيدة ، وأصل الجنوح في اللغة الميل يقال : جنحت الإبل إذا أمالت أعناقها . وقوله عز وجل : ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ تذييل لتأكيد طمأنينة قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقلوب المؤمنين بأن الله الذي أمرهم بالجنوح إلى مصالحة الكفار إن مالوا إليها لن يضيع المؤمنين لأنه السميع العليم بجميع النوايا التي ينويها كل فريق فلو كان الكافرون يريدون بالصلح الخديعة فإن الله السميع العليم يعلم سرهم ويسمع نجواهم ويبطل مكرهم ويرد كيدهم إلى نحورهم ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾ أي وإن كانوا قد أرادوا بمصالحتك المكر والخديعة استعداداً لقتالك مبطنين ذلك فصالحهم ولا تخش منهم فإن حسبك الله أي لأن الله كافيك بنصره ومعونته ، ومعنى قوله تعالى: ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ أي هو الذي قواك بنصره لك يوم بدر وقواك بالمؤمنين من أهل بدر وغيرهم من المهاجرين والأنصار ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وألف بين قلوبهم ﴾ أي وجمع بين قلوب المؤمنين على الحب في الله عز وجل فصاروا بنعمة الله إخواناً متحابين معتصمين بحبل الله جميعاً بعد ما كانوا أعداء متقاتلين وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها كما قال عز وجل : ﴿ واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ أي لو كنت

تملك جميع ما في الأرض من الخزائن وبذلته جميعاً لتأليف قلوبهم المتنافرة ما تمكنت من تأليف قلوبهم لشدة ماكان بينهم من العداوات والحروب في يوم بعاث وغيره من أيام جاهليتهم ولكن الله وحده هو الذي ألف بينهم وجمع قلوبهم على الحب في الله حتى صاروا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر لأنه تعالى عزيز حكيم أي غالب قاهر له الحكمة البالغة فلا يعجزه شيء ولايفوته شيء.

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

بعد أن طمأن الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم وحضه على الميل إلى صلح من يميل إلى الصلح من الكفار في قوله عز وجل : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾ أكد ذلك هنا وبين عز وجل أنه كافيه وكافي أتباعه من المؤمنين فمعنى قوله عز وجل : ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ أي يا أيها الرسول يكفيك الله ويكفي أتباعك من المؤمنين فيؤيدكم بنصره ويدحر أعداءكم ويرد كيدهم إلى نحورهم مهما تكاثرت أعدادهم وتوافرت أمدادهم ، و (مَن) في قوله عز وجل : ﴿ ومن اتبعك ﴾ في موضع نصب على أنه مفعول معه أي كفاك وكفى أتباعك الله ناصرا كما في قول الشاعر :

فحسبك والضحاك عضب مهند ---------------

ولا يجوز جعل (مَن) في موضع رفع لما تقرر من أنه لا يجوز أن يقال :

حسبك الله وفلان ، لأن ذلك شرك. كما لا يجوز أن يقال : ما شاء الله وشئت ، لأن هذا القول لمّا قاله رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أجعلتني لله ندا ؟ قل : ما شاء الله ثم شئت.

هذا ولاعبرة بقول بعض النحاة : إنه لا يجوز العطف على الضمير المجرور دون إعادة الجار لأنه مذهب مصادم لعقيدة التوحيد المقررة عند أهل السنة والجماعة وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن هناك أموراً يجوز العطف فيها على الله بالواو وأموراً لا يجوز فيها ذلك لاختصاصها بالله عز وجل حيث قال : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ وقال عز وجل ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ﴾ لأن الإيتاء يضاف إلى الله وإلى غيره حقيقة وكذلك الشكر أما حسبك الله وكذلك الرغبة والرهبة والإنابة والقنوت فإنه لله وحده وهو من أنواع العبادات التي لا تكون إلا لله وكما قال عز وجل: ﴿ وإياي فارهبون ﴾.

قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

بعد أن أكد الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بأنه

حسبهم وكافيهم في ردع أعدائهم ، حرض نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على حرب أعدائهم ومناجزتهم ومبارزة أقرانهم من الكفار ، والتحريض في اللغة الحث على الشيء بكثرة الترغيب فيه وتسهيله قال في مختار الصحاح : والتحريض على القتال الحث والإحماء عليه ، وقد روى مسلم في صحيحه صفة من صفات تحريض رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين على القتال فقد أخرج من حديث أنس رضي الله عنه في قصة غزوة بدر قال : وجاء المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يُقدّمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه ، فدنا المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض قال : يقول عمير بن الحمام الأنصاري : يارسول الله جنةُ عرضها السموات والأرض ؟ قال : " نعم " قال : بخٍ بخٍ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مايحملك على قولك بخٍ بخٍ ؟" قال : لا والله يارسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها. فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة . قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل . وقال البخاري في صحيحه : باب التحريض على القتال ، وقوله تعالى : ﴿ حرض المؤمنين على القتال ﴾ حدثنا عبدالله بن محمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق عن حميد قال : سمعت أنساً رضي الله عنه يقول : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى مابهم من النصب والجوع قال : اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة ، فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد مابقينا أبدا اهـ

والأمر بالتحريض على القتال بعد إخبارهم بأن الله عز وجل حسبهم وكافيهم لتجري فيهم سنة الله في خلقه من الابتلاء كما قال عز وجل : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم *﴾ وقد اشتملت هاتان الآيتان على الاحتباك المعروف في علم البديع وقد قلت في تفسير قوله عز وجل في سورة الأعراف : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا * ﴾ ... الآيات الثلاث : (ومن أظهر هذه الأبواب البديعية في هذا المقام الاحتباك وهو أن يثبت قيدا في مقام ويحذفه في المقام الآخر لدلالة المذكور على المحذوف ، وهذا الباب من أعظم أبواب البلاغة ، وقد ورد كثيراً في كتاب الله عز وجل كقوله تبارك وتعالى : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون * الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين *﴾ فقد قيد العشرين في قوله : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون ﴾ بقيدين وهو كون العشرين منكم وكونهم صابرين ، ثم قال : ﴿ يغلبوا مائتين ﴾ و لم يقيدها بقيد ثم قال : ﴿ وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ﴾ فلم يقيد المائة هنا بقيد الصبر اكتفاء بالقيد السابق وهو كونهم صابرين وقيد الألف بكونهم من الذين كفروا فكان قوله ﴿ مائتين ﴾ مقيدا بهذا القيد في المعنى أي يغلبوا مائتين من الذين كفروا. وقال:

﴿ يغلبوا ألفين بإذن ا لله ﴾ فكان إذن ا لله قيدا في الجميع اهـ. وقـد دلـت الآيـة الأولى على أنه لا يحل للواحد من المؤمنين أن يفر من عشـرة مـن الكـافرين فـإن زاد عدد الكفار عن عشرة أمام الواحد المؤمن فلـه أن يفـر ولاحـرج عليـه وقـد نسخت الآية الثانية هـذا الحكـم فـأوجبت علـى الواحـد المؤمـن أن يثبـت أمـام الرجلين من الكفار فإن زاد عدد الكفار عن اثنين أمام الواحد المؤمن فله أن يفـر ولاحرج عليه. قال البخاري رحمه ا لله في كتاب التفسير من صحيحه : ﴿ يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشـرون صـابرون يغلبـوا مـائتين وإن يكن منكم مائة يغلبـوا ألفـا مـن الذيـن كفـروا بـأنهم قـوم لا يفقهـون *﴾ حدثنا على بن عبدا لله حدثنا سفيان عن عمرو عن ابن عباس رضي ا لله عنهما: لما نزلت ﴿ إن يكن منكم عشـرون صـابرون يغلبـوا مـائتين ﴾ فكُتـب ألا يفـر واحد من عشرة – فقال سفيان غير مرة – أن لا يفر عشـرون مـن مـائتين. ثـم نزلت : ﴿ الآن خفف ا لله عنكـم ﴾ الآية فكتب أن لا يفر مائـة مـن مـائتين – زاد سفيان مرة : نزلت ﴿ حرض المؤمنين على القتـال إن يكـن منكـم عشـرون صابرون ﴾ قال سفيان : وقال ابن شبرمة : وأرى الأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكر مثل هذا . ثم قال البخـاري : ﴿ الآن خـفف ا لله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ﴾ الآية إلى قولـه : ﴿ وا لله مـع الصـابرين *﴾ حدثنـا يحيـى بـن عبـدا لله السُّلمي أخبرنا عبدا لله بن المبارك أخبرنا جرير بن حازم قال : أخبرني الزبير بـن خريت عن عكرمة عن ابن عباس رضي ا لله عنهما قال : لما نزلـت ﴿ إن يكـن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ شـق ذلـك علـى المسـلمين حـين فـرض عليهم أن لا يفر واحد من عشـرة فجـاء التخفيـف فقـال : ﴿ الآن خفـف ا لله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكـم مائة صابرة يغلبـوا مـائتين ﴾ قـال :

فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم اهـ.
ومعنى قوله عز وجل : ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أي من أجل أنهم قوم عمي القلوب منطمسة بصائرهم يتخبطهم الشيطان وتجتنبهم السكينة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وعلم أن فيكم ضعفاً ﴾ أي وعلم أنكم لاقدرة للواحد منكم على قتال عشرة أمثاله إلا بمشقة تفوق قدرتكم وليس هذا علماً حادثاً بل هو علم أزلي ، فهو يعلم حالهم قبل خلقهم وأمرهم بثبات الواحد للعشرة لكنه عز وجل له الحكمة البالغة فيما أمرهم به في الحالة الأولى وفي الحالة الثانية ولاريب أن أمره الأول كان في حال من قلة العدد وكثرة العدو وكثيراً ماتدرج التشريع من التشديد إلى التخفيف كما هو هنا وكما في فرض الصيام من بعد صلاة العشاء أو النوم قبلها إلى غروب الشمس ثم جعل الصيام من طلوع الفجر إلى غروب الشمس وعلى المسلم الطاعة لله ولرسوله في السراء والضراء والعسر واليسر والله تفضل على عباده فلا يكلف نفساً إلا وسعها. وقوله عز وجل : ﴿ والله مع الصابرين ﴾ تذييل لتأكيد نصره لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين بسبب معيته للمؤمنين المقتضية لتأييدهم وتسديدهم وفوزهم.

قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بتحريض المؤمنين على القتال وحض المؤمنين على الثبات أمام أعدائهم وحدد لهم ما يجوز ومالا يجوز من الفرار في المعارك ووعدهم بنصره لهم لأنه معهم بتأييده وتسديده أشار هنا إلى ما مكن للمسلمين من أسر أعدائهم والاستيلاء على أموالهم وإباحتها لهم وقد كان المسلمون أسروا يوم بدر سبعين أسيرا منهم العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب وأبوالعاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها وسهيل بن عمرو والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم ماذا يفعل بالأسرى ، فأشار أبوبكر رضي الله عنه باستبقائهم وأخذ الفدية منهم وأشار عمر رضي الله عنه بضرب أعناقهم وكان من طبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار الأيسر مالم يكن إثما فاختار رأى أبي بكر فنزلت هذه الآيات الثلاث بتأييد رأي عمر رضي الله عنه وإجازة ما اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى مسلم في صحيحه من طريق سماك الحنفي أبي زميل عن ابن عباس رضي الله عنهما : فلما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبوبكر يانبي الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قلت : لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكني من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة

الكفر وصناديدها فهوي رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ما قال أبوبكر و لم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وأبوبكر قاعدين يبكيان ، قلت : يارسول ا لله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عُرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من نبي ا لله صلى ا لله عليه وسلم) وأنزل ا لله عز وجل : ﴿ ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾ فأحل ا لله الغنيمة لهم اهـ. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ أي ما ينبغي لنبي من أنبياء ا لله إذا تمكن من أخذ الكفار وحبسهم أن يقيهم أسرى حتى يوسعهم قتلاً ولاشك أن الشرائع السماوية السابقة كلها متفقة على الجهاد لإعلاء كلمة ا لله وأنها ما كانت تبيح الأسر إلا بعد التقتيل الشديد في أعداء ا لله. وقد سقت في تفسير سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل ا لله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ﴾ الآيات الثلاث ، بعض نصوص الكتب التي بيد اليهود والنصارى ونقلت مافي الاصحاح (الفصل) العشرين من سفر التثنية في الفقرة العاشرة إلى السادسة عشرة من التوراة التي بيد اليهود والنصارى إذ يقول : حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف .. الخ. وقوله عز وجل : ﴿ تريدون عرض الدنيا ﴾ عتاب لمن رغب في قبول

فداء الأسرى و لم يرغب في قتلهم واستئصال شأفتهم . وقوله تعالى : ﴿ وا لله يريد الآخرة ﴾ وا لله يحب لكم النعيم الأبدي السرمدي في الفردوس الأعلى وجنات النعيم ، وهذا ثناء على من أشار بقتل الأسارى واستئصال شأفتهم . وا لله عزيز أي غالب قادر على تحقيق سعادتكم في الدارين وهو حكيم في أوامره ونواهيه وله الحكمة البالغة. وقوله عز وجل : ﴿ لولا كتاب من ا لله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم *﴾ قال ابن جرير رحمه ا لله : يقول تعالى ذكره لأهل بدر الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداء : ﴿ لولا كتاب من ا لله سبق ﴾ يقول : لولا قضاء من ا لله سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ بأن ا لله محل لكم الغنيمة ، وأن ا لله قضى فيما قضى أنه لا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين ما يتقون ، وأنه لايعذب أحداً شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ناصراً دين ا لله لنالكم من ا لله بأخذكم الغنيمة والفداء عذاب عظيم اهـ.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا ا لله إن ا لله غفور رحيم *﴾ تجريد للأمر بإباحة الغنائم لأمة محمد صلى ا لله عليه وسلم بعد أن كانت محرمة على جميع الأمم السابقة ، أي فقد أحللت لكم الغنائم وأبحتها لكم فتمتعوا بها كما شئتم أكلاً وشرباً ولباساً وسكناً وغيرها والتعبير بالأكل هنا لأنه المقصود الأكبر من الاستيلاء عليها ، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر رضي ا لله عنه أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت الأرض لي مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم و لم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى

الناس عامة. ومعنى ﴿ واتقوا الله ﴾ أي وخافوا الله فلا تعودوا لفعل شيء دون أن يكون قد أذن لكم فيه ، وتذييل الآية بقوله عز وجل: ﴿ إن الله غفور رحيم * ﴾ لتأكيد عفوه عنهم ومغفرته لهم وإزالة جميع الأوضار المترتبة على ما بدر منهم في شأن الغنيمة والفداء.

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ ﴾ .

هذه بشارة من الله عز وجل لمن يسلم من الأسرى الذين دفعوافداء للمسلمين بأن الله سيعطيهم خيرا مما أخذ منهم ويغفر لهم وقد حقق الله عز وجل لمن أسلم منهم وعده وقد كان العباس رضي الله عنه ممن أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منه الفداء من الأسرى وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه قال : والله لا تذرون منه درهماً . كما روى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين ، فقال : انثروه في المسجد ، وكان أكثر مال أتيَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة و لم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه إذ جاءه العباس فقال : يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : خذ ، فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال: يا رسول الله اؤمر بعضهم يرفعه إلي قال : لا قال : فارفعه أنت علي قال : لا فنثر منه ثم ذهب يقله فلم يستطع ، فقال : يا رسول الله اؤمر بعضهم يرفعه إلي قال : لا ، قال : فارفعه أنت علي قال : لا فنثر منه ثم احتمله فألقاه على كاهله ثم انطلق فمازال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبعه بصره حتى خفي علينا عجبا من حرصه فما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثم منه درهم اهـ.

قال تعالى :

﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

بعد أن وعد الله الأسرى إن أسلموا أن يؤتيهم الله خيراً مما أخذ منهم من الفداء وأن يغفر لهم ماكان منهم من الصد عن سبيل الله وكفرهم به وبرسوله توعدهم هنا بأنهم إن عزموا على المكر والخديعة بعد أن يطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله سيمكن رسوله صلى الله عليه وسلم منهم مرة أخرى ولن يفلتوا كما أمكنه منهم يوم بدر فمعنى : ﴿ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ﴾ أي وإن ينووا في أنفسهم ويضمروا لك السوء بعد أن تطلقهم فسنمكنك منهم ولن يفلتوا من العقاب فجواب الشرط محذوف لظهوره تقديره : إن يريدوا خيانتك أمكناك منهم وقوله عز وجل : ﴿ فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ﴾ دليل على جواب الشرط المقدر

ومعنى ﴿ فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ﴾ أي فقد سبقت منهم خيانتهم لله بكفرهم به وحربهم لرسوله صلى الله عليه وسلم فأمكن المسلمين منهم يوم بدر حتى أسروهم ، وعند الله مكرهم فهو العليم الحكيم المحيط بسرائرهم وضمائرهم.

قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) ﴾ .

بعد أن رغب الأسرى في الإسلام وولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذرهم من خيانة رسول الله صلى الله عليه وسلم نبه المؤمنين إلى المستحقين لولايتهم والذين لا يستحقون هذه الولاية وجعل المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض ، وحرم المؤمنين المقيمين بين ظهراني المشركين من ولاية المؤمنين المهاجرين والأنصار حتى يهاجروا وأوجب على المهاجرين والأنصار نصرة المؤمنين الذين لم يهاجروا إذا طلبوا النصرة من المسلمين بشرط ألا يكونوا طلبوا نصرتهم على قوم بينهم وبين المهاجرين والأنصار عهد وميثاق ، وأنه لا ولاية بين مسلم وكافر أبداً حيث قال هنا : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الخ .. الآية. ومعنى ﴿ آووا ونصروا ﴾ أي آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين من

بلادهم ومنازلهم ونصروهم على أعدائهم وبذلوا أنفسهم في سبيل نصرة الإسلام ولاخلاف بين علماء الإسلام على أن المهاجرين مقدمون على الأنصار قال ابن كثير في تفسيره : وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لايختلفون في ذلك ا هـ .
وقال البخاري في صحيحه : باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار قاله عبدالله بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم حدثني محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أو قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم قال : لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شعباً لسلكت في وادي الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار فقال أبو هريرة : ما ظلم بأبي وأمي : آووه ونصروه ، أو كلمة أخرى اهـ. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال : اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولاتغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله

وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولاذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لاتدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا اهـ. ولاشك أن قطع الولاية بين المسلمين وبين المؤمنين الذين لم يهاجروا كان قبل فتح مكة وشدة حاجة المسلمين إليهم في دار الهجرة ، فلما فتحت مكة سقط وجوب الهجرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاهجرة بعد الفتح فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما واللفظ للبخاري ومسلم* من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا) اهـ. وقد وصف الله تبارك وتعالى المهاجرين والأنصار حيث قال : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون *﴾ وقد صار المهاجرون والأنصار أخوة أظهر وأشد من أخوة النسب وقد أرشدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتآخوا : اثنين اثنين فيتآخى رجل من المهاجرين مع رجل من الأنصار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يؤاخي بينهم فآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد رضي الله عنهما وآخى بين أبي عبيدة بن الجراح

وأبي طلحة رضي الله عنهما كما رواه مسلم . وكان المتآخيان يتوارثان بهذه الأخوة حتى نزل قوله تعالى بعد غزوة بدر : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ يعني في الميراث وقد روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجريّ الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينهم ، فلما نزلت : ﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾ نسخت... الحديث.

ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾ ، أي لا يجوز لمسلم أن يتولى كافراً بل يجب على المسلمين قطع كل ولاية مع الكافرين فلا يتوارث أهل ملتين وقد روى البخاري ومسلم من حديث أسامة ابن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم. فإذا تولى المسلم الكافر دون المؤمن اشتد ساعد الكفر وفي هذا فتنة في الأرض وفساد كبير حيث يلتبس الحق بالباطل وتنقطع أوثق عرى الإيمان وهو الحب في الله والبغض في الله والضمير في قوله عز وجل: ﴿ إلا تفعلوه ﴾ أي ما أمرتم به من التواصل بينكم وبين بعضكم بعضاً ومن قطع الموالاة بينكم وبين الكفار .

قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

هذا ختام المسك من سورة الأنفال أكد فيه عز وجل أن المهاجرين والأنصار قد حازوا الدرجات العلى وفازوا بالنعيم المقيم وهم قد حققوا الإيمان فأثابهم الله بذلك مغفرة لذنوبهم ورزقاً كريماً في جنات النعيم والمراد بالذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم هم الذين هاجروا بعد نزول هذه الآية فمن هاجر قبلها فهو في زمرة السابقين الأولين ومن هاجر بعد نزول هذه الآية فهو على دربهم بفضل الله وبرحمته ، والمراد بأولى الأرحام هنا ذوو القربى من أصحاب الفرائض والعصبات. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وليس المراد بقوله ﴿ وأولوا الأرحام ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة بل يدلون بوارث كالخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة اهـ. ولا شك أن العرب استعملوا كلمة الرحم في العصبات كذلك ومنه قول قُتيلة بنت النضر بن الحارث ترثي أباها حين قتله النبي صلى الله عليه وسلم صبراً بعد أسره في بدر :

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه   لله أرحام هناك تشقق

فقد أطلقت اسم الأرحام على أبناء الأب . وقال القرطبي في تفسير هذه الآية : ومما يبين أن المراد بالرحم العصبات قول العرب : وصلتك رحم، لا يريدون قرابة الأم ثم استشهد القرطبي ببيت قُتيلة المذكور. وقد قسم الله عز وجل المواريث. والمراد بكتاب الله في الآية الأخيرة هو حكم الله الذي أنزله في كتابه وأوضح فيه لكل ذي حق من الورثة حقه واستقرت به أحكام التوارث وتمت وكملت بحمد الله وله المنة والشكر والثناء الحسن. وبهذا تم تفسير سورة الأنفال و لله الحمد.

تفسير سورة التوبة

قال تعالى :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) ﴾ .

هذه سورة التوبة وتسمى سورة براءة أيضاً وهما أشهر أسمائها ، وهي آخر سورة نزلت من القرآن فقد روى البخاري في صحيحه من حديث البراء رضي الله عنه قال : آخر سورة نزلت براءة اهـ. وكان نزولها بعد رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك في شوال سنة تسع من الهجرة. وكانت سورة الأنفال قد نزلت في غزوة بدر التي وقعت في رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، والمناسبة بين سورة الأنفال وسورة التوبة ظاهرة وهي الشبه الشديد بين السورتين حيث يذكر فيهما شأن القتال والعهود. وقد ذكر في سورة الأنفال أنه إذا خاف رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوم خيانة نبذ إليهم على سواء. وافتتح سورة التوبة بما يفيد أن نبذ العهد إلى الكفار يكون في مدة تصل إلى أربعة أشهر حتى لا يخطر ببال أحد من أعداء الإسلام رائحة خيانة وغدر من المسلمين و لم تفتتح سورة التوبة بالبسملة ولذلك لم تكتب في المصحف في صدرها لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر كتاب الوحي بكتابتها في صدر السورة ، قال القرطبي : والصحيح أن التسمية لم تكتب لأن جبريل عليه السلام مانزل بها في هذه السورة قاله القشيري اهـ. ومعنى قوله عز

وجل : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ أي هذه براءة وإعلان بقطع الموالاة ونبذ العهود إلى المشركين الذين كانوا عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بدرت منهم أمارات الخيانة أو ظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أعدائه. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ أي سيروا وتقلبوا في الأرض آمنين على أنفسكم وأموالكم مدة أربعة أشهر من تاريخ نزولها في شوال سنة تسع من الهجرة إلى انسلاخ الأشهر الحرم ، فإنكم بعد تمام هذه الأشهر الأربعة تكونون حرباً لنا ونكون حرباً لكم لاعهد لكم ولا أمان لكم بعدها ، وهذا في غاية الإحسان لهؤلاء الأعداء بترك فرصة لهم ليراجعوا أنفسهم وليتدبروا أمرهم لعلهم يرجعون إلى الله ويسعدون بالدخول في الإسلام ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين *﴾ أي وثقوا وأيقنوا أنكم إن بقيتم على كفركم وعداوتكم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم لن تفلتوا من عقوبة الله وأن الله مخزيكم ومذلكم وناصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم ، والخطاب في قوله عز وجل : ﴿ إلى الذين عاهدتم ﴾ لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه هو الذي كان يتولى المعاهدة وكان أصحابه رضي الله عنهم كلهم راضين بذلك فكأنهم عاقدوا وعاهدوا فنسب العقد إليهم ، فإنه إذا عقد الإمام عقداً لمايراه من المصلحة وجب على جميع الرعايا الالتزام به.

قال تعالى :

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾ .

بعد أن أنذر المعاهدين من المشركين الذين بدرت منهم خيانة أو ظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبذ إليهم عهودهم وأمنهم أربعة أشهر من وقت نزول الآيتين السابقتين أعلن هنا براءة الله ورسوله من جميع المشركين ينادى عليهم بها يوم الحج الأكبر حتى يتوبوا إلى الله من شركهم وكفرهم بالله ورسوله ، وأن يعرف الناس أنهم ليسوا على شيء حتى يؤمنوا بالله ورسوله ، وأن عليهم أن لايظهروا ضلالهم وفجورهم ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر رضي الله عنه ليحج بالناس في السنة التاسعة من الهجرة بعد فتح مكة وصيرورتها دار إسلام وسيطرة المسلمين عليها وقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلن يوم الحج الأكبر أنه لن يحج بعد العام مشرك ولايطوف عريان ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب ليكون تحت إمرة أبي بكر ويساعده في إعلان البراءة من المشركين ، فقد قال البخاري في تفسير هذه الآية من صحيحه : باب قوله : ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ آذنهم أعلمهم حدثنا عبدالله بن يوسف حدثنا الليث حدثني عقيل قال ابن شهاب : فأخبرني حميد بن عبدالرحمن أن أباهريرة قال : بعثني أبو

بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين يعني يوم النحر يؤذنون بمنى أن لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان قال حميد : ثم أردف النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة ، قال أبوهريرة فأذّن معنا عليّ في أهل منى يوم النحر ببراءة وأن لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان وقد روى هذا الحديث مسلم في صحيحه من طريق ابن شهاب عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف عن أبي هريرة قال : بعثني أبوبكر الصديق في الحجة التي أمّره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر : لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان قال ابن شهاب : فكان حميد بن عبدالرحمن يقول : يوم النحر يوم الحج الأكبر من أجل حديث أبي هريرة اهـ . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس ﴾ الآية أي إعلام وإنذار من الله ورسوله إلى عموم الناس من المعاهدين وغير المعاهدين بأن ذمة الله وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بريئة من كل مشرك فمن تاب من الشرك وأخلص العبادة لله عز وجل فقد فاز وسعد وصار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن استمر على شركه وكفره فليتيقن أنه غير قادر على الفرار من عذاب الله وعقوبته بل هو في قبضة الله وتحت قهره ومشيئته ، وبشر يا محمد أي وأخبر الذين كفروا واستمروا على كفرهم خبراً يسوء وجوههم ويظهر أثره على بشرتهم بأن لهم في الدنيا الخزي والنكال وأن لهم في الآخرة المقامع والأغلال.

قال تعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر عز وجل حكم المعاهد الذي بدرت منه خيانة أو ظاهر على المسلمين وذكر براءته من شرك المشركين ذكر هنا حكم المعاهد الذي لم تبدر منه خيانة و لم يظاهر على المسلمين أحداً وكان عهده مؤقتاً بوقت محدد فأوجب على المسلمين أن لا يتعرضوا لهم مدة بقاء معاهدتهم حتى ينتهي أجلها ماداموا على حفاظهم على عهدهم ، ولاشك أن الناس عند نزول هذه الآية صاروا يدخلون في دين الله أفواجاً ، فعصمهم الإسلام وصان أعراضهم وأموالهم ودماءهم فلله الحمد والمنة. وفي تذييل هذه الآية بقوله عز وجل:﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ حض على الوفاء بالعهد وتنبيه على أن مراعاة حقوق العهود من باب تقوى الله عز وجل ومخافته تبارك وتعالى في جميع الأعصار والأمصار ليكون ذلك نبراساً للمسلمين وإعلاماً للأمم بأن شريعة الإسلام هي الكافية الوافية بصيانة العهد.

قال تعالى :

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

هـــذا بـيان للأمـد الذي تنتهي فيه مدة الأمان الـتي أمـر ا لله رسـوله صلـى ا لله عليه وسلم أن يخبر بها المـشركين عـند نبذ العـهد إليهم بقوله عــز وجـل : ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشـهر ﴾ وأن هـذه الأشـهر تنتهـي بنهايـة الأشـهر الحرم وانسـلاخها في نهايـة شـهر ا لله المحـرم الحـرام ليعلـم هـؤلاء المشـركون أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم عند انسلاخ هذه الأشهر سـيكون حربـاً لهـم. ولاشك أن شهر رجب من الأشهر الحرم لكنـه غـير مـراد هنـا وغـير داخـل في أشهر الإمهال الأربعة بإجماع أهل العلم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فإذا انسـلخ الأشهر الحرم ﴾ قال ابن جرير رحمه ا لله : يعني فإذا انقضى ومضى وخرج يقال منه : سلخنا شهر كذا نسلخه سلخاً وسلوخاً بمعنى : خرجنا منه ، ومنه قولهم: شاة مسلوخة ، بمعنى المنزوعة من جلدها المخرجة منه ، ويعنى بالأشهر الحـرم : ذا القعدة وذا الحجـة والمحرم اهـ.

ومعنى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهـم ﴾ أي فاقـتلوا المشـــركين حيـث لقيتموهـم من الأرض. ومعنـى : ﴿ وخذوهـم ﴾ أي وأسـروهـم فالأسـير يسمى الأخيذ ، ومعنى : ﴿ احصروهـم ﴾ أي وامنعوهـم من التصـرف في بـلاد الإسلام ودخول مكة. ومعنى ﴿ واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ أي وترصدوا لهم في كل طريق ومرقب لقتلهم أو أسـرهـم قـال الفـيروز ابـادي في القـاموس المحيـط : رصده رَصْداً ورَصَداً رَقبَـه كـترصَّدَه اهــ. وقـال ابـن منظـور في لسـان العـرب المحيط: يقال أرصدته إذا قعدت له على طريقه ترقبه اهـ. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن ا لله غفور رحيـم * ﴾ أي فإن رجعوا عن الشرك با لله وجحود نبـوة سـيد رسـله وخـاتم أنبيائـه محمـد صلى ا لله عليه وسلم وأخلصوا العبادة لله وحده وأقروا بنبوة رسـول ا لله صلـى

الله عليه وسلم وأطاعوه وأدوا مافرض الله عليهم من الصلاة ، وأعطوا ما أوجب الله عليهم من الزكاة فخلوا سبيلهم أي فلا تحجروا عليهم ودعوهم ولاتتعرضوا لهم بأي أذى فإنهم بدخولهم في الإسلام صاروا إخواناً لكم ، يستحقون منكم التكريم والمؤازرة والحب ، لأن من تاب إلى الله تاب الله عليه وغفر له ورحمه لأنه هو الغفور الرحيم. هذا ولاشك أن صدر الآية جعل قتل المشركين هو من أجل شركهم ، وهذا يقتضي زوال القتل بمجرد النطق بالشهادتين ثم اشترط من أجل تخلية سبيلهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولاتعارض في ذلك لأنه بمجرد نطق المحارب بالشهادتين يجب الكف عن قتاله ، فإذا حضرت الصلاة وامتنع عن إقامتها أو وجبت عليه الزكاة وأبى أن يؤديها يؤخذ ولا يخلى سبيله لأنه رفض بعض أركان الإسلام وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى ، فقد روى البخاري في المغازي وغيرها ومسلم في كتاب الإيمان من صحيحيهما واللفظ للبخاري من طريق أبي ظبيان قال : سمعت أسامة بن زيد رضي الله عنهما يقول : بعثَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحُرَقة فصبّحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله فكف الأنصاري عنه فطعنته برمحي حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أسامة أقتلته بعد ماقال لا إله إلا الله، قلت : كان متعوذا ، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم اهـ. كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) الحديث ، كما روى البخاري في صحيحه من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما توفى النبي صلى الله عليه وسلم واستُخلف أبوبكر بعده وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله . فقال أبوبكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها . قال عمر رضي الله عنه : فوالله ماهو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر فعرفت أنه الحق اهـ.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية : قال ابن عباس : رحم الله أبابكر ماكان أفقهه. وقال ابن العربي : فانتظم القرآن والسنة واطردا ، ولاخلاف بين المسلمين أن من ترك الصلاة وسائر الفرائض مستحلا كفر ، ومن ترك السنن متهاوناً فَسَق ، ومن ترك النوافل لم يحرج إلا أن يجحد فيكفر لأنه يصير رادّاً على الرسول عليه السلام ما جاء به وأخبر عنه اهـ .

قال تعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ ﴾ .

هذه بينة أخرى من البينات الجلية الواضحة التي تُظهر للعالمين أن دين الإسلام هو دين العلم والسلم ، وترشد هذه الآية إلى أن الأمر بقتال المشركين ومحاصرتهم ليس حباً في سفك دمائهم بل القصد منه حملهم على الخروج من

الظلمات إلى النور ومن الجهل إلى العلم ليسعدوا في الدنيا والآخرة وكأنه يقودهم بالسلاسل إلى الجنة ، ولذلك أذن بفتح أبواب دار الإسلام لمن رغب من المشركين الذين يعلنون رغبتهم في معرفة دين الإسلام وسماع القرآن وتعلمه وأن عليهم أن يطلبوا من ولي أمر المسلمين أن يمنحهم أماناً وجواراً ليسمعوا كلام الله ، وأن على إمام المسلمين وولي أمرهم أن يمنحهم هذا الأمان وأن يجيرهم من كل معتد يحاول الاعتداء عليهم مدة بقائهم في دار الإسلام سواء قبلوا الدخول في الإسلام أو رفضوا الدخول فيه. وأن على الإمام وجميع المسلمين حفظهم ورعايتهم ما داموا يطلبون العلم وحتى يرجعوا إلى بلادهم آمنين مطمئنين على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، فإذا وصلوا إلى مأمنهم في ديارهم اعتبرهم الإمام محاربين وصار حرباً لهم كما كانوا قبل الاستجارة وكذلك من دخل للتجارة أو حاملاً لرسالة أو طالباً لصلح أو هدنة أو نحو ذلك وطلب أماناً منح هذا الأمان. وقوله ﴿ أحد ﴾ مرفوع بفعل الشرط المقدر الذي يدل عليه قوله ﴿ استجارك ﴾ كأنه قيل : وإن استجارك أحد من المشركين استجارك. وهذا اللون من الأساليب البلاغية يساق للتأكيد ، وللتنبيه هنا إلى أن ولي أمر المسلمين ينبغي له أن يتأكد أن هذا الراغب في دخول دار الإسلام من المشركين هو مستجير وحريص على هذه الاستجارة لسماع القرآن ، أما إذا ثبت لولي أمر المسلمين أن هذا الشخص قد استغل هذه الحصانة التي منحت له ليتجسس على المسلمين لأعداء المسلمين ويطلع على عوراتهم وثغراتهم وأسرارهم فللإمام قتله إن شاء وله أن يتخذه أسيراً ليبادل به الأسرى من المسلمين ، فالخيرة للإمام في شأنه على ما يراه مصلحة للإسلام والمسلمين. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال :

أتى النبّي صلى الله عليه وسلم عَيْنٌ من المشركين وهو في سفر فجلس عند أصحابه يتحدث ثم انفتل فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اطلبوه واقتلوه... الحديث.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام و حتى يرجع إلى مأمنه ووطنه. اهـ.

وقال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية : وظاهر الآية إنما هي فيمن يريد سماع القرآن والنظر في الإسلام فأما الإجارة لغير ذلك فإنما هي لمصلحة المسلمين والنظر فيما تعود عليهم به منفعته. اهـ.

ومعنى : ﴿ استجارك ﴾ أي طلب أمانك وجوارك له بحفظه ورعايته لتكون له جاراً أي مجيراً حافظاً له من أن يعتدي عليه أحد من رعيتك. ومعنى : ﴿ فأجره ﴾ أي فأعطه الأمان واجعله في جوارك أي في ذمتك حتى لايعتدي عليه أحد. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ أي حتى يُتْلَى عليه القرآن وتُشرح له معانيه وأحكامه ليزول جهله بالإسلام ويعلم أنه الحق. وفي قوله عز وجل ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ دليل جلي لأهل السنة والجماعة على أن القرآن هو كلام الله ، وأن مايتلوه التالي ومايسمعه السامع هو كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليس بمخلوق ولا صفة لمخلوق. قال ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية : وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية : هي ما يسمع منه أو من المبلغ عنه. فإذا سمعه السامع علمه وحفظه فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ ، فإذا قاله السامع فهو مقروء له متلو ،

فإن كتبه فهو مكتوب له مرسوم ، وهو حقيقة في هذه الوجوه كلها لا يصح نفيه ـ والمجاز يصح نفيه ـ فلا يجوز أن يقال : ليس في المصحف كلام الله ، ولا: ما قرأ القارئ كلام الله ، وقد قال تعالى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ وهو لا يسمع كلام الله من الله ، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله ، والآية تدل على فساد قول من قال : إن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله فإنه تعالى قال : ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله والأصل الحقيقة ، ومن قال : إن المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله أو حكاية كلام الله وليس فيها كلام الله فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة وكفى بذلك ضلالاً. اهـ.

ومعنى ﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ أي ثم رُدّه بعد سماعه كلام الله إذا أبى أن يسلم ولم يتعظ بما سمع من كلام الله وأوصله إلى وطنه وبلده الذي يأمن فيه على نفسه. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ذلك بأنهم قوم لايعلمون ﴾ أي هذا التشريع الذي شرعناه لك في إجارة من استجارك لسماع القرآن بسبب أنهم قوم لم يفقهوا حقيقة دين الإسلام ولم يعرفوه ، فمعارفهم قاصرة على ظاهر من الحياة وهم جاهلون بالله.

قال تعالى :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً

يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

بعد أن أشار عز وجل إلى أن الإسلام يأذن بفتح أبواب دار الإسلام لمن يرغب من المشركين في الوقوف على حقيقة هذا الدين وأنه يحتم على ولي أمر المسلمين حماية هذا الراغب في المجيء إلى دار الإسلام لتعلم هذا الدين ومعرفة حقائقه وتأمينه ما دام في دار الإسلام حتى يرجع إلى مأمنه في بلاد قومه ، أوضح هنا أن الأصل في المشركين أنهم لا يوثق لهم بعهد وأن الغدر من شيمتهم ولكنهم ليسوا سواء ، فمنهم قوم لم يعرفوا بنقض عهد وأن هؤلاء الذين لم تظهر منهم خيانة و لم يعرف منهم غدر و لم ينقضوا مابينكم أيها المسلمون وما بينهم من عهد فإنه يجب الوفاء لهم بعهودهم ولاسيما من كانت معاهدته معكم تمت عند المسجد الحرام في صلح الحديبية فإن معاهدة الحديبية التي تمت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مشركي قريش قد نصت على أن من دخل في عهد محمد وعقده من العرب دخل فيه ، ومن دخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه ، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمهم وكافرهم ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش وعقدهم ، ولما عَدَت بنو بكر على خزاعة ونقضوا عهدهم ، وأعانت قريش بني بكر على خزاعة بالرجال والسلاح صارت قريش بهذا قد نقضت العهد الذي بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشده :

يــارب إن نـاشــــدٌ محـــمـدا حـــلف أبـينا وأبيه الأتلدا
كـنـت لـنا أبــا وكـنـا ولــدا ثُمّتَ أسـلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هـــداك الله نصرا آيدا وادع عـباد الله يأتوا مـددا
فيهم رسـول الله قد تـجـردا في فيلق كالبحر يجري مُزْبِداً
أبيض مثل الشمس يسمو صُعُدا إن سيم خـسفا وجهه تربدا
إن قـريشاً أخـلفوك الموعدا ونقضـوا مـيثـاقك المؤكدا
هـم بيتونا بالوتـير هـجّدا وقَتّلـونـا ركّـعـاً وسُـجّدا
وزعـموا أن لستَ تدعوا أحـدا وهـم أذل وأقــل عـــددا

فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة وييسر الله له فتحها وأسلمت قريش ودخل الناس في دين الله أفواجاً وبقي بعض المشركين من بني بكر الذين كانوا في عقد قريش وعهدها على عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينقضوه وقد أمره الله عز وجل في الآية الرابعة من هـذه السورة بأن يحافظ على عهد من لم ينقض عهده من المشركين وأن يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم وقد تقدم الحديث على ذلك في تفسيرها ، وفي قوله تبارك وتعالى في هذا المقام: ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين *﴾ تأكيد لمعنى قوله عز وجل في الآية الرابعة من هـذه السورة : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين *﴾ ومعنى ﴿ كيف ﴾ في قوله تعالى : ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ﴾ للتعجب المقصود منه النفي والاستبعاد أي لايتأتى ولا ينبغي أن يوثق فيمن عرف بالخيانة والغدر وأنّى يكون له عهد ، وهذا بيان لأسباب البراءة من

المشركين وإيضاح للحكمة الداعية لها.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ أي لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام من بني بكر و لم ينقضوا العهد واستمروا على الوفاء به و لم ينقصوكم شيئا و لم يظاهروا عليكم أحدا فاستقيموا لهم ، أي أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم. وتذييل هذه الآية والآية الرابعة من تلك السورة بقوله : ﴿ إن ا لله يحب المتقين ﴾ لبيان أن الوفاء بالعهد من صفات المتقين وأن نقض العهد إنما يكون من المشركين واليهود والنصارى والمنافقين إلا النادر منهم والآية تشمل من يأتي من المؤمنين إلى يوم القيامة وأن أي عهد بين المسلمين وغيرهم يشمله هذا الحكم ويجب الوفاء به مادام المعاهد لم ينقض عهده و لم تبدر منه بادرة غدر أو خيانة وإن لم تكن المعاهدة عند المسجد الحرام. وقوله عز وجل : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلا ولاذمة ﴾ أي كيف يكون للمشركين الناكثين أيمانهم والمعروفين بالغدر والخيانة عهد ، والحال إنهم إن غلبوكم وتمكنوا منكم وظفروا بكم لايحفظوا لكم قرابة ولاعهداً ، فالرقيب الحافظ ، والإلّ القرابة والرحم ومنه قول حسان رضي ا لله عنه :

لعمرك إن إلَّكَ من قريش   كإلّ السّقب من رأل النعام

والذمة العهد والكلام مسوق لتأكيد استبعاد ثباتهم على عهد مع الاستدلال بما هو مشاهد من سلوكهم . وقوله ﴿ يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ﴾ استئناف لبيان حالهم عند عدم تمكنهم منكم وعند تسلطكم عليهم حيث إنهم في هذه الحالة يقولون لكم كلاماً حسناً يرضيكم وقلوبهم معارضة لألسنتهم ممتلئة خبثاً وحقداً وكفراً با لله ورسوله.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾ أي خارجون عن حدود الوفاء بالعهود ، وهو يشير إلى أن من التزم الوفاء بالعهد من المشركين هم عدد قليل ، قال الإمام البغوي في تفسيره (معالم التنزيل) فإن قيل هذا في المشركين وكلهم فاسقون فكيف قال : ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾ ؟ قيل : أراد بالفسق نقض العهد ههنا وكان في المشركين من وفى بعهده وأكثرهم نقضوا ، فلهذا قال : ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾ اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ماكانوا يعملون* ﴾ أي اعتاض هؤلاء المشركون عن اتباع آيات الله بالزهيد من مظاهر الحياة الدنيا الخسيسة واغتروا بذلك وأعرضوا عن أسباب سعادتهم ومنعوا أتباعهم من الدخول في دين الإسلام فقبح ما فعلوا وبئس ماكانوا يعملون. وقوله عز وجل : ﴿ لا يرقبون في مؤمن إلاً ولاذمة وأولئك هم المعتدون * ﴾ تأكيد لاستبعاد تخلي المشركين عن هذه الصفات الخسيسة من الغدر ونقض العهد.

قال تعالى :

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

هذا تأكيد لما تقدم في الآية الخامسة من هذه السورة المباركة من قوله عز وجل فيها : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ إلا أنه هناك جعل توبتهم من الشرك وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يوجب تخلية سبيلهم

المقتضية لفك الحصار عنهم والكف عن قتالهم ، أما هذه الآية فقد جعلت توبتهم من الشرك وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مؤذنة بأُخُوّتِهم لنا في الدين حتى لا يخطر ببال أحد أن مجرد تخلية سبيلهم وفك الحصار عنهم لا يقتضي أخوتهم لنا في الدين ، ففصل الله تبارك وتعالى هذا التفصيل ليزول من قلوب المسلمين أي ارتياب في مودتهم لما كان في النفوس من العداوة لهم قبل توبتهم وإقامتهم للصلاة وإيتائهم للزكاة ولذلك ذيل هذه الآية الكريمة بقوله عز وجل : ﴿ ونفصل الآيات لقوم يعلمون * ﴾. وخصهم بالعلم لأنهم أهل اللسان العربي الذين يفقهون الأساليب البلاغية ويدركون معاني المفردات والتراكيب العربية وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين.

قال تعالى :

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

هذه قاعدة عامة لجميع المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن جاء بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة تقرر لهم أنهم إذا عاهدوا أحداً من الكفار ونقض هذا المعاهد الكافر عهده ونكث يمينه الذي وثق به عهده وأضاف إلى نقض عهده ونكث يمينه الطعن في دين الإسلام أو سبّ القرآن أو سبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن على المؤمنين أن يقاتلوه وأن يعتبروه إماماً في الكفر مهما كان لأن هذا الصنف من الكفار قد جاوز حد كل عهد ولاشك أن ترك هذا النوع بلا قتال يؤدي إلى إلحاق الذل

بالمسلمين ويعمل على القضاء على الإسلام وإعلاء الباطل على الحق.

وليس المراد بأئمة الكفر في هذه الآية أبا جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف لأن سورة براءة ـ كما تقدم ـ آخر سورة نزلت من القرآن وقد قتل أبو جهل ومن معه من الصناديد الملاعين يوم بدر في السنة الثانية من الهجرة وفتحت مكة في السنة الثامنة و لم يبق فيها إلا مسلم أو مسالم بل المراد بأئمة الكفر هنا هم كل معاهد من الكفار سواء كانوا مشركين أو يهود أو نصارى أو مجوساً أو غيرهم إذا نكثوا أيمانهم ونقضوا عهودهم وطعنوا في دين الإسلام لأن كل من فعل ذلك صار رأساً من رءوس الكفر التي يجب قطعها وتطهير الأرض منها، وهذا المقام في هذه السورة المباركة هو انتقال من أحكام مقاتلة مشركي العرب إلى مقاتلة عموم الكفار من المشركين واليهود والنصارى وغيرهم من الطوائف في الجزيرة العربية وغيرها وبيان أحوال المنافقين بالمدينة وحولها الذين صاروا مطايا لليهود يشتركون معهم في التخطيط للتشويش على الإسلام وأهله ، ومن المعلوم أنه عند نزول سورة براءة في شوال من السنة التاسعة للهجرة النبوية لم يكن قد بقي من المعاهدات التي أمر الله بالمحافظة عليها سوى المعاهدة التي كانت بين بعض بني بكر وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عقدت يوم صلح الحديبية و لم ينقضها بعض بني بكر عندما نقضتها قريش إذ ساعدت بعض بني بكر على خزاعة كما مضى بيانه في تفسير هذه السورة ، وكذلك المعاهدة التي تمت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين يُحَنَّة بن رؤبة صاحب أيلة عندما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك ، وكذلك المعاهدة التي تمت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل جرباء وأذرح عندما أتوه فى تبوك ، وكذلك المعاهدة التى تمت بين رسول

الله صلى الله عليه وسلم وبين أكيدر دومة الذي أخذه خالد بن الوليد وأتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك وقد أسلم أكيدر دومة بعد ذلك وقد كان نصرانيا . وقد ردّ ابن عطية في تفسيره على من حمل أئمة الكفر في هذه الآية على أبي جهل وأقرانه فقال : وقوله تعالى : ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ أي رءوسهم وأعيانهم الذين يقودون الناس إليه. وقال قتادة : المراد بهذا أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وغيرهم. قال القاضي أبومحمد : وهذا إن لم يتأول أنه ذكرهم على جهة المثال ضعيف ، لأن الآية نزلت بعد بدر بكثير . وروى عن حذيفة أنه قال : لم يجيء هؤلاء بعد . قال القاضي أبومحمد : يريد : لم ينقرضوا فهم يحيون أبدا ويقاتلون. وأصوب مافي هذا أن يقال : إنه لا يُعْنَى بها معين وإنما وقع الأمر بقتال أئمة الناكثين العهود من الكفرة إلى يوم القيامة دون تعيين ، واقتضت حال كفار العرب ومحاربي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون الإشارة إليهم أولاً بقوله ﴿ أئمة الكفر ﴾ وهم حصلوا حينئذ تحت اللفظة إذ الذي يتولى قتال النبي صلى الله عليه وسلم والدفع في صدر شريعته هو إمام كل من يكفر بذلك الشرع إلى يوم القيامة . ثم يأتي في كل جيل من الكفار أئمة خاصة بكل جيل جيل اهـ . وقال ابن جرير الطبري : حدثنا ابن وكيع قال : ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة: ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ قال : ما قوتل أهل هذه الآية بعد. ثم قال ابن جرير : حدثني أبو السائب قال : ثنا الأعمش عن زيد بن وهب قال : قرأ حذيفة ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ قال : ماقوتل أهل هذه الآية بعد اهـ. وقوله عزوجل : ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ تأكيد على أن الإسلام لا يحرص على سفك دماء المشركين وإنما يحرص على هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور . قال أبو

السعود العمادي في تفسير هذه الآية : ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿ فقاتلوا ﴾ أي قاتلوهم إرادة أن ينتهوا ، أي ليكن غرضكم من القتال انتهاءهم عن ما هم عليه من الكفر وسائر العظائم التى يرتكبونها لا إيصال الأذية بهم كما هو ديدن المؤذين اهـ ، وقد قال ابن المنذر : أجمع عامة أهل العلم على أن من سب النبى صلى الله عليه وسلم عليه القتل اهـ .

قال تعالى :

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بأن يحافظوا على العهد الذي يكون بينهم وبين الكفار ما دام هؤلاء الكفار محافظين على هذا العهد وطلب من المؤمنين أن يقاتلوا من نكث يمينه الذي وثق بها عهده وطعن في دين الإسلام واعتبره الإسلام رأسا من رءوس الكفر التي يتحتم على المسلمين القضاء عليها ، شرع هنا في تحريض المسلمين وتحضيضهم وترغيبهم في مقاتلة الكفار ذاكراً أسباباً ثلاثة يقتضي كل سبب منها وجوب مقاتلتهم فكيف إذا اجتمعت هذه

الثلاثة فيهم وهي نقضهم للمواثيق وكونهم همّوا بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم وأنهم هم البادئون في إيذاء المسلمين والطعن في دينهم ، فقوله عز وجل : ﴿ ألا ﴾ هي للتحضيض والتحريض والحث وتتضمن الإنكار لمن يتوانى فلا يسارع إلى الاستجابة إذا دعاه ولي أمر المسلمين لقتال أعداء الإسلام. وقوله عز وجل : ﴿ قوماً نكثوا أيمانهم ﴾ هو عام يشمل كل قوم نكثوا المواثيق مع المسلمين. والمراد بقوله عز وجل : ﴿ وهمّوا بإخراج الرسول ﴾ أي وعزموا على إبعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة النبوية وهم اليهود ومن صاروا مطايا لهم من المنافقين ، فاليهود قد غدروا ونقضوا الميثاق الذي عاهدوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلوا كل جهد يستطيعونه لإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة واتخذوا المنافقين مطايا لهم لتنفيذ هذا الغرض الخبيث ، وقد سجل الله تبارك وتعالى على المنافقين هذه المحاولة الخبيثة حيث يقول في كتابه الكريم في سورة (المنافقون) : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا و لله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل و لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون *﴾ ولذلك قال عز وجل في هذه السورة : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير *﴾ أما حمل قوله عز وجل : ﴿ وهموا بإخراج الرسول ﴾ على قريش وأهل مكة فبعيد لأنهم قد أخرجوه بالفعل ثم فتحت مكة وأسلم أهلها لله رب العالمين فعلام يقاتلون وهم مسلمون ؟ وقوله عز وجل : ﴿ وهم بدءوكم أول مرة ﴾ أي وهم الذين بدءوا بنقض العهد ونكث المواثيق قبل أن تنقضوا عهدهم وتشرعوا في حربهم والبادئ أظلم ، ولاشك أن

هذا يقرر أن المسلمين لايبدءون عدواً مسالما بالقتال ولاسيما من كان بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق. والاستفهام في قوله عز وجل : ﴿ أتخشونهم فا لله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ معناه الإنكار على من يتخلف عن قتالهم وفيه زيادة تحريض المؤمنين على القتال بتقريع من يخشى الكفار على نفسه في الحرب ، أي أتخافون من قتالهم ؟ فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مصدقين بوعدي بنصر المؤمنين ووعيدي بخذلان الكافرين ، لأنكم مادمتم تقاتلون في سبيل ا لله فلا بد أن تنالوا إحدى الحسنيين وهما النصر أو الشهادة في سبيل ا لله.

قال ابن كثير رحمه ا لله في تفسير هذه الآية : وقوله : ﴿ أتخشونهم فا لله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ ، يقول تعالى : لاتخشوهم واخشوني فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي ، فبيدي الأمر فما شئت كان وما لم أشأ لم يكن اهـ . وقوله عز وجل : ﴿ قاتلوهم يعذبهم ا لله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ تجريد للأمر بقتالهم بعد تحريضهم وتحضيضهم عليه وتحذيرهم من التواني في ذلك مشيراً هنا إلى بيان حكمته فيما شرع لهم من الجهاد في سبيل ا لله مع قدرته عز وجل على إهلاك الكافرين والانتصار منهم دون مقاتلة وأنه فرض على المسلمين مقاتلة الكافرين ليبلو بعضهم ببعض كما قال عز وجل: ﴿ ولو يشاء ا لله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل ا لله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم *﴾ وقد وعد ا لله تبارك وتعالى المؤمنين في جواب أمره لهم بقتال الكافرين بخمس بشائر كل بشارة منها تدعو إلى قتالهم ، الأولى : أن ا لله يعذب الكافرين بأيدي المؤمنين. والثانية : أن

ا لله يخزي الكافرين ويذلهم. والثالثة : أن ا لله ينصر المؤمنين. والرابعة : أن ا لله يشفي صدور المؤمنين. والخامسة : أنه يذهب غيظ قلوب المؤمنين. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ يعذبهم ا لله بأيديكم ﴾ أي ينكل بهم ويعاقبهم حيث يمكنكم من قتلهم أو أسرهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ويخزهم ﴾ أي وينزل بهم الذل والهوان حيث شاهدوا أنفسهم مقهورين مدحورين مهينين ذليلين بأيدي المسلمين. ومعنى : ﴿ وينصركم عليهم ﴾ أي ويسلطكم عليهم ويجعل لكم الظفر والغلبة ليكونوا مقهورين تحت أيديكم. ومعنى : ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ أي ويبرئ ما قد وقع في قلوب بعض المؤمنين من الهموم والأحزان التي نالتهم من الكفار حيث كانوا يتطاولون عليهم ويلحقون بهم الأذى ، كما أن كل ما يهد الكفر وأهله هو راحة لقلوب جميع المؤمنين وشفاء لصدورهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ أي ويبعد ا لله عن قلوب المؤمنين ما كانت تعانيه مما يصيبها من المكاره والمكايد التي كانت تشتعل ناراً في قلوبهم. وقوله عز وجل : ﴿ ويتوب ا لله على من يشاء ﴾ مستأنف لبيان أن باب التوبة مفتوح ، كما قال عز وجل : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ فمن تاب إلى ا لله تاب ا لله عليه والإسلام يَجُبّ ما كان قبله من السيئات والمعاصي ، ولذلك جعل ا لله من تاب من الكفار أخاً للمسلمين وأنه صار بتوبته معصوم الدم والمال حيث قال عز وجل : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ وا لله عليم حكيم ﴾ أي وا لله عليم بسرائر عباده حكيم في تصريف أحوالهم يهدي من يشاء فضلاً ويضل من يشاء عدلاً.

وقوله عز وجـل : ﴿ أم حسـبتم أن تـتركوا ولما يعلـم ا لله الذيـن جـاهدوا منكم و لم يتخذوا مـن دون ا لله ولا رسـوله ولا المؤمنـين وليجـة وا لله خبـير بما تعملون *﴾ هو بيان للحكمة الإلهية في تشريع الجهاد في سبيل ا لله وفرضه علـى عباد ا لله المؤمنين ، وهو تمحيص أهل الحق ومحـق أهـل البـاطل وفضـح المنـافقين الذين يظهرون الإسلام وقلوبهم كافرة با لله وبرسوله ممتلئة بالعداوة للمؤمنين قد اتخذوا من أعداء ا لله اليهود بطانة لهم ووليجة. وقد أكد ا لله تبارك وتعـالى هـذا المعنى في مقامات كثيرة من القرآن الكريـم فقـال عـز وجـل : ﴿ الم * أحسـب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنـا وهـم لايفتنـون * ولقـد فتنـا الذيـن مـن قبلهـم فليعلمن ا لله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين*﴾ وقال عز وجـل : ﴿ أم حسـبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسـتهم البأسـاء والضـراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذيـن آمنـوا معـه متـى نصـر ا لله ألا إن نصـر ا لله قريب *﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ أم حسبتم أن تدخلـوا الجنـة ولمـا يعلـم ا لله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين *﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ ما كـان ا لله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ الآية. وأم في قوله عز وجل : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ﴾ بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي وهمـزة الاستفهام الإنكاري ، فبعد أن رغّب المسلمين في قتال الكافرين وحضّهـم عليـه وحرّضهم تحريضاً شديداً بذكر الدواعـي الـتي تحتـم علـى المسـلمين مقـاتلتهم ، انتقل إلى بيان الحكمة الإلهية في هذا التشريع العظيم وأنكر على من يتوانـى عـن مجاهدة أعداء ا لله مبيناً لهم أنه لن يـتركهم دون تكليفهـم بمـا يظهـر المطيـع مـن العاصي و المؤمن من المنافق وأن سلعة ا لله الغالية وهى الجنـة لا تنـال دون بـذل ثمن لها من الابتلاء بقتال أعداء ا لله وبالشدائد الـتي تظهـر مـن أخلـص دينـه لله

ومن لم يخلص دينه لله. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾ أي بل أظننتم أن تُهمَلوا فلا تكلفوا بقتال أعداء الله مع أنه لابد من تكليفكم حتى يظهر في عالم الشهادة والوجود والظهور من جاهد في سبيل الله ومن نافق واتخذ من أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المؤمنين وليجة أي بطانة ودخيلة ، فالمراد من قوله : ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ الآية أي لم يعلمه ظاهراً موجوداً وهو الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء العالم بما كان وبما يكون وبما لم يكن لو كان كيف يكون ، والمراد بالذين يتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة هم المنافقون. وقوله عز وجل : ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ تذييل لتأكيد أن الله عز وجل محيط بجميع خلقه عالم بسرائرهم وظواهرهم لا يخفى عليه عمل الصالحين المجاهدين في سبيل الله المخلصين دينهم لله وعمل المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام ويخفون في نفوسهم الكفر بالله ورسوله والعداوة لأهل الإيمان ويتخذون من اليهود والمشركين بطانة لهم ويعملون على تخذيل المسلمين وإطفاء نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون والمنافقون.

قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

هذا بيان للناس بعدم أهلية المشركين من العرب والعجم للهيمنة على المساجد التي هي بيوت الله التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه والتي بوأ لإبراهيم خليل الرحمن مكان أول بيت وضع للناس وهو المسجد الحرام وأمره أن يقيمه ويعمره ويطهره من جميع النجاسات الحسية والمعنوية كما قال عز وجل : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود *﴾ وقال عز وجل : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود * ﴾ وقال عز وجل : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ وحرّم جميع أنواع الشرك ومظاهره في جميع المساجد ، فقال عز وجل : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً *﴾.

وفى هذا المقام من هذه السورة المباركة التي صدرت بالبراءة من المشركين تمهيد لتجريد الأمر بعدم قربان المشركين للمسجد الحرام في الآية الثامنة والعشرين من هذه السورة المباركة حيث يقول عز وجل : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم *﴾. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ أي ما يجوز أن يمكّن المشركون سواء كانوا عرباً أو عجماً وسواء كانوا معاصرين لنزول هذه السورة أو يجيئون بعد ذلك إلى آخر الزمان من الهيمنة على المساجد سواء كان ذلك ببنائها أو التحكم فيها والتسلط على عمّارها من المسلمين لأن المشركين وجميع أنواع الكفار مقرون على أنفسهم

بالكفر ، فلو سألت المشرك عن دينه لأجاب بأنه مشرك وأنه يعبد كذا وكـذا ، ولو سألت اليهودي عن دينه لأخبرك بأنه يهودي ولو سألت النصراني عن دينـه لأخبرك بأنه نصراني وكذلك جميع أهل الكفـر مـن جميـع الديانـات ، ومـاداموا كذلك فهم غير مؤهلين للسيطرة على المساجد الـتي هـي بيـوت ا لله عـز وجـل المرفوعة لعبادته وحده لا شريك له. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ أولئـك حبطـت أعمالهم وفي النار هم خالدون *﴾ أي هؤلاء المشركون لن يتقبل ا لله عـز وجـل منهم عملاً من أعمال الخير كما قال عز وجـل : ﴿ وقدِمنـا إلى مـا عملـوا مـن عمل فجعلناه هبـاء منثـوراً *﴾ لأن شـروط قبـول الأعمـال الصالحـة أن تكـون خالصة لوجه ا لله وحده ، وأن تكـون علـى منهـج رسـول ا لله صلـى ا لله عليـه وسلم .

وقوله عز وجل : ﴿ إنما يعمر مساجد ا لله من آمن با لله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا ا لله فعسى أولئك أن يكونوا مـن المهتديـن *﴾ بيان للمؤهلين لعمارة المساجد وهم المؤمنون با لله واليوم الآخر المقيمون للصـلاة المؤدّون للزكاة الذين لا يخافون خوف السر إلا من ا لله وحده فـلا يخـافون مـن الأصنام ولامن الأوثان ولامن سائر الأفراد لإيمانهم ويقينهم بـأن مقـاليد الأمـور لله وحده فإن هؤلاء المؤمنين هم الجديرون بعمارة المساجد والهيمنة عليها سـواء كانت عمارة حسية أو كانت عمارة معنوية وهؤلاء هم الذين يرجون رحمة ا لله وهم المهتدون السائرون على صـراط ا لله المستقيم فمعنـى ﴿ فعسـى أولئـك أن يكونوا من المهتديـن ﴾ قـال ابـن جريـر : يقـول : فخليـق بـأولئك الذيـن هـذه صفتهم أن يكونوا عند ا لله ممن قد هداه ا لله للحق وإصابة الصواب. وقـال ابـن جرير : حدثني المثنى قال : ثنا عبدا لله بن صالح قال : ثنا معاوية عـن علي عـن

ابن عباس : قوله : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ يقول من وحّد الله وآمن باليوم الآخر يقول : أقرّ بما أنزل الله . ﴿ وأقام الصلاة ﴾ يعني الصلوات الخمس ، ﴿ ولم يخش إلا الله ﴾ يقول : ثم لم يعبد إلا الله ، قال : ﴿ فعسى أولئك ﴾ يقول : إن أولئك هم المفلحون ، كقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ يقول : إن ربك سيبعثك مقاما محمودا ، وهي الشفاعة وكل (عسى) في القرآن فهي واجبة اهـ. ومعنى قول ابن عباس : فهي واجبة أي حق ثابت والتعبير بعسى ليكون المؤمن بين الخوف والرجاء في أعماله الصالحة التي يتقرب بها إلى الله عز وجل.

قال تعالى :

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل أن أهل الإيمان هم أهل عمارة المساجد ، ذكر هنا أن المؤمنين بالله واليوم الآخر المهاجرين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم هم أصحاب الدرجات العلى الفائزون في الدار الآخرة بالفردوس الأعلى في جنات النعيم ، وقد سبقوا بالفضل المسلمين الذين يسقون الحاج ويعمرون المسجد الحرام إذا لم يكونوا من هؤلاء المؤمنين المهاجرين الذين

جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. وقد روى مسلم في صحيحه قال : حدثني حسن بن علي الحُلْواني حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلاّم عن زيد ابن سلاّم أنه سمع أباسلاّم قال : حدثني النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج وقال آخر : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم ، فزجرهم عُمر وقال : لاترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله عز وجل : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية إلى آخرها اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج ﴾ إلخ ، أي أسويتم بين سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام وبين الهجرة والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله ، فالاستفهام في ﴿ أجعلتم ﴾ لإنكار التسوية ، وقوله عز وجل : ﴿ لا يستوون ﴾ استئناف مؤكد لما علم من إبطال المساواة بين العملين ، فالهجرة والجهاد في سبيل الله أفضل من سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام. ومعنى : ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ هو امتنان من الله عز وجل على المؤمنين ببيان هذا الحكم المنزل بالوحي المتلو على رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي هداهم به إلى الحق فيما اختلفوا فيه ووفقهم لقبوله ، أما الكفار فإن الله عز وجل لا يهديهم هداية توفيق وتسديد بعد ما يبين لهم الحق فلا يقبلونه. وفي هذا تحذير للمسلمين من رد الحق الذي يجيئهم من الله عز وجل أو من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله عز وجل : ﴿ الذين آمنوا

وهاجروا ﴾ إلى آخر قوله : ﴿ إن الله عنده أجر عظيم ﴾ بيان وتأكيد لعدم استواء الفريقين وأن الذين هاجروا وجاهدوا هم أعظم درجة من هؤلاء الذين لم يعملوا عملهم ، ومعنى ﴿ أعظم درجة عند الله ﴾ يعني أعلى منزلة عند الله عز وجل وهم ورثة الفردوس الأعلى.

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

هذا تأكيد وتحريض على وجوب قطع الولاية والمحبة بين المسلم والكافر مهما كانت صلة النسب والقرابة بينهما ، وأنه يتحتم على المسلم البراءة من المشرك لأن قطع الولاية بينهما هي أبرز أمارات الدين ولاشك أن أوثق عرى الإيمان هو الحب في الله والبغض في الله وبهذا يحس المؤمن بطعم حلاوة الإيمان. وقطع الولاية بين المسلم والكافر لا يمنع من صلة القريب الكافر والإحسان إليه ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت لرسول صلى الله عليه وسلم قدِمَتْ عليّ أمي وهى راغبة أفأصل أمي؟ قال: نعم صِلِي أمك. ومعنى راغبة أي طامعة في أن أصلها وكانت أمها يومئذٍ مشركة. وقد بين الله تبارك وتعالى أن حسن معاملة

المسلم للكافر غير منهي عنها حيث يقول عز وجل : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين *﴾ وأثنى الله عز وجل على من يطعم الأسير حيث جعل ذلك من أفضل أعمال البررة حيث قال : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا *﴾. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بالإحسان إلى الأسرى الكافرين ، إنما المنهي عنه هو محبة الكافر وصداقته واتخاذه بطانة من دون المؤمنين. وقد ذكر الله تبارك وتعالى في هذا المقام وجوب قطع الولاية عن الآباء والإخوان إن استحبوا أي اختاروا الكفر على الإيمان ، وأنه يتحتم على المسلم أن يكون حبه لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم. وحبه للجهاد في سبيل الله مقدما على حب ماسوى ذلك من كل محبوب للإنسان بجبلته وطبعه كالآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة وهم أقرب الأقارب والأموال المكتسبة والتجارة التي تخافون بوارها بسبب مقاطعة الكفار لكم والقصور والمنازل التي تعجبكم الإقامة فيها، فإذا نازعتكم جبلتكم على عدم تقديم حب الله وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب الجهاد فى سبيل الله فانتظروا ما يحل بكم من عقوبة ونكال من الله عز وجل ، فإن من آثر الحياة الدنيا على الآخرة مخذول ، ومن قدم الآخرة على الدنيا مهديّ منصور والله لا يهدى من فسق عن أمره ولا يسدده ولا يوفقه.

وقد أكد الله تبارك وتعالى ذلك المعنى وتوعد من يقدم محبوبه على ما يحبه الله عز وجل فقال في سورة المجادلة : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوَادُّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات

تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون * ﴾.

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المرء لا يؤمن حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق أبي قلابة عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار). كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين). كما روى البخاري أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : (والله يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه. فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر).

قال تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

هذا ترغيب للمؤمنين في الاعتماد على ا لله وحده وقطع الولاية عن كل كافر والوثوق فيما عند ا لله عز وجل وترهيب من مودة أعداء ا لله أو الخوف من ضياع الدنيا عند الاعتصام بحبل ا لله ، فإن ا لله عز وجل هو رب الدنيا والآخرة ، وأن الكثرة إذا لم يكن معها عون من ا لله لا تفيد شيئاً. وقد ضرب ا لله عز وجل هنا أمثلة للمؤمنين بنصر ا لله لهم في مواطن كثيرة ومعارك متعددة أعزّهم ا لله فيها وأذلّ أعداءهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم وعدتهم كيوم بدر والأحزاب وقريظة والنضير وبني المصطلق في المريسيع وخيبر وفتح مكة ، لكنهم لما أعجبوا بكثرتهم يوم حنين لم تغن عنهم شيئاً وولوا مدبرين حتى فاءوا واستجابوا لدعاء رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فنصرهم ا لله وأيدهم بجنود لم يروها وألحق الهزيمة بالمشركين فاستولى المسلمون على ذراريهم ونسائهم وأموالهم. وحنين واد بين مكة والطائف على بعد ثمانية عشر ميلاً من مكة قرب ذي المجاز . وكانت وقعة حنين بعد فتح مكة ، وقد خرج إليها رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في شوال في عشرة آلاف من المهاجرين وألفين من الطلقاء من أهل مكة الذين أسلموا ، وقد بلغه أن هوازن جمعوا له جموعاً ليقاتلوه وأميرهم مالك بن عوف ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل وناس من بني عامر وأقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاؤا بقضّهم وقضيضهم ، فسار إليهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في جيش لم يخرج مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم جيش قبل ذلك في مثل عدد هذا الجيش حتى قال رجل من الأنصار يقال له سلمة بن سلام بن وقش: لن نغلب اليوم من قلة. وقد ساء رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم مقالة هذا الرجل وكرهها رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم. قال

البخاري في صحيحه : باب قول الله تعالى : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * ثم أنزل الله سكينته ﴾ إلى قوله : ﴿ غفور رحيم * ﴾ ثم ساق أحاديث ثم قال : حدثني محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمع البراء وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فقال : لكنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر ، كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم ، فأُستُقْبلنا بالسهام ، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء وإن أباسفيان بن الحارث آخذ بزمامها وهو يقول : أنا النبي لا كَذِب. وفي لفظ للبخاري :

أنا النبي لا كذب　　　أنا ابن عبدالمطلب

كما روى مسلم في صحيحه من حديث العباس بن عبدالمطلب قال : لما كان يوم حنين التقى المسلمون والمشركون فولّى المسلمون يومئذ قال : فلقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وما معه أحد إلا أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب آخذا بغرز النبي صلى الله عليه وسلم لايألو ما أسرع نحو المشركين ، قال فأتيت حتى أخذت بلجامه وهو على بغلة له شهباء ، فقال : يا عباس ناد أصحاب السمُرة ، وكنت رجلاً صَيِّتاً ، فأذّنت بصوتي الأعلى : أين أصحاب السمرة فالتفتوا كأنها الإبل إذا حنت إلى أولادها ، يقولون : يا لبيك يالبيك يا لبيك، وأقبل المشركون فالتقوا هم والمسلمون ، وتنادت الأنصار : يامعشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة في بني الحارث بن الخزرج فتنادوا يابني الحارث بن الخزرج ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول إلى قتالهم ، فقال : هذا حين حَمِيَ الوَطيسُ ، ثم أخذ بيده من الحصباء فرماهم بها

ثم قال : انْهَزَموا وربِّ الكعبة ، انْهَزَموا ورب الكعبة ، قال فوا لله مازال أمرهم مدبرا وحدّهُم كليلا حتى هزمهم ا لله ، قال فكأني أنظر إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يركض خلفهم على بغلته اهـ. وقد أسلمت هوازن بعد المعركة وجاء وفد منهم إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم مسلمين وكان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قد قسم الغنائم. فسألوا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن يرد إليهم سبيهم وأموالهم. وقد روى البخاري في صحيحه من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير أن مروان والمسور بن مخرمة أخبراه أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قام حين جاءه وفد هوازن مُسْلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم ، فقال لهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : معي من ترون ، وأحبُّ الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين ، إما السبي وإما المال ، وقد كنت استأنيتُ بكم ، وكان أَنظَرهُم رسولُ ا لله صلى ا لله عليه وسلم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف ، فلما تبين لهم أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم غيرُ رادٍّ إليهم إلا إحدى الطائفتين ، قالوا : فإنا نختار سبينا ، فقام رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في المسلمين فأثنى على ا لله بما هو أهله ثم قال : أما بعد : فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين ، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مايُفيء ا لله علينا فليفعل. فقال الناس : قد طيّبنا ذلك يا رسول ا لله. فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : إنا لاندرى من أذِن منكم في ذلك ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم. فرجع الناس ، فكلمهم عرفاؤهم ، ثم رجعوا إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طَيَّبوا وأذنوا. هذا الذي بلغني عن سبي هوازن اهـ. ومعنى قوله

عز وجل : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ﴾ أي ونصركم يوم حنين واذكروا إذ أعجبتكم كثرتكم فقال قائل منكم : لن نغلب اليوم من قلة فلم تنفعكم كثرتكم. ومعنى : ﴿ وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ أي وصارت الأرض مع اتساعها ضيقة في أعينكم ثم فررتم من عدوكم وهو أقل منكم عدداً لتعلموا أن النصر ليس بكثرة العدد وإنما هو من عند الله العزيز الحكيم. ومعنى ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ أي ثم بعد فرار من فر منكم أنزل الله الطمأنينة والأمنة والنصر على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى من معه من المؤمنين وأيدكم بجنود لم تبصروها وقوة لم تعاينوها. ومعنى : ﴿ وعذّب الذين كفروا ﴾ أي وعاقب الذين جحدوا ألوهية ربهم ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم فهزمهم حتى سبيتم منهم من سبيتم وقتلتم منهم من قتلتم وأسرتم منهم من أسرتم وغنمتم أموالهم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ وذلك جزاء الكافرين * ﴾ أي وهذا الذي فعلنا بهم ليس بظلم منا لهم بل هو عقوبة عاجلة لهم بسبب كفرهم وجحودهم. وقوله عز وجل : ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم * ﴾ أي ثم يتفضل الله بتوفيقه للتوبة والإنابة إليه من بعد عذابه الذي ألحقه بأعدائه على من يشاء من الأحياء منهم فيهديه إلى صراطه المستقيم وقد أسلم عامة الأحياء منهم فجبّ الإسلام ماكان منهم من الكفر والمعاصي وغفر الله لهم وأدخلهم في رحمته لأنه غفور رحيم.

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

بعد أن مهد في الآية السابعة عشرة من هذه السورة الكريمة وما بعدها بتقرير أن المشركين ليسوا أهلاً لعمارة المساجد وقربانها وأن أهل الإيمان هم أهل المساجد الذين يعمرونها عمارة حسية ومعنوية جرّد الأمر هنا بتحريم قربان المشركين للمسجد الحرام الذي هو قبلة جميع المساجد وأول بيت وضع في الأرض لعبادة الله وحده. كما طمأن المسلمين على أن منعهم المشركين من قربان المسجد الحرام لن يضيق على المسلمين في معايشهم ومتاجرهم التي كان المشركون يروجونها عند المسجد الحرام ووعدهم الله عز وجل بأنه سوف يغنيهم من فضله بمشيئته وعلمه وحكمته ، فقال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ الآية. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ أي يا معشر من آمن بالله وصدق المرسلين ما الكفار إلا أنجاس فلا تمكنوهم من دخول المسجد الحرام وامنعوهم من قربانه لأن الله عز وجل أمر بتطهيره من النجاسات الحسية والمعنوية حيث قال لإبراهيم عليه السلام : ﴿ وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود *﴾ فاقتضى ذلك وجوب تطهيره من سائر الأنجاس والأرجاس والمذاهب الهدامة والاعتقادات الباطلة ولا يتأتى ذلك إلا بإبعاد أهلها عن المسجد الحرام .

وقد نزلت سورة التوبة في شوال من السنة التاسعة للهجرة النبوية وحج أبو بكر رضي الله عنه فيها وأعلن أنه لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان كما تقدم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾ أي وإن خشيتم من منع المشركين من قربان المسجد الحرام فقراً وبوار تجارة وكساداً في أسواق مكة فأبعدوا هذه الخشية عنكم وثقوا في أن الله عز وجل سيغنيكم من فضله بمشيئته وعلمه وحكمته. وقد أنجز الله للمسلمين وعده وساق لهم من الخيرات والبركات وجعلهم أعز الأمم وأغناهم وجعل أرضهم مخازن لأنواع من السلع النادرة في العالم.

قال تعالى :

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

بعد أن فصّل الله تبارك وتعالى أحكام معاملة المشركين الوثنيين في جزيرة العرب وغيرها ، شرع هنا في توجيه المسلمين إلى قتال اليهود والنصارى مبيناً خبث عقائدهم وحرصهم على إطفاء نور الله بأفواههم إلى أن يندفع شرهم عن الإسلام والمسلمين فيؤدوا الجزية للمسلمين عن يد وهم صاغرون ، وأن على المسلمين أن يسعوا إلى نشر تعاليم الإسلام وإعلاء رايته حتى يكون الإسلام ظاهراً على سائر الملل والنحل لتسعد الإنسانية بأنواره وتهتدي به إلى صراط الله المستقيم فتحيا الحياة الآمنة المطمئنة في ظل تشريعاته العادلة وأحكامه الفاضلة التي تحفظ الدماء والأعراض والأموال والعقول ، وقد بعث الله بها شيخ المرسلين وخاتم النبيين محمداً صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين فأتم الله بها النعمة وأزالت عن الإنسانية أوضارها وأزاحت عنها إصرها وأغلالها ، وقد أخذ الله العهد على جميع الأنبياء والمرسلين أن يأمروا أممهم باتباعه حيث قال عز وجل : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين * ﴾ فتتابعت وصايا الرسل لأممها باتباع النبي الأمي حتى وقف آخر أنبياء بني إسرائيل خطيباً فيهم يقول : ﴿ يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ الآية.

وقد فضح الله اليهود والنصارى في هذا المقام وغيره من كتاب الله عز وجل وبيّن أن عقائدهم التي يعيشون عليها تشابه عقائد الوثنيين من مشركي العرب والعجم ، فاليهود قالوا : عزيرٌ ابن الله والنصارى قالوا : المسيح ابن الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله مع أن أسفار التوراة وكتب

العهد القديم التي يدعى اليهود أنها شريعتهم تحرم عبادة غير ا لله وتقرر أن ا لله إله واحد لا شريك له. كما يدعى النصارى أن التوراة التي بأيديهم وبأيدي اليهود وكذلك سائر كتب العهد القديم والعهد الجديد هي شريعتهم مع أنها تحرم عبادة غير ا لله وتقرر أن ا لله إله واحد لا شريك له ، وقد جاء في إنجيل مرقص في الإصحاح الثاني عشر منه في الفقرة السادسة والعشرين : (أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العُلَيقة كيف كلمه ا لله قائلا : أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب) . وفى الفقرة الثامنة والعشرين إلى الثانية والثلاثين منه : (فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله : أية وصية هي أول الكل ؟ فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا هي : اسمع يا إسرائيل : الرب إلَهنا رب واحد ، وتحب الرب إلَهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك هذه هي الوصية الأولى وثانية مثلها هي تحب قريبك كنفسك ، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين. فقال له الكاتب: جيداً يا معلم ، بالحق قلت ، لأنه ا لله واحد وليس آخر سواه). وفى إنجيل يوحنا التقرير بأن ا لله واحد وأن عيسى رسول ا لله حيث جاء في الفقرة الثانية من الإصحاح السابع عشر منه : (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) اهـ. و لم يكتف اليهود والنصارى بضلالهم في أنفسهم وانحرافهم عن كتبهم التي بأيديهم بل عملوا على إضلال الناس وصدهم عن سبيل ا لله وهم يبذلون كل جهد لمحاربة الإسلام فهم ضالون مضلون.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون با لله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم ا لله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى

يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون *﴾ أي حاربوا وجاهدوا الذين لا يقرون بألوهية رب السموات والأرض وأنه لا إله إلا هو ، ولا يقرون بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء ويستبيحون ما حرم الله ورسوله من أكل الخنزير والخمر والزنا وغير ذلك من المحرمات التي حرمها الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق أي ولا يدخلون في دين الإسلام الذي هو الدين الحق ويلتزمون به وينقادون له من اليهود والنصارى إلى أن يسلموا أو يؤدوا الجزية وهي خراج يضربه عليهم إمام المسلمين كل عام ولا يفرضه إمام المسلمين إلا على البالغ القادر منهم أما المرأة والصبي والعبد والشيخ الفاني والأعمى والمفلوج من اليهود والنصارى فإنه لا تفرض عليهم جزية. ويشترط عليهم أن يؤدوها منقادين للمسلمين ، وهذه الجزية تحميهم من قتالنا لهم وتفرض علينا حمايتهم ممن يقاتلهم وهي سبيل لتعرفهم على الإسلام وفيها منفعةٌ ظاهرة للمسلمين وتقوية لمواردهم المالية ، فإن قال قائل : إن اليهود والنصارى يؤمنون بالله واليوم الآخر ، فالجواب أن إيمانهم هذا غير صحيح لأنهم يشركون بالله ويشبهونه بخلقه ، وإيمانهم بالبعث غير صحيح لأنهم يقولون : هو بعث أرواح لا بعث أجسام.

وقوله عز وجل : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون *﴾ بيان يفضح اليهود والنصارى ويوبخهم على شركهم بالله وادعائهم أن لله ولداً وهو قول فاحش ومنكر كبير تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً كما قال عز وجل : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدّاً *﴾ أي ارتكبتم منكرا فظيعاً ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن

أن يتخذ ولداً *﴾ فهـذه الجريمـة المنكـرة اقترفهـا المشـركون مـن العـرب حيـث زعموا أن الملائكة بنات الله ، وارتكبها اليهود حيث زعموا أن العزيـر ابـن الله وارتكبها النصارى حيث زعموا أن المسـيح ابـن الله وارتكبهـا الهنـدوس حيـث زعموا أن كرشنة ابن الله كما ارتكبها البوذيون حيث زعموا أن بـوذا ابـن الله فتساوى في ذلك من تباهوا بـأنهم أهـل الكتـاب ـ وهـم اليهـود والنصـارى ـ والمشركون الوثنيون من العرب والعجم. ولذلك وبخ اليهـود والنصـارى حيـث يقول : ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ أي يشابهون قول من سـبقهم من أهل الجاهلية الكفرة المشـركين وليـس معهـم أي دليـل علـى هـذه الدعـوى الكاذبة الفاجرة ، ولذلك قال عز وجـل : ﴿ ذلـك قولهـم بـأفواههم ﴾ أي هـو كلام لا دليل عليه ولا أصل له ولا يتجاوز فـم من ينطق به ويدعـيه فلا بيان لـه ولا برهـان وليس تحته معنى صحيـح . وقولـه عـز وجـل : ﴿ قـاتلهم الله أنـىّ يؤفكون ﴾ أي لعنهم الله وفيه التعجب من شناعة قولهـم وبشـاعة مقـالهم وهـم يعرضون أنفسهم للهـلاك بسـفاهتهم. ومعنـى : ﴿ أنـىّ يؤفكـون ﴾ أي كيـف يضلون عن الحق وهو أبلج ويعدلون إلى الباطل وهو لجلج . وقولـه عـز وجـل : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشـركون *﴾ هـذا بيـان لفضيحـة أخرى من فضائح اليهود والنصارى المستوجبة لقتالهم أي جعل اليهود أحبـارهم وهم علماؤهم وقراؤهم وجعل النصارى رهبانهم وهم المتعبدون أهـل الصوامـع آلهة يعبدونهم من دون الله الواحد القهار كما جعل النصارى المسيح ابـن مريـم إلهاً يعبدونه من دون الله مع أنهم ما أمروا على ألسنة رسلهم إلا أن يعبدوا إلهـاً واحداً لاندّ له ولاشريك ولانظير وهو المستحق لجميـع أنـواع العبـادة ولا يجـوز

صرف شيء منها لغيره مهما كان ، تنزه وتقدس وتعالى عن جميع الأنداد.
وكان علماء اليهود ورهبان النصارى يحلون لأتباعهم ما حرم الله عليهم ويحرمون عليهم ما أحل الله لهم وكانوا ينقادون لهم في التحريم والتحليل وجعلوهم أربابا من دون الله الذي لا حلال إلا ما أحل ولا حرام إلا ما حرم في كتابه أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع قال : ثنا يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب عن حبيب عن أبى البخْتَري قال : قيل لحذيفة، أرأيت قول الله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ﴾ قال : أما إنهم لم يكونوا يصومون لهم ولا يصلون لهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا أحله الله لهم حرموه فتلك كانت ربوبيتهم اهـ. كما كان هؤلاء اليهود والنصارى إذا كان فيهم العبد الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه صوراً ثم عبدوا هؤلاء الصالحين واتخذوهم أربابا من دون الله. وقد سلك اليهود والنصارى في هذا المسلك المنحرف ما سلكه قوم نوح عندما عبدوا غير الله عز وجل واتخذوا وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا وهي أسماء رجال صالحين كما روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : (أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسَمّوها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَفَسّخَ العلم عُبدت اهـ. ولذلك حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين قبل موته بأيام من اتخاذ القبور مساجد ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : (إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح

فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة).وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهم قالا : (لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر ما صنعوا. وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها : مارية فذكرت له مارأت فيها من الصور فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله). كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه الذي مات فيه : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). قالت:(ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجداً) وفي لفظ مسلم : (فلولا ذاك أبرز قبره غير أنه خُشي أن يتخذ مسجداً). كما روى مسلم في صحيحه من حديث جندب رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول : (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذاً من أمتي لاتخذت أبا بكر خليلاً. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم

وصالحيهم مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك).

وقوله تعالى : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * ﴾ هو توبيخ للكفار من المشركين واليهود والنصارى على محاربتهم دين الله عز وجل الذي بعث به حبيبه ورسوله وخاتم أنبيائه محمداً صلى الله عليه وسلم وتيئيس لهم من الانتصار عليه وقطع لأطماعهم التي يبذلونها لإخماد نوره الذي جعله هدى للمتقين وسبيلاً لسلوك صراط الله المستقيم في العقائد والعبادات والمعاملات وجميع ما تحتاجه الإنسانية في معاشها ومعادها ، وهو كذلك ترغيب للمسلمين في محاربة هؤلاء الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله. وقد وصف الله عز وجل الإسلام بأنه نور وأن الكفر ظلمات حيث قال عز وجل : ﴿ أو من كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون *﴾ وقال عز وجل : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرّيّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم *﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ أي يرغب هؤلاء الكافرون الجاحدون العابدون غير الله من الوثنيين واليهود والنصارى الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله وخالفوا شرائع الله وأوامره ونواهيه ويحاولون بألسنتهم تعطيل الشريعة وإطفاء أنوارها بأقوالهم

التي لا تستند إلى برهان ولا تعتمد على دليل وإنما هي خبط عشواء. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون *﴾ أي وقد قضى الله عز وجل أن تكون كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ولابد أن ينتصر دين الله وتشع أنواره على العالمين ولا يضره من خالفه وحاول صدّ الناس عن الاهتداء به وكرهوا أن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال وافتروا على الله الكذب وهم يُدْعَوْنَ إلى الإسلام الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور . وقد أشار الله عز وجل في مقام شبيه بهذا المقام من كتاب الله عز وجل في سورة الصف وذكر نصائح موسى وعيسى لقومهما وتبشير عيسى لقومه بمحمد صلى الله عليه وسلم وحضّهم على اتباعه إذا جاءهم حيث يقول عز وجل : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين * وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين * يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون *﴾. وقد بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بأن الله عز وجل زوى له الأرض مشارقها ومغاربها وأن ملك أمته سيبلغ ما زوى له منها ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ مُلكها ما زوى لي منها).

وقد حقق الله عز وجل وعده للمسلمين وأنجز ما وعد به رسوله صلى الله عليه وسلم حيث بلغ ملك المسلمين إلى الصين شرقاً واستولى المسلمون في أوربا على أرض ما يسمى الآن بأسبانيا والبرتغال وجزء من أرض فرنسا وعلى مملكة الروم الشرقية ، واستولى العثمانيون على ألبانيا والبوسنة والهرسك وأماكن في شمال أوربا حتى دخل الإسلام هولندا. وقد أثر أن هارون الرشيد الخليفة العباسي كان جالساً أمام قصره يوماً فرأى سحابة فقال : (سيري أينما شئت وامطري أينما شئت فسيأتيني خراجك). ولازالت أنوار الإسلام تتلألأ في أنحاء المعمورة رغم كيد الكائدين وحسد الحاسدين وحقد الحاقدين وتشويش المشوشين و لله الحمد والمنة ولذلك قال الله عز وجل هنا : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾.

قال تعالى :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

هذا بيان لفضيحة الأحبار والرهبان الذين استغلوا مناصبهم أسوأ استغلال ولعبوا بعقول أتباعهم الجاهلين الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله ، فبيّن عز وجل هنا أن الكثير من هؤلاء الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل

ويصدون عن سبيل الله ويكنزون الذهب والفضة التي يستولون عليها من أتباعهم ولا ينفقونها في بيان الحق الذي جاء به المرسلون. وقد ذكر سلمان الفارسي رضي الله عنه صورة سيئة عن بعض هؤلاء فقد قال ابن إسحاق في السيرة النبوية : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن عبد الله ابن عباس قال : حدثني سلمان الفارسي من فيه ، قال : (كنت رجلاً فارسياً من أهل إصبهان من أهل قرية يقال لها : جَيْ ، وكان أبي دِهقان قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، لم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبس الجارية ، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة ، وكانت لأبي ضيعة عظيمة ، قال : فَشُغِل في بنيان له يوماً، فقال لي : إني قد شُغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب إليها فاطلعها ، وأمرني فيها ببعض ما يريد ، ثم قال لي : ولا تحتبس عني فإنك إن احتبست عني كنت أهم إليّ من ضيعتي وشغلتني عن كل شيء من أمري . قال : فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون وكنت لا أدري ما أَمْرُ الناس لحبس أبي إياي في بيته ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم ، أنظُر ما يصنعون. فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ، ورغبت في أمرهم ، وقلت : هذا والله خير من الدين الذي نحن فيه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبي فلم آتها ، ثم قلتُ لهم : أين أصْلُ هذا الدين ؟ قالوا : بالشام. فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي ، وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته قال : أي بُنَيّ ، أين كنت ؟ أو لم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟ قال : قلت له : يا أبت ، مررت بناس يصلون في كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى

غربت الشمس. قال : أي بُنَيّ ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه. قال : قلتُ له : كلا وا لله إنه لخير من ديننا. قال : فخافني ، فجعل في رجلي قيداً ، ثم حبسني في بيته. قال : وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركْبٌ من الشام فأخبروني بهم. قال : فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم ، فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم. قال : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت : مَنْ أفضل هذا الدين علماً ؟ قالوا : الأسقُف في الكنيسة. قال : فجئته فقلت له : إني قد رغبت في هذا الدين فأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك فأتعلم منك وأصلي معك. قال : ادخل. فدخلت معه قال : وكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا له شيئا منها اكتنزه لنفسه و لم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قِلالٍ من ذهب ووَرِقٍ. قال : فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات ، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه و لم يعط المساكين منها شيئاً ، قال : فقالوا لي : وما علمك بذلك ؟ قال : قلت لهم : أنا أدلكم على كنزه ، قالوا : فدلنا عليه. قال : فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءةٍ ذهباً ووَرِقاً ، قال : فلما رأوها قالوا : وا لله لا ندفنه أبداً. قال : فصلبوه ورجموه بالحجارة. الحديث.

وفي تصدير هذا المقام بقوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ لتحضيض المؤمنين على قتال اليهود والنصارى الذين يتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون ا لله مع أن هؤلاء الأحبار والرهبان من أسوأ خلق ا لله سلوكاً وحتى لو

كانوا صالحين ما جاز اتخاذهم أرباباً من دون الله وهـذا يبين أن هؤلاء اليهود والنصارى قد انحطوا إلى درجة هي أحط من درجة المشركين الوثنيين من العرب والعجم.

ومعنى : ﴿ يأكلون أموال الناس بالباطل ﴾ أي يستولون على أموال الناس بغير حق كجمعها من أتباعهم بدعوى توزيعها على الفقراء والمساكين كذباً وهم يكنزونها لأنفسهم وكذلك الحصول عليها بالتدجيل على أتباعهم من الرعاع حيث يكتبون لهم كتابات كاذبة في نظير أموال منهم ويدعون أنها من وصايا الأنبياء وهم كاذبون فيها ويأكلون السحت. والتعبير بقوله: ﴿ يأكلون أموال الناس ﴾ لأن الأكل هو المقصود الأعظم من الحصول على الأموال. وإن كانت محرمة عليهم أكلاً أو شرباً أو لبساً أو سكناً أو غير ذلك. وقوله عز وجل: ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ أي وهم مع أكلهم أموال الناس بالباطل وانغماسهم في السحت يصدون عن سبيل الله ويقفون في وجه الدعاة إلى الله ويمنعون أتباعهم من اتّباع الدين الحق والإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وقوله عز وجل : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * ﴾ وعيد شديد لهؤلاء الأحبار والرهبان الذين استغلوا مناصبهم وثقة أتباعهم فيهم فأفسدوا في الأرض بدل إصلاحها وجمعوا منهم الأموال بدعوى إنفاقها على المحتاجين فكنزوها ، كما أن فيها تحذيراً شديداً لعلماء المسلمين من سلوك هذا المسلك المشين. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (يكون كنز أحدكم يوم القيامة شجاعاً أقرع). كما روى البخاري في صحيحه في التفسير من طريق زيد بن وهب قال :

(مررت على أبي ذر بالربذة فقلت : ما أنزلك بهذه الأرض ؟ قال : كنا بالشام فقرأت ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم *﴾. قال معاوية : ما هذه فينا ، ما هذه إلا في أهل الكتاب. قال : قلت : إنها لفينا وفيهم). وقال البخاري في كتاب الزكاة من صحيحه من طريق زيد بن وهب قال : (مررت بالربذة فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه فقلت له : ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، قال معاوية : نزلت في أهل الكتاب. فقلت : نزلت فينا وفيهم فكان بيني وبينه في ذاك وكتب إلى عثمان رضي الله عنه يشكوني ، فكتب إليّ عثمان أنِ اقْدَم المدينة فقدمتها فكثر عليّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك ، فذكرت ذاك لعثمان فقال لي : إن شئت تنحيت فكنت قريباً فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ولو أمروا عليّ حبشياً لسمعت وأطعت) اهـ

وقوله تعالى : ﴿ يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون *﴾ وعيد شديد لمن يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله ولا يؤدي زكاتها. ومعنى ﴿ يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ أي يوقد على هذه الأموال في نار جهنم فتحرق بها وجوههم وجنوبهم وظهورهم أي يحيط بهم الحريق والكي ويكون للجباه والجنوب والظهور القسط الأكبر من هذا العذاب. وقوله عز وجل : ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ أي يقال لهم : هذا العذاب الذي تذوقونه وهذا الكي الذي يكويكم ويقع بكم هو ما ادخرتموه لأنفسكم بكنزكم للأموال وعدم بذلها

لمستحقيها وترككم الإنفاق في سبيل الله فذوقوا ما كنتم تكنزون وأحسوا طعم عملكم السيء وتدبيركم القبيح ، وقد قال البخاري في صحيحه : باب قوله : ﴿ يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون *﴾ وقال أحمد بن شبيب بن سعيد حدثنا أبي عن يونس عن ابن شهاب عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبدالله بن عمر فقال : (هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما أُنزلت جعلها الله طهراً للأموال). وقد روى مسلم في صحيحه من طريق الأحنف بن قيس قال : (كنت في نفر من قريش فمر أبو ذر وهو يقول : بشر الكانزين بكي في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكي من قِبَل أقفائهم يخرج من جباههم. قال : ثم تنحى فقعد ، قال : قلت : من هذا ؟ قالوا : أبو ذر ، قال : فقمت إليه ، فقلت: ماشيء سمعتك تقول قُبَيْلُ ؟ قال : ما قلت إلا شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم). كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار). وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مامن صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار). الحديث.

قال تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

بعد أن حرض الله المؤمنين على قتال اليهود والنصارى وذكر الأسباب التي تدعو إلى قتالهم ومحاربتهم وبيّن فضائح الأحبار والرهبان ، ذكر هنا صوراً من انحراف الناس عن صراط الله المستقيم وابتعادهم عن وصايا الأنبياء والمرسلين وأن من هذه الانحرافات تلاعبهم بالأشهر الحرم التي حرم الله عز وجل القتال فيها لحفظ دماء الناس في هذ الأشهر حتى يكون ذلك تدريباً لهم على صيانتها في السنة كلها وقد جعل الله القتال في الأشهر الحرم من الكبائر حيث يقول عز وجل : ﴿ يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾ وهذه الأشهر هي القعدة والحجة والمحرم ورجب لكن هؤلاء الجاهلين المشركين تلاعبوا بهذه الأشهر فإذا اشتهوا القتال والتعدي على أموال الناس ودمائهم لجئوا إلى النسيء وهو تأخير تحريم الشهر الحرام إلى شهر آخر من غير الأشهر الحرم واستباحوا القتال في الشهر الحرام بدعوى أنهم أجلوا تحريمه إلى شهر آخر فيجعلون المحرم صفراً وهكذا فأفسدوا نظام الشهور حتى صار الحج يقع في غير

ذي الحجة بسبب هذا النسيء فوبخهم ا لله عز وجل على هذه الجريمة وهذه الجرأة على ا لله عز وجل وحض المسلمين على قتالهم. وقد أخبر ا لله عز وجل أنه وضع للناس نظام الشهور يوم خلق السموات والأرض وأوضح لهم أن الشهور التي اختارها لعبادات الناس بعلمه وحكمته هي الشهور الهلالية المرتبطة بسير القمر في منازله وهي المحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال والقعدة والحجة وربط بهذه الأشهر الكثير من أمور الدين كما قال عز وجل : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾. ومن ثمرات ربط الأمور الدينية بالشهور القمرية أن يدور الصيام والحج في السنة الشمسية كلها فتأتي هذه العبادات في الأيام الطويلة والقصيرة والصيف والشتاء والربيع والخريف لما في ذلك من الحكمة البالغة ، كما أن معرفة الأشهر والمواقيت بالأهلة يشترك فيها العوام والخواص من الناس بخلاف الأشهر الشمسية فإنها لا يعرفها إلا الحاسبون وهي مرتبطة بمواقيت الزراعة والحرارة والبرودة وقد اعتمد الناس الذين لا ينتهجون في مناهج حياتهم شرائع الأنبياء والمرسلين السنة الشمسية لحساباتهم الدينية والدنيوية فجعلوا السنة اثني عشر شهراً لكنهم حددوا أيامها بثلاثمائة وخمسة وستين يوما وبعض يوم والسنة مرتبطة بدورة الشمس في الفلك دورة تامة.

وقد كان من توفيق ا لله لرسوله محمد صلى ا لله عليه وسلم أنه في السنة العاشرة من الهجرة كان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق ا لله السموات والأرض فصار العاشر من ذي الحجة في تلك السنة هو العاشر من ذي الحجة

على الحال التي كانت يوم خلق الله السموات والأرض. وقد أعلن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال : خَطَبَنَا النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر فقال : (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حُرُمٌ ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. وقال : أي شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى. قال: أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال : أليس البلدة ؟ قلنا : بلى. قال :فأي يوم هذا؟ قلنا : الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى. قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم. قال : اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهدُ الغائبَ فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع) اهـ

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ﴾ أي إن عدد شهور السنة عند الله الذي خلق الشمس والقمر والحركات والأزمنة وربط بها ما يكون من الأحكام الشرعية هي اثنا عشر شهراً هلالية وكتبها في اللوح المحفوظ يوم خلق السموات والأرض وفرض على عباده الالتزام بها فلا يجوز لأحد من خلق الله كائناً من كان تغييرها. وقوله عز وجل ﴿ منها أربعة حرم ﴾ أي من الشهور الاثنى عشر

أربعة أشهر حرّم ا لله عز وجل على عباده الاقتتال فيها وأوجب البعد عن سفك دماء بني آدم إبانها ، وتأمين الناس حتى يؤدوا فريضة الحج آمنين مطمئنين في ذهابهم إلى مكة وعودتهم إلى بلادهم مهما تناءت وتباعدت ديارهم ،وحرّم رجب في وسط الحول ليكون فرصة أخرى لمن رغب في زيارة المسجد الحرام وأداء العمرة ، كما أن ذلك يدرب الناس على الابتعاد عن سفك الدماء بقية العام. وقوله عز وجل : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي ذلك هو التشريع الثابت المهيمن على جميع أعمال الناس ولا يحل لهم أن ينحرفوا عنه بحال من الأحوال ، وقد بقيت حرمة الأشهر الحرم كما بقيت حرمة البلد الحرام وستبقى إلى يوم القيامة ، ولذلك روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضى ا لله عنهما أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال يوم فتح مكة : (إن هذا البلد حرمه ا لله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة ا لله إلى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي و لم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة ا لله إلى يوم القيامة) الحديث. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي شريح العدوي رضى ا لله عنه أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال : (إن مكة حرمها ا لله و لم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن با لله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص لقتال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فقولوا له : إن ا لله أذن لرسوله صلى ا لله عليه وسلم و لم يأذن لكم وإنما أذن لي ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبغ الشاهد الغائب) الحديث.

وقوله عز وجل : ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ أي فلا تعتدوا على حرمة هذه الأشهر الحرم فتسببوا لأنفسكم عذاب جهنم وتُحَمِّلوها من العذاب ما لا

تطيق. وقوله عز وجل : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ استئناف مسوق للتحريض على قتال المشركين في غير الأشهر الحرم إلا إذا بدأ المشركون بقتال المسلمين في الأشهر الحرم فإن المسلمين يردون عليهم ويقاتلونهم في الأشهر الحرم كما قال عز وجل : ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ وكما قال تبارك وتعالى : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ وقال هنا : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ و (كافة) أي جميعاً ، أي كما يجتمعون لحربكم وقتالكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضاً لقتالهم إذا قاتلتموهم وإذا بدأت الحرب في الشهر الحلال ثم دخل الشهر الحرام و لم يتوقف المشركون عن الحرب فإن المسلمين يستمرون في قتالهم في الشهر الحرام ، فقد ابتدأت هوازن وحلفاؤها من ثقيف جمع جيوشها لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال ووقعت معركة حنين ثم بعد هزيمتهم تحصنوا بالطائف فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمر الحصار قريباً من أربعين يوما وقد دخل الشهر الحرام فاستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في حصارهم أياماً من شهر ذي القعدة الحرام ثم قفل عنهم. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : واستمر الحصار بالمنجنيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً وكان ابتداؤه في شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام مالا يغتفر في الابتداء ، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم اهـ.

وقوله عز وجل : ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ﴾ الآية بيان وتأكيد لما كان عليه المشركون من التلاعب بالأشهر الحرم حيث كانوا يؤجلون تحريم الشهر الحرام إلى شهر آخر حلال فيؤخرون حرمة المحرم إلى صفر دون خجل أو وجل بل كانوا يتباهون بذلك حتى قال شاعرهم عمير ابن قيس :

لقد علمت مَعَدُّ بأن قومي كرام الناس إن لهم كراما

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

وأصل النسيء التأخير ، وقد وصف الله عز وجل عملهم هذا بأنه زيادة في الكفر لأنهم مقرون بأن شهر محرم هو الشهر الحرام بما توارثوه من ملة إبراهيم عليه السلام فإذا اجترءوا على تحليله وتحريم غيره من أشهر الحل كان ذلك منهم زيادة في الهجوم على شريعة الله وتعمقاً في الانغماس في الضلال والفجور. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ليواطئو عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ﴾ أي ليوافقوا ما حرم الله في عدد الشهور لا في ذات هذه الشهور وهذه سخافة وانحطاط وتلاعب بشرائع الله ، وكان أول من ابتدع النسيء عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف كما ذكر الإمام البغوى في تفسيره. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب وهو يجر قصبه في النار) اهـ. ولاشك أن عمرو بن لحي الخزاعي هو الذي جلب إلى جزيرة العرب أصناماً بأسماء أصنام قوم نوح ودعا إلى عبادتها. وقد ذكر ابن إسحاق في السيرة النبوية أن أول من نسأ الشهور على العرب هو القلمس الكناني ثم بنوه من بعده والله أعلم.

وقوله عز وجل : ﴿ زين لهم سوء أعمالهم ﴾ أي زين لهم الشيطان أعمالهم القبيحة السيئة وزخرفها لهم فحسبوا أنهم يحسنون صنعاً. ومعنى : ﴿ والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ أي والله لا يسدد القوم الجاحدين لآياته وبراهينه ولا يوفقهم إلى طريق الرشاد ، فهداية الرشد والتوفيق والسداد إنما تكون للمؤمنين بالله ورسله ، أما الكافرون فليس لهم إلا هداية البيان إعذاراً وإنذاراً.

قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين بقتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة، عاتب هنا من تباطأ عن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى غزوة تبوك وكانت في شدة الحر والقيظ وكان الناس في عسرة وقد

طابت الثمار والظلال و لم يكن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يريد غـزوة إلا وَرّى بغيرها إلا غزوة تبوك كما جاء في صحيح البخاري من حديث كعب بـن مالك قال : (و لم يكن رسول ا لله صلى ا لله عليـه وسـلم يريـد غـزوة إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في حـر شديد ، واسـتقبل سـفراً بعيـداً ومفـازاً وعـدواً كثـيراً فجلّـى للمسـلمين أمرهـم ليتأهبوا أُهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريـد ، والمسلمون مـع رسـول ا لله صلى ا لله عليه وسلم كثير ولا يجمعهـم كتـاب حـافظ ـ يريـد الديـوان ـ قـال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى لـه مـا لم يـنزل فيـه وحـي ا لله. وغزا رسول ا لله صلى ا لله عليـه وسـلم تلـك الغزوة حـين طـابت الثمـار والظلال) الحديث ، فتثاقل بعض الناس وتبـاطئوا في الخـروج فـأنزل عـز وجـل هذه الآيات لعتابهم وتنبيههم إلى تعرضهم لعذاب ا لله إذا لم يبادروا للخروج مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وقـد جهـز عثمـان بـن عفـان رضـى ا لله عنـه جيش العسرة من ماله كما ذكره البخاري في صحيحه.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سـبيل ا لله اثّـاقلتم إلى الأرض ﴾ أي ما الذي حدا بكم وحصل لكم حين دعاكم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وقال لكم : انفـروا أي اخرجـوا للغزو في سـبيل ا لله تتثـاقلون مائلين إلى الراحـة والإخـلاد إلى أرضكم ومساكنكم . والاســتفهام في قـولـه : ﴿ مالكم ﴾ للعتاب والإنكار على من تثاقل وتباطأ عـن رسـول ا لله صلـى ا لله عليه وسلم. وقوله عز وجل ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيـا مـن الآخـرة ﴾ الاسـتفهام فيه لتشديد العتاب على من تباطـأ في الخـروج ، أي أهـذا رضـىً منكـم بالدنيـا ونعيمها الفاني بدل الآخرة ونعيمها البـاقي. ثـم زهدهـم في هـذا النعيـم الزائـل

ورغبهم في النعيم الباقي فقال عز وجل : ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ ، وهذه ولا شك لشحذ الهمم في طلب نعيم الآخرة الذي لا يزول والحرص على الجهاد في سبيل الله وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً للمقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث المستورد بن شداد الفهري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع). وقوله عز وجل : ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير *﴾ تهديد لمن لم يستجب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى غزوة تبوك ووعيد لهم بعذاب من الله عز وجل وإهلاكٍ لهم وإيجاد قوم صالحين مستجيبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بدلهم ، وإعلان لهم بأن معصيتهم لله ورسوله لا تضر إلا أنفسهم ولن يضروا الله شيئاً لأنه غني عن طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين وهو تبارك وتعالى غالب قاهر لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، وكما قال عز وجل : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾. وقوله عز وجل : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ إعلام من الله عز وجل بأنه متكفل بنصر رسوله وتأييد دينه وإعلاء كلمته دون حاجة إليكم ، إنما يكلف عباده بالجهاد لمصلحتهم ورفع درجاتهم ، وقد ساق الله عز وجل هنا آية ظاهرة وبرهاناً ساطعاً على ذلك حيث نصر رسوله صلى الله عليه وسلم على مشركي قريش عندما تآمروا عليه بمكة ومكروا به لحبسه أو قتله أو نفيه وهو بدون أنصار من الخلق فأبطل الله كيدهم وأضاع مكرهم ونصر نبيه صلى الله عليه وسلم عليهم ، حيث قال عز وجل هنا : ﴿ إذ أخرجه الذين

كفروا ثاني اثنين ﴾ أي حين مكر به الكفار فخرج من مكة منفرداً عن جميع الناس إلا من رجل واحد هو أبو بكر رضي الله عنه. يقال : ثاني اثنين. أي أحد اثنين فقط. فخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته بمكة وقد جعل أهل مكة على بابه مجموعة من الشباب وبأيديهم سيوفهم ليضربوه صلى الله عليه وسلم ضربة رجل واحد إذا خرج من بيته فيحميه الله منهم ويخرج من بينهم فلا يبصرونه ويتوجه إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه ويصطحبه معه إلى غار ثور ليكمن فيه حتى يهدأ عنه الطلب. فهذه آية من آيات نصر الله له صلى الله عليه وسلم ، ثم عندما نزل هو والصديق أبو بكر رضي الله عنه إلى الغار بعث الله العنكبوت فنسج على باب الغار فلما تتبع المشركون أثر أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهوا في تتبع الأثر إلى الغار وجدوا نسج العنكبوت فانصرفوا ، ولو أن أحدهم نظر إلى قدمه لأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه قال : حدثني أبو بكر رضي الله عنه قال : (كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار ، فرأيت آثار المشركين. قلت : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا. قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟) اهـ وقد سقت في تفسير قوله عز وجل : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ الآية ما رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة نسج العنكبوت على فم الغار بإسناد حسن وصفه ابن كثير في السيرة النبوية بأنه أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار وذلك من حماية الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما حسّن الحافظ ابن حجر إسناد هذا الحديث.

وفي قوله عز وجل : ﴿ إذ هما في الغار إذ يقــول لصاحبـه لا تحـزن إن ا لله معنا ﴾ تقرير لآية أخرى باهرة وحجة كبرى ظاهرة تشـهد بـأن ا لله عـز وجـل ناصر رسوله صلى ا لله عليه وسلم على أعدائه ولو تباطأ مـن تباطـأ وتثـاقل عـن الخروج إلى تبوك من يتثاقل ، وتصوير للحالة النفسية لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ولرفيقه وصاحبه الصديق رضي ا لله عنه وهما في الغار وقد وقف أعـداؤه الكفار على باب الغار ، ولو نظر أحدهم أسـفل قدمـه لـرأى رسـول ا لله صلـى ا لله عليه وسلم وحبيبه وخليله الصديق ، حيث كان رسول ا لله صلى ا لله عليـه وسلم مطمئن النفس واثقاً بحفظ ا لله له ولصاحبه غـير خـائف مـن المشـركين ، وكان أبو بكر حزيناً لا جبناً منه ولا خوفاً على نفسه ، حيث كان حزنه خوفـاً أن ينال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أذى من المشركين وحرصاً على سلامة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسـلم ، فطمأنـه رسـول ا لله صلـى ا لله عليـه وسـلم وقال له : (لا تحزن إن ا لله معنا) ، فطابت نفس أبي بكـر وزال حزنـه وأنـزل ا لله عليه السكينة والطمأنينة وصرف المشركين عن الغـار وأيـده ا لله عـز وجـل بجنود وقوى لم يرها أحد ، فخرج رسول ا لله صلى ا لله عليـه وسـلم مـن الغـار بعد ثلاثة أيام من الإقامة فيه واتجها إلى المدينـة المنورة وصانهمـا ا لله عـز وجـل حتى وصلاها آمنين مطمئنين. والغار نقب عظيم في جبل ثور . وهذه الآية مـن الشواهد الكثيرة على علو منزلة أبي بكر رضي ا لله عنه و لم ينـص علـى صحبـة أحد لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في القرآن الكريم غير أبي بكر رضي ا لله عنه ، كما أشار ا لله عز وجل إلى خلافة أبي بكـر رضـي ا لله عنـه لرسـول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في القرآن الكريم في قوله عز وجل في سورة الفتح: ﴿ قـل للمخلفين من الأعراب سَتُدْعَوْن إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسـلمون

فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً *﴾ حيث كانت هذه الآية توبيخاً للذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأعراب في غزوة تبوك ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك صاروا يعتذرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد لا خيار لهم إلا بالإسلام أو السيف ، وهذا لم يكن إلا في المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الداعي لقتالهم أبا بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو لم تكن طاعته واجبة لما وعد مطيعيه بالأجر العظيم وتوعد من لم يجبه بالعذاب الأليم. ومن المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحارب مشركين ولا مرتدين بعد نزول هذه الآية لأن ماعدا المشركين والمرتدين يخيرون بين الإسلام أو السيف أو الجزية. فهذه الشواهد القطعية تقصم ظهور أهل الأهواء المنكرين لخلافة أبي بكر رضي الله عنه وصديقيته. قال الإمام البغوي في تفسيره : قال الحسين بن الفضل : (من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لإنكاره نص القرآن ، وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً لا كافراً. وقوله عز وجل : ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ لم يكن حزن أبي بكر جبناً منه وإنما كان إشفاقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم) اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم*﴾ أي وأبطل تدبير الكفار وخيب سعيهم وأضاع مكرهم فانقلبوا خاسرين مدحورين لم يصيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه بأذى وانحطت كلمة الكافرين وقد ارتفعت كلمة التوحيد وهي لا إله

إلا الله وهذا ديدنها وديدن أهلها فإنهم هم المنصورون أبداً والأعلون دائما والله غالب على أمره قادر على قهر أعدائه حكيم في تدبيره وصنعه.

قال تعالى :

﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

بعد أن عاتب المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى الخروج في غزوة تبوك وهدد من يتخلف عن دعوة ولي أمر المسلمين إذا دعا للجهاد في سبيل الله ، وأشار إلى أن الأعراب المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتيح الله لهم فرصة الغزو في سبيل الله وسيدعوهم ولي أمر المسلمين لقتال قوم أشداء متمرسين في القتال فمن أطاع هذا الداعي فله الأجر الحسن عند الله عز وجل ومن يتول عنه كما تولى من قبل فله العذاب الأليم ، وساق الشواهد الواضحة على أنه عز وجل قادر على نصرة دينه وإعلاء كلمته بأسباب أو بغير أسباب كما نصر رسوله صلى الله عليه وسلم وصاحبه حيث قال: ﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾ الآية ، دعا هنا المؤمنين إلى النفير العام إذا دعاهم إليه ولي أمر المسلمين وأن عليهم حينئذٍ أن ينفروا خفافاً وثقالاً فقال عز وجل : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ الآية ، أي إذا دعاكم ولي أمر المسلمين إلى النفير العام فسارعوا إلى تلبية دعوته والخروج معه لقتال أعدائكم من الكفار في منشطكم ومكرهكم وعسركم ويسركم رجالاً وركباناً وبأموالكم وأنفسكم فيما استطعتم حتى تكون كلمة الله هي العليا فإن

ذلك خير لكم. قال ابن جرير رحمه الله : ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ يقول : هذا الذي آمركم به من النفر في سبيل الله تعالى خفافا وثقالا وجهاد أعدائه بأموالكم وأنفسكم خير لكم من التثاقل إلى الأرض إذا استنفرتم والخلود إليها والرضى بالقليل من متاع الحياة الدنيا عوضاً من الآخرة إن كنتم من أهل العلم بحقيقة ما بين لكم من فضل الجهاد في سبيل الله على القعود عنه اهـ . هذا وقد جاءت الأحاديث الكثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضح فضل الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي مسعود رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بناقة مخطومة فقال : هذه في سبيل الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة. ومعنى مخطومة أي مجعول في رأسها الخطام وهو الزمام الذي تشد به الناقة. كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة مرفوعاً : (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض). كما روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يا أبا سعيد ، من رضي با لله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة. فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها عليّ يا رسول الله ففعل ثم قال : وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ،الجهاد في سبيل الله. اهـ

قال تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

بعدما ذكر الله عز وجل أحوال المشركين وما تكون عليه معاملتهم في السلم والحرب وأحوال اليهود والنصارى وما تكون عليه معاملتهم في السلم والحرب بدأ هنا في بيان فضائح المنافقين وتعداد مخازيهم وكشف أستارهم حتى أطلق بعض العلماء على هذه السورة اسم الفاضحة لفضحها المنافقين وكشفها عما يبطنونه من الحقد على الإسلام وتربصهم بالمؤمنين ومقالاتهم الخبيثة التي يتفوهون بها فيما بينهم وهممهم المنحطة وأفعالهم الدنيئة ومسارعتهم إلى الأيمان الكاذبة لدرء سيوف المسلمين عنهم واتخاذ هذه الأيمان جنة للصد عن سبيل الله وتكالبهم على الحطام الفاني السريع الزوال. وقوله عز وجل : ﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ بيان بدناءة نفوسهم وانحطاط هممهم حيث إنهم لما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للخروج إلى تبوك سارعوا إلى اختلاق الأعذار لعلمهم ببعد الشقة وخطر لقاء جيوش الروم مع أنهم لو دعوا إلى سفر قريب المسافة والحصول على غنيمة سهلة لسارعوا إلى الخروج. ومعنى : ﴿ لو كان عرضاً قريباً ﴾ أي لو كانت دعوتك لهم ليحصلوا على عرض قريب أي غنيمة سهلة لا قتال فيها ولا ملاقاة لعدو وهي عرض زائل وحطام فان. ومعنى : ﴿ وسفراً قاصداً ﴾ أي وموضعاً قريباً سهلاً. ومعنى : ﴿ لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ والشقة هي

السفر البعيد الذي يقطع بمشقة. أي لسارعوا واستجابوا للنفير ، ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد وكلفتهم سفراً شاقاً عليهم في وقت الحر الشديد وزمان القيظ وهم لا يرجون غير النعيم الزائل ولا ترتفع هممهم إلى طلب النعيم الباقي الأبدي في جنات النعيم لذلك لم يخرجوا معك واختلقوا الأعذار الكاذبة. وقوله عز وجل : ﴿ وسيحلفون با لله لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ أي وسيتذرعون بالأيمان الكاذبة ويتخذونها جنة ووقاية لهم من غضب المسلمين عليهم جبناً من هؤلاء المنافقين. ومعنى : ﴿ لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ أي لو أطقنا الخروج معكم بوجود السعة والمراكب والظهور التي لا غنى للغازي المسافر عنها والصحة في أبداننا لخرجنا معكم للقاء عدوكم. وقوله عز وجل : ﴿ يهلكون أنفسهم وا لله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ إنذار بأنهم بأيمانهم الكاذبة يستعجلون عقوبة ا لله لهم وا لله يعلم إنهم لكاذبون في أعذارهم وأيمانهم. ولا شك أن اليمين الكاذبة وهي يمين الغموس تغمس صاحبها في نار جهنم ويعجل ا لله عقوبة صاحبها فهي تدع الديار بلاقع ويندر أن يكمل صاحبها سنة واحدة على ظهر الأرض كما جاء في حديث البخاري في باب القسامة في الجاهلية من حديث ابن عباس رضي ا لله عنهما في قصة القرشي الذي قتل أجيره الهاشمي في عقال بعير في سفرهما وأنكر القاتل وطلب أبو طالب من قومه تسليمه ديته مائة بعير أو يحلف خمسون منهم أنه لم يقتله فدفع رجلان عن كل واحد منهما بعيرين وحلف ثمانية وأربعون قال ابن عباس : فوالذي نفسي بيده ما حال الحول ومن الثمانية وأربعين عين تطرف. وقد أهلك ا لله عز وجل المنافقين و لم يبق منهم بعد رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إلا القليل كما جاء في حديث حذيفة رضي ا لله عنه عند البخاري في تفسير قوله

عز وجل : ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم ﴾ من طريق زيد بن وهب قال : كنا عند حذيفة فقال : ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة ولا من المنافقين إلا أربعة فقال أعرابي إنكم أصحاب محمد تخبرونا فلا ندري ، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا ؟ قال : أولئك الفسّاق ، أجَلْ لم يبق منهم إلا أربعة ، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده اهـ

قال تعالى :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

بعد أن أوضح الله عز وجل دناءة همم المنافقين وانحطاط نفوسهم وحرصهم على العرض الزائل وانصرافهم عن بذل الجهد في سبيل الحصول على النعيم المقيم الذي لا ينفد ولا يزول وبذلهم الأيمان الكاذبة لدفع سيوف المسلمين عنهم، شرع هنا يبين نوعاً من سلوكهم المعوج حيث خططوا في أن يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقعدوا واختلقوا أعذارا كاذبة مع أنهم مصرّون على أنهم لن يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أذن لهم في التخلف أم لم يأذن لهم. ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو لم يأذن لهم في القعود ثم قعدوا كان ذلك كشفاً ظاهراً لنفاقهم وفضيحة واضحة

لسوء سلوكهم مما يجعل عامة المسلمين وخاصتهم يستقبح فعلهم ولا يدافع عنهم ، وقد افتتح الله عز وجل هذا المقام بالإشارة إلى علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه حيث بدأ بقوله عز وجل : ﴿ عفا الله عنك ﴾ وهو أسلوب اعتاد العرب أن يبدءوا به خطابهم للمخاطب العظيم ، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب ولم يكن قد أطلعه الله على أحوال المنافقين عموماً قبل نزول هذه السورة التي فضحتهم وكشفت أسرارهم لذلك قبل أعذارهم عندما استأذنوه في عدم الخروج فأذن لهم فأعلمه الله عز وجل هنا أنه لم يستأذنه في التخلف عن الخروج معه إلى تبوك إلا المنافقون وأن المؤمنين بالله واليوم الآخر لم يستأذن منهم في التخلف أحد فكان هذا المقام كشفاً ظاهراً وفضحاً واضحاً للمنافقين المتخلفين حتى عرف عامة المسلمين وخاصتهم أنه لم يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القعود إلا المنافقون. ولا معارضة بين هذا المقام وبين قوله عز وجل في سورة النور : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم * ﴾ فإن هذا الاستئذان لمن كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر جامع كصلاة الجمعة أو العيد أو اجتماع لمشورة واضطر أحد المؤمنين أن يخرج من هذا الاجتماع فإن عليه أن يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يأذن لمن استأذن منهم إذا شاء. ولا شك أن هذا هو الأدب الإسلامي فيمن كان في اجتماع للمسلمين وأراد الخروج ، فإن عليه أن يستأذن كبيرهم وأن لكبيرهم الحق في الإذن لمن شاء

منهم. قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية المباركة : (وهذا أيضا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة أو عيد أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين ، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء ، ولهذا قال : ﴿ فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ﴾ الآية. وقد قال أبو داود : حدثنا أحمد بن حنبل ومسدد قالا : حدثنا بشر هو ابن المفضل عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة). وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان به وقال الترمذي : حديث حسن اهـ.

وقوله عز وجل : ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ﴾ إعلان بأن من آمن بالله وبالبعث بعد الموت والحساب والجزاء لا يستأذن في القعود عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يرغب بنفسه عن نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كانوا يبذلون أموالهم وأنفسهم في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُعَرضون أنفسهم لسهام الأعداء حتى لا تصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك أثنى الله عليهم في تذييل هذه الآية حيث قال : ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ وكان مقتضى السياق أن يقول : والله عليم

بهم. لكنه قال : ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ فوضع الاسم الظاهر مكان الضمير ليثبت لهم صفة التقوى الجالبة لمعية الله عز وجل لهم. وقوله عز وجل : ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ الآية فضح للمستأذنين بأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وإعلان بنفاقهم ، ولذلك قال : ﴿ وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾ أي وشكوا في دين الله فهم يتقلبون في هذا الشك ويتحيرون ويتذبذبون.

قال تعالى :

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

هذا إعلام للمسلمين بأن المنافقين الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعزموا على الخروج وأن استئذانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مكراً وخديعة لأنهم لو كانت لهم نية في الخروج لتهيئوا له ولأعدوا له العدة اللازمة للخروج من سلاح وغيره ولكن الله عز وجل علم سوء نفوسهم وفساد نيتهم فخذلهم فتمكن الشيطان من إغرائهم بالقعود والتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعدوا مع المرضى والنساء والصبيان ، والله عز وجل يخذل من يشاء عدلاً ويوفق ويسدد من علم فيهم خيراً فضلاً منه وكرماً ، وقد بين الله عز وجل ثمرة خذلانهم وعدم خروجهم بأنه مصلحة للمسلمين لأنهم

لو خرجوا ما أفادوا المسلمين شيئاً بل كانوا يلحقون بهم الضرر من التخذيل والتشويش وإثارة الفتن بين صفوف المسلمين المجاهدين ولا سيما أن في الجيش من المسلمين من لا يعرف هؤلاء المنافقين وقد يحسن بعض المسلمين الظن بهم لما يتظاهرون به من الإسلام ولهؤلاء المنافقين أقارب من المسلمين لا يعرفون نفاقهم ويسمعون منهم. وليس هذا الموقف المشين هو أول موقف لهؤلاء المنافقين في الفساد والإفساد بل سبق منهم مواقف مخزية كثيرة حتى جاء الحق وزهق الباطل وانتصر الإسلام وأعز الله المسلمين وأذل المنافقين وأوقعهم فيما يكرهون. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدَّة ﴾ أي ولو عزم هؤلاء المنافقون المستأذنون على الخروج لتهيئوا له وأعدوا ما يلزم المسافر للجهاد من عدة. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ﴾ أي ولكن الله عز وجل أبغض خروجهم مع المسلمين لعلمه بفساد سلوكهم وخبث طويتهم فخذلهم ولم يشرح صدورهم للخروج قضاءاً وقدراً وحكمة منه تبارك وتعالى . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ أي وسلط الله عز وجل عليهم من يغريهم بالقعود وعدم الخروج وهم مستعدون لتقبل ذلك لما قضاه الله عز وجل من شقوتهم وله الحكمة البالغة ، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل في سورة الأنعام : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ ﴾ الآية ، أن هذا بيان لجهل المشركين وأنهم لم يعرفوا الله عز وجل إذ ظنوا أن مجرد صدور الشرك منهم وتحريم ما حرموا يكفيهم في الدلالة على مشروعية ما صنعوا زعماً منهم أن مشيئة الله بصدور الفعل منهم تقتضي رضى الله عن عملهم وخلطوا بين مشيئة الله ورضاه وحسبوا أن ما شاء الله هو راض عنه والحال ليس كذلك

فإن مشيئة الله عز وجل وهي الإرادة الكونية القدرية ليست ملازمة للإرادة الشرعية التي بمعنى المحبة فما يكرهه الله عز وجل لا يأمر به شرعاً وكل ما أمر الله به شرعاً هو محبوب لله عز وجل ، ولا يكون في الوجود شيء إلا بقضاء الله وقدره. وقد بين الله عز وجل للناس الأعمال المشروعة والأعمال غير المشروعة وكلفهم في حدود طاقتهم بعمل الصالحات وتجنب السيئات ، وليس لأحد أن يحتج بالقدر على ارتكاب الجرائم والمعايب ولكنه يحتج بالقدر على ما ينزل به من المصائب ويقول : قدّر الله وما شاء فعل. فكراهة الله عز وجل لخروج المنافقين لا تبيح لهم القعود والتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن جميع المقادير بيد الله عز وجل وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وما ذكره الله عز وجل عما كانوا يفعلونه لو خرجوا وأنهم ما كانوا يزيدون المسلمين إلا خبالاً مع علمه وقضائه بأنهم لن يخرجوا لأنه عز وجل يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، على حد قوله عز وجل : ﴿ ولورُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه ﴾ مع أنه عز وجل قضى أنهم لن يعودوا إلى الدنيا أبداً.

وقوله عز وجل : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين *﴾ بيان لما كان يترتب على خروجهم لو خرجوا فإنهم لو خرجوا مع المسلمين ما زادوهم قوة وإنما كانوا يسعون في خبالهم أي في الإفساد بينهم ونشر الشر في صفوفهم والسعي في تخذيلهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ﴾ أي ولأسرعوا فيما يخل بكم متخللين صفوفكم لبث بذور الفتنة بين رجالكم ، وفي رجالكم من يستمع ويصغي لقولهم

ويصدقهم في أكاذيبهم لعدم علمه بنفاقهم مغتراً بما أظهروه بألسنتهم من الإسلام قبل أن يفضح الله أمرهم ويكشف سترهم. وقوله عز وجل : ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ أي ولا يخفى على الله عز وجل مكرهم وتدبيرهم السيئ ودسائسهم. والأصل أن يقال : والله عليم بهم. لكنه وضع الاسم الظاهر موضع الضمير لتسجيل وصفهم بالظالمين المستحقين لعقوبة الله عز وجل بسبب تعديهم وتجاوزهم للحدود وهذا وعيد شديد لهؤلاء المنافقين أي وسيجازيهم الله عز وجل بما يرتكبونه ويثيرونه من الفتن والصد عن سبيل الله. وقوله عز وجل : ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبلُ وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين: ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور ﴾ أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة وذلك أول مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة رمته العرب عن قوس واحدة وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلا كلمته قال عبدالله بن أبي وأصحابه : هذا أمر قد توجه فدخلوا في الإسلام ظاهراً ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ، ولهذا قال تعالى: ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾.

قال تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

هذا أول مقام يفصّل الله عز وجل فيه ما صدر عن المنافقين من مقالات

وأعمال فضحت نفاقهم وكشفت سترهم حيث يقول عز وجل هنا : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾ الآية،وحيث يقول : ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ الآية الثامنة والخمسين من هذه السورة ، وحيث يقول : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ﴾ الآية الواحدة والستين ، وحيث يقول عز وجل : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله ﴾ الآية الخامسة والسبعين ، وحيث يقول عز وجل : ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر ﴾ الآية الثامنة والتسعين ، وحيث يقول في الآية الواحدة بعد المائة: ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ الآية، وحيث يقول في الآية السابعة بعد المائة: ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ﴾ الآية ، وحيث يقول في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ الآية وما بعدها إلى الآية السابعة والعشرين بعد المائة. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تَفْتِنّي ﴾ أي ومن المنافقين من يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى الخروج معه لغزو الروم ائذن لي ولا تفتني أي اسمح لي بالتخلف عنك وعدم الخروج إلى تبوك لأني إن خرجت معك ورأيت نساء بنى الأصفر يعني بنات الروم فلن أصبر عنهن فأقع في الفتنة يعني الإثم والمعصية فتكون أنت سبباً في فتنتي بهن ، وكذب عدو الله فما حمله على الاستئذان إلا كفره بالله وبرسوله ، ولذلك قال عز وجل : ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ أي ألا إنهم قد غرقوا في الفتنة والإثم والمعصية بكفرهم بالله ورسوله. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : قال محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد

الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة: (هل لك ياجدُّ في جِلاد بني الأصفر؟) فقال : يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : (قد أذنت لك). ففي الجد بن قيس نزلت هذه : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾ الآية أي إن كان يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم ، وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجد بن قيس وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة ، وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من سيدكم يا بني سلمة ؟ قالوا : الجد بن قيس على أنّا نبخله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأي داء أدوأ من البخل، ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور . وقوله تعالى : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب اهـ

قال تعالى :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝ ﴾ .

هذا إعلام من الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بعداوة هؤلاء المنافقين وبغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين وحزنهم إذا رأوا تجدد النعم من الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين وفرحهم إذا أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المسلمين أذى من عدو أو غيره ، وإفحام لهؤلاء المنافقين بأن المسلمين راضون بقضاء الله وقدره حلوه ومره وأنهم لا بد لهم من إحدى الحسنيين وهي النصر على الأعداء أو الاستشهاد في سبيل الله فهم على خير في السراء والضراء ، وإنذار لهؤلاء المنافقين بأنهم إذا لم يتوبوا إلى الله فإنه سيقع بهم عذاب من عند الله كتسليط البلايا عليهم أو يصيبهم الله بعذاب بأيدي المؤمنين كالقتل أو السبي. وفي قوله عز وجل : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا ﴾ الآية إشعار بأنهم رغم ادعائهم الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم يبغضونه أشد البغض وأنهم تجاوزوا في ذلك البغض ما يكنونه من العداوة والبغضاء لعموم المؤمنين ، ولذلك جعل الله المنافقين في الدرك الأسفل من النار . والمراد بالحسنة هنا النعمة والمتاع الحسن والمراد بالمصيبة الأذى والشدة ، ولم يقابل الحسنة في هذا المقام الكريم بالسيئة كما قال في سورة آل عمران: ﴿ وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ لأن الخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن ما يسوء هنا هو في حقه صلى الله عليه وسلم مصيبة يثاب عليها بخلاف المقام في سورة آل عمران لأن الخطاب فيها موجه لعموم المؤمنين ، وأصل المصيبة هي البلوى والأمر المكروه يقع بالإنسان والسيئة ما يسوء الإنسان وهي تعم ما يقع به في دينه أو دنياه. ومعنى قوله : ﴿ وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾ أي وإن يقع بك مكروه يتبجحوا بما صنعوا مدعين أنهم

قد صانوا أنفسهم عن الوقـوع في المكـاره و لم يعرضـوا أنفسـهم للمصـائب فلـم يشهدوا هـذه المعـارك وينصرفـوا عـن رسـول ا لله صلـى ا لله عليـه وسـلم وهـم فرحون بما أصاب المسلمين من أذى مبتهجون بـأنهم لم يقـع بهـم مكـروه كمـا وصف عز وجل الكفار بأنهم كانوا إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهـين. وقولـه عز وجل : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب ا لله لنا هو مولانا وعلـى ا لله فليتوكـل المؤمنون ﴾ إرشاد من ا لله عز وجل لرسوله صلى ا لله عليه وسلم أن يرد عليهـم ويبين لهم بطلان ما بنوا عليهم مسرتهم ويقول لهم : لن يقع بنا إلا ما قدره ا لله عز وجل لنا وقضاه علينا فنحن تحت مشيئته راضون بقضائه وقدره وهو لنا خير على كل حال فإن أصابنا أذى صبرنا وإن جاءتنا نعمة شكرنا فنحن دائرون بين فلكي الصبر والشكر وا لله ولينا وعليه توكلنـا واعتمدنـا فهـو ملجؤنـا وناصرنـا وعلى كل مؤمن أن يعتمد على ا لله وأن يتوكل عليه فهو نعم المولى ونعم النصير

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ قل هل تربصون بنـا إلا إحـدى الحسـنيين ونحـن نتربص بكم أن يصيبكـم ا لله بعـذاب مـن عنـده أو بأيدينـا فـتربصوا إنـا معكـم متربصون *﴾ أي هل تنتظرون بنا أيها المنـافقون إلا أحـد أمريـن إمـا أن ننتصـر على أعدائنا أو يقع بنا قتل أو جراحة ونحن سعداء في كلتـا الحـالتين ، لأنـه إمـا نصر على أعداء ا لله أو شهادة في سبيل ا لله وكلا الأمرين حسنى لنا ، أما نحن فننتظر بكم أيها المنافقون أن يصيبكم ا لله بعقوبة مـن عنـده بغـير سـبب منـا أو تظهرون ما أبطنتموه من الكفر فنقتلكم أو نسبيكم فلا ننتظـر إلا أن يقـع بكـم إحدى السوءين فانتظروا ما يقع بنا مما يلقيه الشـيطان في قلوبكـم ومـا يعدكـم الشيطان إلا غروراً فإنا معكم منتظرون ما يقع بكم مما وعدنا ا لله به وكان وعد ا لله مفعولاً.

قال تعالى :

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

هذا إعلام للمنافقين بأن ما يتبجحون به أحياناً من بذل بعض المال الذي لا ينفقونه إلا رياء وسمعة لن يقبله عز وجل منهم سواء بذلوه طواعية أو بذلوه مكرهين رغماً عنهم ، لأن الله عز وجل لا يقبل من العمل الذي ظاهره الخير إلا ما يكون من المؤمنين الذين يحرصون على أن يكون عملهم خالصاً صواباً ، أما المنافقون فإنهم فاسقون عن أمر الله ولا يتقبل الله إلا من المتقين كما قال عز وجل : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين *﴾. وقد أوضح الله عز وجل في هذا المقام بعض سلوكيات المنافقين في نفقاتهم وصلاتهم التي حالت دون قبول أعمالهم فهم قد كفروا بالله وبرسوله ولا يقومون للصلاة إلا كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون مع أن كل سبب من هذه الأسباب كفيل برد أعمالهم وبطلانها. وقد نبّه الله عز وجل إلى أنه لا يغتر عاقل بما رزقهم الله من مال أو أولاد ولا ينبغي لأحد أن يعجب بها لأن الله عز وجل أراد تعذيبهم بها في الحياة الدنيا فظاهرها الخير وباطنها الحسرة والاستدراج ، إذ ليس كل مال أو ولد يجلب السرور والسعادة بل قد يكون المال سبباً لشقوة جامعه والولد سبباً لشقوة أبويه به حيث تكون المشاق والمتاعب في حفظها وازدياد الخوف والغم

بسبب المصائب الواقعة عليها أو توقع ذلك فيها ، وهذا لعدم احتسابهم الأجر فيما يلم بها بخلاف المؤمنين الذين إذا أصابتهم سراء شكروا وإن أصابتهم ضراء صبروا. والأمر في قوله عز وجل : ﴿ أنفقوا طوعاً أو كرهاً ﴾ بمعنى الخبر ، أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين : نفقتكم غير مقبولة سواء كانت طوعاً أو كرهاً.
وقوله عز وجل : ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا با لله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ أي ما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم وكسلهم في إتيان الصلاة وكونهم كارهين الإنفاق حيث يعتبرونه مغرماً. وقد وصفهم ا لله عز وجل بأنهم لا يقومون للصلاة إلا وهم كسالى في قوله عز وجل في سورة النساء : ﴿ إن المنافقين يخادعون ا لله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون ا لله إلا قليلا ﴾. والخطاب في قوله عز وجل : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾ الآية وإن كان موجهاً للنبي صلى ا لله عليه وسلم فإن المراد به جميع المؤمنين ، أي فلا تعجبوا بأموال المنافقين وأولادهم ولا تستحسنوا ما هم فيه من الحطام الفاني لأنه حسرة عليهم في الدنيا وعذاب في الآخرة وهم ينفقون أموالهم للصد عن سبيل ا لله والعمل على إطفاء نور ا لله ثم ينصر ا لله عز وجل رسوله ويعلي كلمته فيزداد المنافقون حسرة على ضياع أموالهم وانتصار الإسلام عليهم وعلى أمثالهم من المشركين واليهود والنصارى كما أن بعض أبناء المنافقين قد أسلموا وصاروا من خيرة أصحاب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم كعبدا لله بن عبدا لله بن أبي ابن سلول وكحنظلة غسيل الملائكة وهو ابن الفاسق أبي عامر المعروف بشدة عدائه للإسلام والذي سافر إلى قيصر الروم ليحضه على حرب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بالتعاون مع المنافقين ،

وهؤلاء المنافقون يعلمون أن أبناءهم المؤمنين سيرثون أموالهم وينفقونها في سبيل الله فتزداد حسرتهم وعذابهم بأموالهم. وقد أكد الله عز وجل هذا المعنى في الآية الخامسة والثمانين من هذه السورة المباركة حيث يقول عز وجل : ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ والله عز وجل يعطي الدنيا لمن أحب ولمن لا يحب فليس عطاؤه في الدنيا دليلاً على رضاه كما قال عز وجل : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون *﴾

قال تعالى :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

هذا بيان لجزع هؤلاء المنافقين وفزعهم وهلعهم وشدة خوفهم من تمكن المسلمين منهم فهم يلجئون إلى الأيمان الكاذبة واتخذوها جنة لعلها تحميهم من سيوف المسلمين فصاروا يحلفون بالله أنهم مسلمون وأنهم منكم على دينكم والواقع أنهم ما هم منكم وليسوا على دينكم بل هم كافرون بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولكنّ شدة فَرَقهم أي خوفهم منكم هو الذي حملهم على الحلف بالأيمان الكاذبة الفاجرة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لو يجدون ملجأ ﴾ أي لو يستطيعون الحصول على مكان يتحصنون به ويلجئون إليه ﴿ أو مغارات ﴾ أي أو غيراناً وسراديب ، فالمغارات جمع مغارة وهي الغار والنقب في الجبل ﴿ أو مُدَّخَلاً ﴾ أي أو سرباً ونفقاً تحت الأرض ﴿ لَوَلَّوْا إليه وهم

يجمحون ﴾ أي وهم يسارعون في دخوله والانصراف عنكم إسراعا لا يرده شيء كالفرس الجموح المستعصي على صاحبه ، أي إن هؤلاء المنافقين الذين يؤكدون أيمانهم بأنهم مسلمون وليسوا بمسلمين في الحقيقة ما حملهم على أيمانهم الكاذبة إلا أنهم يخافون منكم أيها المسلمون إذا اطلعتم على بواطنهم وكفرهم ولو كانوا يستطيعون ترك دورهم وأموالهم والالتجاء إلى مكان يلجئون إليه تحصناً منكم في رأس جبل أو قلعة أو جزيرة في البحر لسارعوا بالهروب إلى تلك الأماكن من شدة بغضهم إياكم وخوفهم منكم.

قال تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

بيان لصورة أخرى من الصور التي فضحت نفاقهم وهي انفلات لسان أحدهم بعيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمزه في توزيعه لبعض الصدقات حيث أعطى بعض المؤلفة قلوبهم أكثر من غيرهم فقال بعض المنافقين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. أو قال : لم يعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد روى البخاري في صحيحه في كتاب استتابة المرتدين ومسلم في الزكاة واللفظ للبخاري من طريق أبي سلمة عن أبي سعيد قال : (بينما النبي صلى الله عليه وسلم يقسم جاء عبدالله بن ذي الخويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله. فقال : ويلك من يعدل إذا لم أعدل ؟ قال عمر بن الخطاب :

دعني أضرب عنقه ، قال : دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرّمِيَّة يُنظَرُ في قُـذَذِه فلا يوجد فيه شئ ثم يُنظر في نَصله فلا يوجد فيه شئ ثـم يُنظر في رِصافه فلا يوجد فيه شئ ثم يُنظَر في نَضِيِّه فلا يوجد فيه شئ قد سَبَقَ الفَرْسَ والدم ، آيتهم رجل إحدى يديه أو قال : ثدييه مِثْلُ ثدي المرأة أو قال : مثل البَضْعَة تـدردر ، يخرجون على حين فُرقة من الناس. قال أبو سعيد : أشهد سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأشهد أن علياً قتلهم وأنا معه ، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي صلى الله عليه وسلم. قال : فنزلت فيه : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ اهـ. وفي لفظ لمسلم من حديث جابر رضي الله عنه : (فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله فأقتل هـذا المنافق. فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي) الحديث. وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه قاسم والله عز وجل هو المعطي فليس لأحد أن يعترض على هذه القسمة لأنه إنما قسم بأمر الله عز وجل ، فقد جاء في الصحيحين من حديث معاوية رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي) الحديث. وفي قوله عز وجل : ﴿ فإن أُعطُوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يسخطون * ﴾ حجة ظاهرة على أن صاحب هذا القول لا منشأ للمزه سوى جشعه وحرصه على حطام الدنيا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أعطاه كما أعطى بعض من يتألفهم في الإسلام لرضي و لم يقل هذه المقالة التي لمز أي عاب فيها سيد الخلق وأكرمهم محمداً صلى الله عليه وسلم.

وقوله عز وجل : ﴿ ولو أنهم رَضُوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا

الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ تنبيه لهؤلاء المنافقين على ما هو خير لهم لو أرادوا الخير لأنفسهم. قال ابن كثير رحمه الله : ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون * ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً حيث جعل الرضاء بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله : ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وامتثال أوامره وترك زواجره وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره اهـ. وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل : ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ أن الله عز وجل أشار إلى أن هناك أموراً يجوز العطف فيها على الله بالواو ، وأموراً لا يجوز فيها ذلك لاختصاصها با لله عز وجل حيث قال : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ وقال عز وجل : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ﴾ لأن الإيتاء يضاف إلى الله وإلى غيره حقيقة وكذلك الشكر ، أمّا حسبك الله وكذلك الرغبة والرهبة والإنابة والقنوت فإنه لله وحده وهو من أنواع العبادات التي لا تكون إلا لله ، وكما قال عز وجل : ﴿ وإياي فارهبون * ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وإلى ربك فارغب * ﴾.

قال تعالى :

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى اعتراض بعض المنافقين على رسوله صلى الله عليه وسلم ولمزهم إياه في توزيعه للصدقات ، بَيّن عز وجل أنه تبارك وتعالى هو الذي عين المستحقين لهذه الصدقات وبيّن حكمها وتولى أمرها بنفسه ولم يكل قسمتها إلى أحد غيره فجزأها لهذه الأصناف الثمانية. وليس لأحد كائناً من كان أن يعترض على حكم الله عز وجل. وبهذا يتضح سوء أدب المنافقين وانطماس بصائرهم حيث اعترضوا على أعظم خلق الله عدلاً وإنصافاً محمد صلى الله عليه وسلم فزعموا أنه لم يعدل ، وهذا من فلتات ألسنتهم التي فضحت نفاقهم. وعامة أهل العلم على أن الزكاة إنما تجزئ إذا دفعت إلى هؤلاء الأصناف الثمانية أو إلى بعضهم. والفقير هو من لا يملك شيئاً والمسكين هو من يملك دون النصاب أو من يملك مالا يكفي نفقته وعياله وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يجد غنىً يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً). أما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة بشرط أن لا يكونوا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رواه مسلم في صحيحه من حديث عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث قال : اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبدالمطلب فقالا : والله لو بعثنا هذين الغلامين (قالا لي وللفضل بن عباس) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلماه فأمّرهما على هذه الصدقات فأدّيا مايؤدي الناس وأصابا مما يصيب الناس. قال : فبينما هما في ذلك جاء علي بن أبي طالب فوقف عليهما فذكرا له ذلك فقال علي بن أبي طالب : لا تفعلا

فوا لله ما هو بفاعل. فانتحاه ربيعة بن الحارث فقال : وا لله ما تصنع هذا إلا نفاسةً منك علينا ، فوا لله لقد نلت صهر رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فما نفسناه عليك. قال علي : أرسلوهما. فانطلقا واضطجع عليّ. قال : فلما صلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم الظهر سبقناه إلى الحجرة فقمنا عندها حتى جاء فأخذ بآذاننا ثم قال : أخرِجا ما تُصَرِّران ثم دخل ودخلنا معه وهو يومئذ عند زينب بنت جحش. قال : فتواكلنا الكلام ، ثم تكلم أحدنا فقال : يا رسول ا لله أنت أَبرّ الناس وأوصل الناس وقد بَلغْنَا النكاح فجئنا لتُؤَمِّرنا على بعض هذه الصدقات فنؤدي إليك كما يؤدي الناس ونُصيب كما يصيبون. قال: فسكت طويلا حتى أردنا أن نكلمه ، قال : وجعلت زينب تُلْمِعُ لنا من وراء الحجاب أن لا تكلماه. قال : ثم قال : إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد إنما هي أوساخ الناس ، ادعوا لي مَحْمِيَّةَ (وكان على الخُمس) ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب قال : فجاآه. فقال لمحمية: أَنْكِحْ هذا الغلام ابنتك (للفضل بن عباس) فَأَنكحه ، وقال لنوفل بن الحارث : أَنِكح هذا الغلام ابنتك (لي) فأنكَحني. وقال لمحمية : أَصِدق عنهما من الخُمس كذا وكذا اهـ. أما المؤلفة قلوبهم فهم الذين يتألفهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أو الإمام بعده على الإسلام ليدخلوا فيه أو ليثبتوا عليه. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي ا لله عنه أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال في حديث : (فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم) الحديث. قال ابن كثير رحمه ا لله في تفسير هذه الآية : وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام : منهم من يُعطَى ليُسلم كما أعطى النبي صلى ا لله عليه وسلم صفوان بن أمية من غنائم حنين وقد كان شهدها مشركاً ، قال : فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس

إليّ بعد أن كان أبغض الناس إليّ ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا زكريا بن عدي أنا ابن المبارك عن يونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال : أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليّ ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ. ورواه مسلم والترمذي من حديث يونس عن الزهري به اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وفي الرقاب ﴾ أي وفي تحرير الرقاب من الرق وهو يشمل معاونة المكاتبين فيدفع لهم من الزكاة ما يساعدهم على عتق رقابهم كما يشمل المساعدة في شراء العبيد وإعتاقهم ليتحرروا من الرق. وقد حض الله تبارك وتعالى على معاونة المكاتبين وتسديد أقساط كتابتهم ليتحرروا حيث يقول عز وجل : ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ والغارمين ﴾ أي ويُعطى من الصدقات للغارمين وهم من تحمل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله أو احتاج فاستدان لنفقته أو مسكنه أو نفقة عياله أو غير ذلك فيما ليس معصية لله عز وجل فإنه يعطى من الزكاة لوفاء دينه. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث قبيصة بن المخارق الهلالي رضي الله عنه قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأل فيها. فقال : أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثم قال : ياقبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قَواماً من عيش ـ أو قال سداداً من عيش ـ ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثةٌ من ذوى الحِجَى من قومه : لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من

عيش - أو قال سِدَاداً من عيش - فما سواهن من المسألة ياقبيصة سُحْتٌ يأكلها صاحبها سحتاً اهـ. والحمالة أن يقع قتال ونحوه بين فريقين فيصلح إنسان بينهم على مال فيتحمله ويلتزمه على نفسه. والجائحة الآفة تصيب مال الإنسان. والقِوام هو ما يقوم به أمر الإنسان من مال ونحوه. والسِداد ما يسد حاجة المحتاج ويكفيه. و لم يشترط عند الحمالة والجائحة إحضار شهود عليها لأنها عادة تكون معروفة مشهورة بخلاف حالة الفاقة فإنها تخفى ولذلك اشترط فيها ثلاثة شهود بشرط أن يكونوا من ذوي العقول في قوم المحتاج.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وفي سبيل الله ﴾ أي ويدفع من الزكاة للغزاة والمجاهدين في سبيل الله حتى ولو كانوا أغنياء. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وابن السبيل ﴾ أي ويدفع من الزكاة لابن السبيل وهو المسافر المنقطع عن أهله وماله وسمي ابن السبيل لأنه ملازم للسبيل وهو الطريق الذي يقطعه في سفره . فهذه الأصناف الثمانية هي المستحقة لزكاة الأموال التي فرضها الله عز وجل فلا يجوز صرف شيء منها لغير هذه الأصناف الثمانية . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فريضة من الله ﴾ أي واجبة من الله قد أوجب على عباده أن يؤدوها إلى هؤلاء المستحقين لها من الأصناف الثمانية ولا حظّ فيها لغيرهم ، وليس لغيرهم أن يتشوف إليها وفي هذا ردع للمنافقين الذين يلمزون من لم يعطهم من الصدقات. وقوله تعالى : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي ولا تخفى على الله خافية وهو الحكيم فيما يشرعه لعباده فشرعه هو الشرع وحكمه هو الحكم لا إله غيره ولارب سواه.

قال تعالى :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾ .

أي ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون لآخرين : ﴿ هو أُذنٌ ﴾ أي يسمع كل ما قيل له ويصدقه ولا يفرّق بين الصادق والكاذب ، ففضح الله عز وجل هؤلاء المنافقين الحاقدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ووبخهم وكذّبهم ووصف رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه أذن خير أي مستمع خير ، فقال عز وجل : ﴿ قل أُذنٌ خيرٍ لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمةٌ للذين آمنوا منكم ﴾ أي هو صلى الله عليه وسلم أذن خير أي لا يستمع إلا لما فيه صلاح العباد وما يعود عليهم بالخير والنفع مفرقاً بين الحق والباطل ، والصدق والكذب بما يلهمه الله عز وجل ويطلعه عليه من أخباركم وأسراركم وهو يؤمن بالله ولا يصدق إلا المؤمنين وهو رحمة لمن تاب إلى الله منكم وتأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم فسارعوا إلى الإيمان بالله ورسوله فإن ذلك خير لكم وأنفع لكم في معاشكم ومعادكم. وقد عدّى فعل الإيمان إلى الله تعالى بالباء وعداه إلى المؤمنين باللام لأن الإيمان بالله يقتضي التصديق المطلق به عز وجل ، وأما الإيمان للمؤمنين فيقتضي موافقتهم والتسليم لما يخبرون به لتحريهم الصدق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظيره قوله عز وجل : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ﴾ وقوله عز وجل :

﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾. وقد توعد الله تبارك وتعالى هؤلاء المنافقين بالعذاب الأليم فقال : ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ أي والذين يلمزون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصفونه بما لا يليق بخير خلق الله وأكملهم قد أعد الله لهم عقاباً موجعاً وعذاباً مؤلماً إذا استمروا على ماهم فيه من الضلال والنفاق وسوء الأخلاق.

قال تعالى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

تأكيد للمؤمنين بأن هؤلاء المنافقين الذين يطعنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجئون إلى الأيمان الكاذبة عندما يُكشف سترهم فيحلفون إرضاء لكم أيها المؤمنون وخوفاً من سيوفكم ويعتذرون إليكم ويؤكدون معاذيرهم بهذه الأيمان الفاجرة لتقبلوا عذرهم وترضوا عنهم ولو كان بهم مسكة من عقل وذرة من إيمان بالله وبرسوله لسعوا إلى إرضاء الله وابتعدوا عن إيذاء رسوله صلى الله عليه وسلم ولأسلموا ظاهراً وباطناً. والضمير في قوله : ﴿ يرضوه ﴾ للإشعار بأن رضاه صلى الله عليه وسلم مندرج تحت رضا الله عز وجل ولا يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لمن يرضى الله تبارك وتعالى عنه. ولا شك أن من يسعى في رضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ساع في رضى الله تبارك وتعالى كما قال عز وجل : ﴿ من يطع الرسول

فقد أطاع الله ﴾. وقوله عز وجل : ﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله ﴾ الآية استفهام توبيخ لهؤلاء المنافقين ووعيد شديد لهم على مشاقتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حادّ الله ورسوله ، أي شَاقّ الله ورسوله فمصيره المؤكد نار جهنم وبئس المصير كما قال عز وجل : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ ، وكما قال عز وجل : ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب * ﴾. وقوله عز وجل: ﴿ ذلك الخزي العظيم * ﴾ أي هذه العقوبة التي يعاقب الله عز وجل بها هؤلاء المنافقين إذا استمروا على نفاقهم هي الفضيحة الكبرى التي لا تعادلها فضيحة من الفضائح التي يفر منها هؤلاء المنافقون في الحياة الدنيا فيحلفون كاذبين فراراً من الفضيحة عند الناس. ولاشك أن اليهود اتخذوا من المنافقين مطايا لهم واشتركوا معهم في همز الإسلام ولمزه وإطلاق الكلمات التي تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : راعنا. كما تقدم بيانه في تفسير سورة البقرة عند قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا ﴾ وفي تفسير سورة النساء عند قوله عز وجل : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعناً في الدين ﴾ كما كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند التحية : السام عليكم. وقد سلك المنافقون مسلك اليهود وساروا على منوالهم في همز الإسلام ولمزه واغتنام الفرص للتخذيل بين صفوف المسلمين وإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾ .

وهذا أيضاً بيان من البيانات التي فضح الله عز وجل بها المنافقين في هذه السورة المباركة حيث كانوا يتحدثون فيما بينهم فيخلطون بين الاستهزاء بالله وآياته ورسوله وبين الخوف من أن يكشف الله سترهم ويبلغ مقالاتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن المنافقين كانت تنتابهم أحوال فتارة تشعر أفئدتهم بالإيمان فيدخل الخوف في قلوبهم ويخشون أن ينزل الله فيهم قرآناً يفضحهم وهذه الحالة لا تدوم طويلا فسرعان ما ينطفئ نور الإيمان من قلوبهم ويعودون إلى ما كانوا عليه من النفاق والضلال تارة أخرى حيث يقول عز وجل في المنافقين في أوائل سورة البقرة : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شئ قدير *﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على

قلوبهم فهم لا يفقهون *﴾ ، وقد أوضحت في تفسير أوائل سورة البقرة الكثير من أحوال المنافقين وتذبذبهم وحيرتهم وحسرتهم وما يصيبهم من المخاوف وما ينتابهم من الهلع والفزع والرعب ، ولهذا وصفهم الله عز وجل في هذا المقام من سورة التوبة بأنهم يحذرون أن تنزل بشأنهم سورة تفضحهم وتكشف ما في قلوبهم وهم في نفس الوقت يستهزئون بالله وآياته ورسوله حيث يقول : ﴿ يحذر المنافقون أن تُنَزَّل عليهم سورةٌ تنبئهم بما في قلوبهم ﴾ أي يخاف المنافقون أن ينزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآناً يفضحهم فيما تحدثوا به سراً وطعنوا فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين وما تفوهوا به فيما بينهم استهزاء وسخرية بالإسلام والمسلمين . ومعنى : ﴿ أن تُنَزَّل عليهم سورةٌ تنبئهم بما في قلوبهم ﴾ أي أن تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأنهم وأحاديثهم التي يتكاتمونها سورة تعلن للمسلمين ما تكنه لهم قلوب المنافقين ، وهذا الخوف لا يحدث إلا عند وصول بصيص من أنوار الإسلام إلى قلوبهم لكن سرعان ما ينطفئ هذا النور ويعودون إلى السخرية والاستهزاء ولذلك قال الله عز وجل هنا : ﴿ قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ أي إن الله سينزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ما يفضحكم به ويبين له أمركم ، كما قال عز وجل : ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم *﴾ كما أشار عز وجل إلى اشتراك اليهود والمنافقين في هذا اللون من الإيذاء حيث يقول : ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا

يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير *﴾.

وقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ هذا بيان بأنهم يتحيرون في الجواب عندما يفاجئون بكشف همزهم ولمزهم لله ولآياته ولرسوله صلى الله عليه وسلم فتارة يبادرون إلى الحلف بالأيمان الكاذبة وتارة يدعون أنهم ما كانوا جادين فيما يقولون وإنما كانوا هازلين لا يريدون الاستهزاء بالإسلام وإنما يريدون التسلية لبعد الطريق الذي نجتازه كالذي يخوض في الماء ولا يتبين مواضع أقدامه وإنما يلجئون إلى ذلك عندما يضيق عليهم الخناق ولا يرون أن في أيمانهم الكاذبة نجاة لهم ومفراً مما وقعوا فيه. وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم أن ما صدر منهم هو استهزاء بالله وبآياته وبرسوله صلى الله عليه وسلم وأن ذلك كفر وأنهم لن يقبل منهم عذر عما بدر منهم فقال عز وجل : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين *﴾ أي كيف تقدمون على إيقاع الاستهزاء برب السموات والأرض القادر على كل شئ وعلى الاستهزاء بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم المؤيد بالمعجزات الحسية والمعنوية ، وهذا غاية في توبيخ هؤلاء المنافقين وتقريعهم وتهديدهم ولاشك أن هؤلاء المنافقين قد جمعوا مكفرات ، فإن الاستهزاء بالله كفر كما أن الاستهزاء بآيات الله كفر وكذلك الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم كفر . وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يقبل عذرهم الذي اعتذروا به من أنهم كانوا يخوضون ويلعبون ويُعْلِمهم أنهم كفروا بالله وانطمست قلوبهم بعد ما كانت قد رأت بصيصاً من أنوار الإيمان ، وأشار عز وجل إلى أن بعضهم قد يتوب فيتوب الله

عليه وأن بعضهم لن يوفق للتوبة فيعذبه الله بسبب إجرامه وانخراطه في سلك المجرمين.

قال تعالى :

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

هذا البيان الكريم وصف لأخلاق المنافقين وما انطبعت عليه قلوبهم من الاعوجاج وحبهم للشر وبغضهم للخير ، وقد استشرى هذا الشر في رجالهم ونسائهم حيث قال عز وجل : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ أي مجتمعون في الشر منغمسون في الضلال منصرفون عن طريق الرشد لا يتخذونه سبيلاً مقبلون على سبيل الغي يتخذونه سبيلاً كما قال عز وجل : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ﴾ الآية. ولذلك صار هؤلاء المنافقون يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف حيث قال عز وجل هنا : ﴿ يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ أي يبخلون بما آتاهم الله من فضله فلا يمدون يد مساعدة بإحسان لمحتاج ولا ينفقون في سبيل الله. وقوله

عز وجل : ﴿ نَسُوا الله فَنَسِيهمْ ﴾ أي غفلوا عن ذكر الله فقست قلوبهم وانطبع الشر في نفوسهم فخذلهم الله عز وجل ووكلهم إلى أنفسهم فألقوا بها في المهالك. والنسيان يرد في اللغة العربية لأكثر من معنى فهو يستعمل بمعنى الغفلة وضد الذكر وضد الحفظ ويستعمل بمعنى الترك وما تلقيه المرأة من خرق الحيض والنفاس التي يُرمى بها ولا يُلْتَفَتُ إليها وما يضاف من هذا الوصف للناس يحمل على ما يليق بهم وما يضاف إلى الله عز وجل يحمل على ما يليق بالله عز وجل ، وقد قال ثعلب في قوله عز وجل : ﴿ نَسُوا الله فنسيهم ﴾ لا ينسى الله عز وجل ، إنما معناه : تركوا الله فتركهم. وقال الزجاج : تركوا أمر الله فتركهم الله من رحمته وتوفيقه اهـ. وقد وصف الله عز وجل نفسه المقدسة في كتابه الكريم بأنه لا يضل ولا ينسى حيث قال عز وجل : ﴿ وماكان ربك نَسِياً ﴾ وقال عز وجل : ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ ومذهب أهل السنة والجماعة على أنه إذا ورد لفظ يحتمل معنيين أو معاني وكان بعضها لا يصلح حمل اللفظ عليه ، حملوه على ما يليق مما هو معلوم نصًا. ويجعلون هذا اللفظ من المتشابه فيحملونه على المحكم ، وقد أطلت الكلام على هذا في تفسير قوله عز وجل : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ من سورة آل عمران وضربت له كثيراً من الأمثلة وبالله التوفيق.

وقوله عز وجل : ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون * وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾ أي إن المنافقين المبطنين الكفر المظهرين الإسلام هم الخارجون عن طريق الحق والرشد ، أعد الله لهؤلاء المنافقين وتوعدهم بأنهم هم والمجاهرين

بالكفر من الوثنيين واليهود والنصارى سيكونون في الدركات في نار جهنم وسيكون المنافقون في الدرك الأسفل من النار يقيمون فيها أبداً ولا يتحولون عنها بحال من الأحوال وهي كافيتهم في العذاب وقد طردهم الله من رحمته فلا يزالون في عذاب مقيم أي أبدي سرمدي. وفعل وعد يأتي في الخير وفي الشر، فيقال: وعده خيراً ويقال: وعده شراً. ومصدر وعد في الخير الوَعْد والعِدَة، ومصدره في الشر الوعيد فالمصدر أو السياق هو الذي يحدد المعنى المراد منه. فمعنى: ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ﴾ أي توعد الله عز وجل هؤلاء المنافقين رجالا ونساء وجميع أنواع الكفار من الوثنيين وأهل الكتاب. ومعنى: ﴿ هي حسبهم ﴾ أي كافيتهم جزاء على كفرهم. ومعنى: ﴿ ولعنهم الله ﴾ أي وطردهم من رحمته وأبعدهم عنها فمهما صرخوا واستغاثوا لا تنالهم رحمة أرحم الراحمين ولا تنفعهم شفاعة الشافعين.

قال تعالى:

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

بعد أن ذكر أن المنافقين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم عن الخير وأنهم انحرفوا عن صراط الله المستقيم فخذلهم ، شبههم هنا بمن كان قبلهم من المنحرفين عن دين الله من الوثنيين واليهود والنصارى وقد كانوا أشد من المنافقين قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فانغمسوا في الشهوات والملذات فصاروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام وانحرفوا عن الصراط المستقيم واندفعوا في الباطل على غير بصيرة فسلك هؤلاء المنافقون مسلكهم وانغمسوا في الشهوات والملذات كما انغمسوا وانحرفوا عن الصراط المستقيم كما انحرفوا واندفعوا في الباطل على غير بصيرة كما اندفعوا ، فأذلهم الله وأحبط أعمالهم وأبطل كيدهم وخابوا وخسروا وأعز الله دينه ونصر رسله. ثم وبخ الله هؤلاء المنافقين حيث لم يعتبروا بما وقع للأمم المكذبة برسلها كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم شعيب وقوم لوط إذ جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوا رسلهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . وقوله تعالى : ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ أي أنتم أيها المنافقون كالذين من قبلكم. وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب لمجابهتهم بأنهم على نهج المكذبين من الأمم الخالية وأنهم سيصيبهم عذاب الله وسينصر الله رسوله ويعلي كلمته. ومعنى ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ أي تشابهتم بمن مضوا وسبقوكم من المكذبين المنحرفين. ومعنى ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ أي فتلذذوا بنصيبهم من الحطام الفاني. ومعنى ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخَلاقهم ﴾ أي فنهجتم منهجهم وتلذذتم بنصيبكم من الحطام الفاني الذي صار أكبر همكم كما فعلوا. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ أي واندفعتم في الباطل كخوضهم في الباطل وطعنهم في المرسلين. وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من أمته من يسلك

سبيل الأولين فينحرف كما انحرفوا ، فقد قال البخاري في كتاب الاعتصام من صحيحه : باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : لتتبعُنّ سَنَنَ من كان قبلكم ، حدثنا أحمد بن يونس حدثنا ابن أبى ذئب عن المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع) ، فقيل : يا رسول الله كفارس والروم ؟ قال : (ومَنِ الناسُ إلا أولئك). حدثنا محمد بن عبدالعزيز حدثنا أبو عمر الصنعانيُّ من اليمن عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لتتبعُنّ سَنَنَ من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى : قال : فَمَنْ اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ أي كما حبطت أعمالهم وخسروا كذلك حبطت أعمالكم وخسرتم. وقوله عز وجل : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلُهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ﴾ ، الاستفهام في قوله : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ﴾ للتقرير أي قد أتاهم وجاءهم خبر الذين من قبلهم وقد عرفوا ما فعل هؤلاء السابقون وما فعل الله بهم وقد ذكر الله عز وجل طوائف ستة وهم قوم نوح عليه السلام وعاد وهم قوم هود عليه السلام وثمود وهم قوم صالح عليه السلام وقوم إبراهيم عليه السلام وأصحاب مدين وهم قوم شعيب عليه السلام والمؤتفكات وهي قرى قوم لوط عليه السلام وسميت بالمؤتفكات أي المنقلبات لأن الله عز وجل قلبها على أهلها وجعل

عاليها سافلها لأنهم كانوا قد انقلبت فطرتهم وصاروا يأتون الذكران من العالمين فقلب الله عليهم أرضهم وكانت أعظم مدنهم سادوم وعمورة من دائرة الأردن ولا تزال معروفة إلى اليوم حيث صار مكانها إلى الآن البحر الميت. وقد خص الله بالذكر هذه الطوائف الستة لأن أخبارهم كانت متداولة في الجزيرة العربية وكانت آثارهم باقية وكان الكثير منها في بلاد العرب وما حولها كالعراق والشام ، وكانوا يمرون عليها بالليل والنهار ويعرفون أخبار أهلها ، كما قال عز وجل في سورة الصافات : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون *﴾ وقد عرفوا أن قوم نوح أغرقهم الله بالطوفان وأن قوم هود سلط الله عليهم ريحاً صرصراً سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. ويعرفون أن ثمود أهلكوا بالطاغية والصيحة القاتلة كما قال عز وجل : ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ وقد أهلك الله أعداء إبراهيم عليه السلام وعلى رأسهم النمرود وسلبهم النعم وأن أهل مدين أخذهم عذاب يوم الظلة وكان عذاب يوم عظيم ، وكان سبب إهلاك هؤلاء جميعاً هو أنهم جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوهم فأهلكهم الله وما ظلمهم بل هم الذين ظلموا أنفسهم فاتعظوا أيها المنافقون بما وقع للمكذبين قبلكم واحذروا أن يحل بكم ما حل بهم، وكُفُّوا عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيذاء المؤمنين، واعلموا أن الله عز وجل لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم كما قال عز وجل : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم *﴾

قال تعالى :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل صفات المنافقين الذميمة وأفعالهم القبيحة وما وعدهم به من العقوبة على أفعالهم الشنيعة وذكّرهم بما أصاب به الأمم السابقة التي انحرفت عن صراط ربها وطعنت في رسلها وكذبتهم ، شرع هنا في ذكر صفات المؤمنين الحميدة وأفعالهم المجيدة وما وعدهم به من كريم المثوبة على أفعالهم الصالحة ، فقال عز وجل: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ الآيتين. والصفة الأولى من صفات المؤمنين هي أن بعضهم أولياء بعض ، أي يحب بعضهم بعضاً ويتوادون ويتراحمون ويتعاضدون فهم كالبنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضاً. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيها من حديث أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى). والصفة الثانية من صفات المؤمنين أنهم يأمرون بالمعروف أي يحضون على فعل الخيرات. والصفة الثالثة من

صفات المؤمنين أنهم يحذرون الناس من الوقوع في الآثام والشرور وينهونهم عما يضرهم في دينهم ودنياهم ومخالفة أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم. والصفة الرابعة من صفات المؤمنين أنهم يقيمون الصلاة. والصفة الخامسة أنهم يؤدون الزكاة. والصفة السادسة أنهم ينقادون لأوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم فما أمرهم الله به أو أمرهم به رسوله صلى الله عليه وسلم ائتمروا ومانهاهم عنه انتهوا.

وقوله عز وجل : ﴿ أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم *﴾ الإشارة فيه للمؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات الحميدة. والسين في قوله عز وجل : ﴿ سيرحمهم الله ﴾ للتأكيد والدلالة على أن ذلك مقرر لا محالة ، لأن السين موضوعة للدلالة على الوقوع مع التأخير فإذا كان المقام ليس مقام تأخير لكونه وعداً وبشارة ، فإن السين تتمحض لتأكيد الوقوع. والسين في هذا المقام شبيهة بها في قوله تبارك وتعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزلَ معه أولئك هم المفلحون *﴾. وتذييل هذه الآية بقوله : ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ تأكيد لوعده برحمتهم فإنه يعز من أطاعه لأن العزة لله جميعاً يعز من يشاء ويذل من يشاء وهو الحكيم في قسمته هذه الصفات لهؤلاء المؤمنين وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة و لله الحكمة في جميع ما يفعله وما يأمر به وما ينهى عنه.

وقوله عز وجل : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ الآية ، قال أبو السعود العمادي : هذا تفصيل لآثار رحمته ، والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بعلية وصف الإيمان للوعد المذكور اهـ وفي الجنة من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وأهلها خالدون فيها أبداً لا يريمون منها ولا يتحولون عنها ومساكنهم أي منازلهم طيبة القرار حسنة البناء ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصَّالحين مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَر على قلب بشر . واقرؤوا إن شئتم : ﴿ فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرَّة أعين ﴾.

كما روى البخاري ومسلم عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (موضع سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها).

كما روى البخاري في صحيحه عن أنسٍ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (غَدْوة في سبيل الله أو رَوْحةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ولو أنَّ امرأةً من نساءِ أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضَاءَتْ ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحاً ولنصيفُها على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها).

كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ في الجنةِ شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلِّها مائة عام لا يقطعُها ولَقابُ قوسٍ أحدِكم في الجنةِ خيرٌ ممَّا طلَعتْ عليه الشمسُ أو تغرب).

كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ للمؤمنِ في الجنة لخيمةً من لؤلؤةٍ واحدةٍ مُجَوَّفة، عرضُها - وفي رواية : طولُها - ستُون ميلاً ، في كلِّ زاويةٍ منها أهلٌ ما يرونَ

الآخرينَ ، يطوفُ عليهم المؤمنُ. وجنّتانِ من فضةٍ آنيتُهما ومافيهمـا.[و] جنّتـان من ذهبٍ آنيتُهما وما فيهما. وما بينَ القـومِ وبـينَ أنْ ينظـروا إلى ربِّهـم إلاّ رداءُ الكبرياءِ على وجهِهِ في جنة عدْنٍ).

كـما روى مـسلم عن أنسٍ قال : قال رسـولُ ا لله صلى ا لله عليه وسـلم : (إنَّ في الجنةِ لسُوقاً يأتونَها كلَّ جُمعة فتهبُّ ريحُ الشـمالِ فتحْثـو في وجُوهِهـم وثيابهِم فيزدادونَ حُسناً وجمالاً فيرجعونَ إلى أهليهم وقد ازدادوا حسـناً وجمـالاً فيقول لهم أهلوهُم: وا لله لقدِ ازدَدتم بعدنَا حسناً وجمالاً. فيقولونَ : وأنتـم وا للهِ لقدِ ازددتم بعدَنا حُسناً وجمالاً).

كما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرةَ قال : قال رسولُ ا لله صلـى ا لله عليه وسلم : (إنَّ أولَ زُمرةٍ يدخلونَ الجنةَ على صـورةِ القمـرِ ليلـةَ البـدْرِ ، ثـمَّ الذينَ يلونَهم كأشدّ كوكبٍ دُريّ في السماءِ إضـاءةً قلوبُهـم علـى قلـب رجـلٍ واحدٍ لا اختلافَ بينهم ولا تباغُضَ لكلِّ امريءٍ منهم زوجتانِ من الحـورِ العِين يُرى مُخّ سـوقهما مـن وراءِ العظـمِ واللحـمِ مـن الحسـنِ ، يسبّحونَ ا للهَ بكـرةً وعشيّاً لا يسقمونَ ولا يبولونَ ولا يتغوَّطونَ ولا يتفلونَ ولا يمتخطـونَ ، آنيتُهـم الذهـبُ والفضـةُ ، وأمشـاطُهم الذهـبُ ، ووَقـودُ مجامرِهم الألـوةُ ، ورشـحُهمُ المسكُ ، على خَلْقِ رجلٍ واحدٍ على صورةِ أبيهم آدمَ ستونَ ذراعاً في السماءِ).

كما روى مسلم عن جابر قال : قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم:(إن أهـل الجنّـةِ يـأكلون فيهـا ويشـربون ولا يتفلـون ولا يبولـون ولا يتغَوطـون ولا يمتخطون). قالوا : فما بالُ الطعام ؟ قال : (جُشَـاءٌ ورشـحٌ كرشـحِ المسـكِ ، يُلْهمُونَ التسبيحَ والتحميدَ كما تلهمون النَفَسَ).

كما روى مسلم من حديث أبي هريرةَ قال: قال رسول ا لله صلى ا لله عليه

وسلم : (من يَدْخُلِ الجنَّة ينعَم ولا ييْأس ، ولا تَبْلى ثيابُه ، ولا يفْنى شبابُه).

كما روى مسلم من حديث أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : (يُنادي مُنادٍ : إنَّ لكم أنْ تصِحُّوا فلا تسقَموا أبداً ، وإنَّ لكم أنْ تحيَوا فلا تموتوا أبداً ، وإنَّ لكم أنْ تشِبُّوا فلا تهْرموا أبداً ، وإنَّ لكم أن تنعَموا فلا تبْأسوا أبداً).

كما روى البخاري ومسلم عن أبي سعيدٍ الخدريِّ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ أهلَ الجنةِ يترآءونَ أهلَ الغرفِ من فوقِهم كما تترآءَونَ الكوكبَ الدرِّيّ الغابرَ في الأفقِ من المشرقِ أو المغربِ لتفاضُلِ ما بينَهم) قالوا : يا رسولَ الله : تلكَ منازلُ الأنبياءِ لا يبلغُها غيرهُم. قال : (بَلى والذي نفْسي بيدِه رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلينَ).

كما روى مسلم عن أبي هريرةَ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدخلُ الجنَّةَ أقوامٌ أفئدتُهم مثلُ أفئدةِ الطيرِ).

كما روى مسلم من حديث أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ أدْنى مقعَدِ أحدِكم من الجنةِ أن يقولَ له : تَمَنَّ ؛ فيتمنَّى ، ويتمنَّى. فيقولُ له: هل تمنَّيتَ ؟ فيقول : نعم. فيقول له : فإنَّ لكَ ما تمنَّيتَ ومثلَه معَه).

وقوله عز وجل : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أي ورضا الله عز وجل عن المؤمنين أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك. فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولوا : ومالنا لا نرضى يا ربُّ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟

فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا ربُّ وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك ؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً).

وقوله عز وجل : ﴿ ذلك هو الفوز العظيم *﴾ أي هذه الجنة ونعيمها ورضوان الله على أهلها هو الظفر الأكبر بأعلى درجات الخير والفلاح والنجاة والنجاح.

قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

هذا أمر من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم ببذل الجهد في ردع الكفار والمنافقين والغلظة عليهم حتى يرجعوا إلى الله أو يكفوا شرهم عن الإسلام والمسلمين ، ويتوعد من استمر منهم على كفره أو نفاقه بأن مصيره إلى النار لتكون مأوى له ومنزلاً أبدياً سرمدياً وبئس المصير والمرجع مصيرهم ومرجعهم وقد كرر الله عز وجل هذا الأمر في كتابه الكريم مرتين حيث ذكره هنا وذكره في سورة التحريم حيث قال فيها : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير *﴾

قال تعالى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن

﴿يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ .

هذا تشنيع على المنافقين وإعلان للناس بما تواطأ عليه المنافقون من الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة في غزوة تبوك ، وفضح لما تكلموا به من كلمات الكفر ، وأن ديدنهم إذا سئلوا عما قالوا لجئوا إلى الأيمان الكاذبة الفاجرة. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس. فقال : أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة ؟ قال: فقال له القوم : أخبره إذ سألك ؟ قال : كنا نُخْبَرُ أنهم أربعة عشر فإن كنتَ منهم فقد كان القوم خمسة عشر وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعَذَرَ ثلاثةً. قالوا : ما سمعنا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان في حَرَّة فمشى فقال : إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد فوجد قوماً قد سبقوه فلعنهم يومئذ. وفي لفظ لمسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (في أمتي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط. ثمانية منهم تكفيكهم الدّبَيْلَةُ سراجٌ من نار يظهر في أكتافهم حتى يَنْجُمَ من صدورهم). قال النووي : وهذه العقبة ليست العقبة المشهورة بمنى التي كانت بها بيعة الأنصار وإنما هذه عقبة على طريق تبوك اجتمع المنافقون فيها للغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ. وقد قال البخاري في تفسير قوله عز وجل : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ : حدثنا

إسماعيل بن عبدا لله قال : حدثني إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن موسى بن عقبة قال : حدثني عبدا لله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك يقول : حزنت على من أصيب بالحرّة فكتب إليَّ زيد بن أرقم وبلغه شدةُ حزني يذكر أنه سمع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول : (اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار). وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار فسأل أنساً بعضُ من كان عنده فقال : هو الذي يقول رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : هذا الذي أوفى ا لله له بأذُنه. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح هذا الحديث : تكميل : وقع في رواية الإسماعيلي في آخر هذا الحديث من رواية محمد بن فليح عن موسى بن عقبة قال ابن شهاب : سمع زيد بن أرقم رجلاً من المنافقين يقول والنبي صلى ا لله عليه وسلم يخطب لئن كان هذا صادقاً لنحن شر من الحمير . فقال زيد : قد وا لله صدق ولأنت شر من الحمار. ورفع ذلك إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم فجحده القائل ، فأنزل ا لله على رسوله صلى ا لله عليه وسلم : ﴿ يحلفون با لله ما قالوا ﴾ الآية ، فكان ما أنزل ا لله في هذه الآية تصديقاً لزيد اهـ. وهذا مرسل جيد وكأن البخاري حذفه لكونه على غير شرطه ، ولا مانع من نزول الآيتين في القصتين في تصديق زيد اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وهمّوا بما لم ينالوا ﴾ ، أي وأرادوا الفتك برسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فصان ا لله عز وجل رسوله صلى ا لله عليه وسلم من غدرهم ولم يتحقق لهم ما أرادوا. وقوله عز وجل : ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم ا لله ورسوله من فضله ﴾ أي وما للرسول صلى ا لله عليه وسلم عندهم من ذنب إلا أن جعله ا لله عز وجل سبباً لغناهم بما أفاء ا لله عز وجل ووسع عليهم من الغنائم ، وهذا من أساليب البلاغة المعروف بتأكيد المدح بما

يشبه الذم كقوله عز وجل : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا با لله العزيز الحميد ﴾ وكقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم ا لله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير * ﴾ دعوة لهؤلاء المنافقين ليتوبوا إلى ا لله عز وجل ويرجعوا إليه ويخلصوا دينهم لله. وقد تاب ا لله عز وجل على ثلاثة منهم وعذرهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، وأخبر رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن ثمانية منهم لن يتوب ا لله عليهم ولن يدخلوا الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط كما تقدم قريباً في حديث حذيفة عند مسلم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ومالهم في الأرض من ولى ولا نصير * ﴾ أي ولا يجدون في الأرض أحداً ينجدهم ولا ينصرهم ولا يجلب لهم خيراً ولا يدفع عنهم شراً.

قال تعالى :

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

هذه صورة أخرى من صور المنافقين وديدن يلازمهم وهو سمة من سماتهم

وهو الغدر بالعهد سواء كان هذا العهد مع ا لله عز وجل أو مع أحد من خلقه. وفي هذا المقام بيان بأن بعض هؤلاء المنافقين عاهدوا ا لله عز وجل على أنه إذا أغناهم ووسع عليهم تصدقوا على الفقراء والمساكين وأنفقوا في سبيل ا لله فلما وسّع ا لله عز وجل عليهم غدروا بعهد ا لله فبخلوا بالمال الذي أعطاهم ا لله فلم يتصدقوا على فقير و لم يصيروا صالحين وأعرضوا عن طاعة ا لله وطاعة رسوله صلى ا لله عليه وسلم فجعل ا لله عاقبة فعلهم السيئ نفاقاً ومرضاً ثابتاً متمكناً من قلوبهم لا يفارق قلوبهم إلى يوم يلقون ا لله في الدار الآخرة فلا تنشرح صدورهم للتوبة حتى يموتوا وهم على نفاقهم بسبب هذه الجريمة المنكرة التي ارتكبوها وهي الغدر بعهد ا لله الذي عاهدوه عليه. وفي هذا تحذير شديد من ارتكاب المعاصي مطلقاً وبخاصة الغدر بعهد ا لله وميثاقه لأن المعصية قد تجر المعصية حتى ينطبع على القلب فيعمى تماماً ولا تتسرب إليه أنوار الإيمان. وقد حذّر ا لله عز وجل من الغدر بعهد ا لله وميثاقه حيث يقول : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴾ ويقول عز وجل: ﴿ وأوفوا بعهد ا لله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ الآية ، ويقول عز وجل في وصف أولي الألباب: ﴿ الذين يوفون بعهد ا لله ولا ينقضون الميثاق ﴾ ويقول تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ وقد أعلن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن خلف الوعد والغدر بالعهد من أبرز أمارات النفاق وعلاماته ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال : (آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان) زاد في رواية مسلم : (وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم). كما روى البخاري ومسلم من حديث عبدا لله بن عمرو بن العاص

رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خَصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر).

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين* ﴾ أي ومن المنافقين من أقسم با لله لئن أعطانا الله مالاً ورزقنا من فضله وجوده لنسارعَنَّ إلى البذل في وجوه الخير وأعمال البر ولنحرصن على أفعال الصالحين من عباد الله فنلزم طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في السر والعلن. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ أي فلما أعطاهم الله من فضله ووسع عليهم بخلوا بمال الله فلم ينفقوا منه شيئاً في أبواب الخير و لم يفوا بما عاهدوا الله عليه و لم يكونوا صالحين وأعرضوا عن طاعة الله وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وانغمسوا في ضلالهم وشهواتهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ﴾ الآية أي فجازاهم الله على جريمتهم والغدر بعهدهم مع الله نفاقاً في قلوبهم وأورثهم هذا النفاق متمكناً من نفوسهم حتى يوافوا الله عز وجل يوم القيامة بهذا النفاق الذي يجعلهم في الدرك الأسفل من النار وذلك بسبب إخلافهم العهد الذي عاهدوا الله عليه وبسبب مجانبتهم للصدق وانغماسهم في الكذب. وقوله عز وجل : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب* ﴾ أي أجهلوا أسماء الله الحسنى وصفاته العلى فلم يعرفوا أن الله لا يخفى عليه شيء مما يكنونه في ضمائرهم أو يتناجون به ويتسارونه فيما بينهم وأنه عز وجل يعلم السر وأخفى وأنه ما يكون من

نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا كما قال عز وجل : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم *﴾.

قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

هذا إعلان عن صورة أخرى من صور انتكاس المنافقين واندفاعهم في لمز المسلمين وعيبهم والسخرية منهم حيث ذكر الله عز وجل عنهم أنهم يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات فإن تصدق أحد من المسلمين بمال جزيل قال المنافقون : هذا مُرَاءٍ . وإن جاء أحد من المسلمين بمال يسير على قدر جهده وطاقته قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا. فلم يسلم منهم أحد لا من المكثرين ولا من المقلين ، وجهل هؤلاء أن الإنسان قد يتصدق بشق تمرة فيدفع الله بها النار عن وجهه يوم القيامة. وقد كان من وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتقوا النار ولو بشق تمرة) كما رواه البخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه ، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما أُمِرنا بالصدقة كنا نتحامل فجاء أبو عَقِيل بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه فقال المنافقون : إن الله لغني عن صدقة

هذا ، وما فعل هذا الآخر إلا رياء ، فنزلت : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ الآية. ومعنى قوله في الحديث : كنا نتحامل ، أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة لنتصدق. ومعنى : يلمزون ، يعيبون ويسخرون ويستهزئون. والمراد بالمطوعين هم الذين يتبرعون بالصدقة وهي ليست بواجبة عليهم. وأصل المطوعين المتطوعين ، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : فأدغمت التاء في الطاء وهم الذين يغزون بغير استعانة برزق من سلطان أو غيره . وقوله : ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ معطوف على المطوعين ، وأخطأ من قال: إنه معطوف على ﴿ الذين يلمزون ﴾ لاستلزامه فساد المعنى ، وكذا من قال : معطوف على المؤمنين لأنه يفهم منه أن الذين لا يجدون إلا جهدهم ليسوا بمؤمنين اهـ

ومعنى : ﴿ لا يجدون إلا جهدهم ﴾ أي لا يجدون ما يجودون به إلا بجهد ومشقة على قدر طاقتهم ، ﴿ فيسخرون منهم ﴾ أي فيستهزئ هؤلاء المنافقون من هؤلاء المؤمنين الفقراء الذين يجودون بقدر طاقتهم. وقوله عز وجل:﴿ سخر الله منهم ﴾ أي جازاهم الله عز وجل جزاءً من جنس عملهم ، وهذا نظير قوله عز وجل : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون *﴾ وكما تقدم قريباً في قوله عز وجل : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ وقد ذكرت في تفسير سورة البقرة قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (وأما الاستهزاء والمكر بأن يظهر الإنسان الخير والمراد شر فهذا إذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب محرم ، وأما إذا كان جزاء على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلاً حسناً قال الله تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلَوْا

إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل اهـ. وقوله عز وجل : ﴿ ولهم عذاب أليم *﴾ أي وللمنافقين عقاب مؤلم في الدرك الأسفل من النار .

قال تعالى :

﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

هذا قطع لأطماع المنافقين فيما كانوا يحاولونه من استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم مع علمهم بكفر بواطنهم وإنما أرادوا التمويه على المسلمين بأنهم إذا طلبوا الاستغفار لهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دليلاً على أنهم مسلمون مؤمنون ، كما قال عز وجل : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ فأعلن الله عز وجل هنا أن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه صلى الله عليه وسلم لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم. والأمر في قوله عز وجل : ﴿ استغفر لهم ﴾ معناه الخبر تقديره : أستغفرتَ لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ، فالمقصود التسوية بين الاستغفار وعدمه كما قال عز وجل في سورة المنافقون : ﴿ سواءٌ عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين *﴾ فالاستغفار لهم وعدمه سيان. وقد روى البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إني خُيِّرتُ فاخترت ، لو أني أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها).

وهو إشعار من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن استغفاره للمنافقين لا ينفعهم.

وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين *﴾ تعليل لعدم انتفاعهم باستغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ذلك هو بسبب كفرهم بالله ورسوله وأن الله عز وجل لا يسدد هؤلاء المنافقين ولا يعينهم بسبب كفرهم وفسقهم.

قال تعالى :

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

بيان لحال المنافقين المتخلفين عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومآلهم وأنهم قد امتلأت قلوبهم سروراً وابتهاجاً بتخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومخالفتهم لأمره صلى الله عليه وسلم لهم بالخروج ولو كانت لهم عقول يعرفون بها أسباب سعادتهم لامتلأت نفوسهم حزنا وحسرة ، ولكنهم لانتكاس فطرتهم سروا بما يضرهم وكرهوا ما ينفعهم من الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس و لم يكتفوا بتخاذلهم بل صاروا يخذلون من يتمكنون من تخذيله ويقولون لهم : لا تخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن

الحر شديد حيث كان الخروج إلى غزوة تبوك في شدة الحر فوبخهم الله عز وجل وتوعدهم بعذاب جهنم ، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأمر لا يتنازع فيه اثنان من ذوي العقول وهو المقارنة بين حرارة الصيف التي يعتذرون عن الخروج بسببها وبين حرارة نار جهنم التي أعدت للمتخلفين المخالفين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يبين لهم أن فرحهم وضحكهم لتخلفهم أمده قليل وأن حزنهم وبكاءهم لن ينقطع وهم في نار جهنم. كما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم إذا ردَّه الله إليهم بعد غزوة تبوك وطلبت جماعة من هؤلاء المنافقين من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكونوا في صحبته إذا خرج للغزو مرة أخرى بأن الله عز وجل قد حرمهم من شرف صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغزو وأنهم لن يخرجوا معه صلى الله عليه وسلم أبداً ولن يقاتلوا معه عدواً ، وفي هذا إشارة إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يغزو بعد غزوة تبوك. وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ إلى ما تضمنه قوله عز وجل في سورة الفتح : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب سَتُدْعَوْن إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ﴾ الآية من أن الله عز وجل قد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر هؤلاء الأعراب بأن الله سيتيح لهم فرصة الغزو في سبيل الله وسيدعوهم ولي أمر المسلمين - وهو أبو بكر رضي الله عنه - لقتال قوم أشداء فإن يطيعوا هذا الداعي يسعدوا وإن يتولوا عنه كما تولوا عن رسوله صلى الله عليه وسلم يشقوا.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾

أي سُرَّ هؤلاء المنافقون بمخالفتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دعاهم إلى الخروج إلى تبوك وقعودهم مع نسائهم وذراريهم مشاقين رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴾ أي وأبغضوا الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وقالوا لا تنفروا في الحر ﴾ أي وقال بعضهم لبعض : لا تخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تذهبوا معه إلى تبوك لأن الحر شديد. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ قل نار جهنم أشد حراً ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين : نار جهنم التي تصيرون إليها بمخالفتكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى حراً مما فررتم منه من الحر بل هي أشد حراً من النار التي توقدونها وتطبخون عليها إذ نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ، فقال : فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءاً). كما روى البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً). كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أدنى أهل النار عذاباً ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه).

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لو كانوا يفقهون ﴾ أي لو كانوا يفهمون

ويعقلون ذلك ما تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فلْيضحكوا قليلاً ولْيبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون* ﴾ قال ابن الجوزي : قوله تعالى : ﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه التهديد اهـ أي فليس أمراً بالضحك ولا بالبكاء أي إنهم سيضحكون قليلاً ولو ضحكوا بقية عمرهم فهو قليل بالنسبة إلى ما سيلقونه من عذاب النار وهو لا ينقطع أبداً وسيبكون كثيرا في نار جهنم حيث لا ينتهي حزنهم فيها بما اقترفوا من النفاق والمعاصي وقد كان بعض السلف لا يكاد يضحك ، وقد قال بعض الشعراء :

تقول مالك لم تضحك وقد نظرت ... عيناك مُضحِكَ ثكلى ذات أفكار

فقلت يمنع ضحكي جهل عاقبتي ... وإنما يضحك الناجي من النار

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط ، فقال: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً) فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم ولهم خنين. وفي رواية بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحابه شيء فخطب فقال : (عرضت عليّ الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً) ، فما أتى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أشدُّ منه ، غَطَّوْا رءوسهم ولهم خَنين. قال النووي رحمه الله : (الخنين بالخاء المعجمة هو البكاء مع غُنَّة وانتشاق الصوت من الأنف).

وقوله عز وجل : ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا مَعِي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين* ﴾ أي فإن ردّك الله من تبوك إلى جماعة من المنافقين

المتخلفين في المدينة وأعلنوا لك استعدادهم للخروج معك مستقبلاً في الغزو فقل لهم : لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً فقد ضيعتم على أنفسكم شرف الغزو معي حيث رضيتم بالقعود أول مرة أي عندما دعوتكم للخروج معي إلى تبوك فاقعدوا مع الخالفين أي الفاسدين. يقال : فلان خالفة أهله إذا كان فاسداً فيهم ، كما يقال : خلف اللبن أي فسد بطول المكث في السقاء. كما وبخهم مرة أخرى فقال : ﴿ رَضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ أي النساء ورجع في قوله عز وجل : ﴿ فإن رجعك الله ﴾ هي المتعدية ومصدرها الرجْع ومضارعها يرجَع بفتح الجيم بخلاف رجع اللازم كما تقول : رجعت إلى المسجد فإن مصدرها الرجوع ومضارعها بكسر الجيم.

وقد أشار الله تبارك وتعالى في سورة الفتح إلى تحريم خروج المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا * ﴾ ولعل المراد بقوله عز وجل : ﴿ كذلكم قال الله من قبل ﴾ هو قوله عز وجل في هذا المقام من سورة التوبة : ﴿ قل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ وسورة الفتح وان كانت نزلت بعد صلح الحديبية مباشرة فإنه لا مانع من أن تكون هذه الآية منها قد نزلت بعد غزوة تبوك لما علم من أن بعض الآيات من بعض السور قد يتأخر نزولها عن السورة زمناً طويلاً حيث لا يختلف أهل العلم بأن سورة المزمل من أول السور نزولاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صدر سورة العلق وسورة المدثر ومع ذلك فإن الآية الأخيرة من سورة المزمل قد نزلت بالمدينة لقوله عز وجل فيها : ﴿ وآخرون يقاتلون في

سبيل الله ﴾ وقد أجمع المسلمون على أن القتال لم يشرع إلا بالمدينة. وليس قولهم للمؤمنين : ذرونا نتبعكم هو توبة من تخلفهم عن تبوك وإنما هو تأكيد لجشعهم وحرصهم على الغنيمة إذا كانت سهلة المأخذ.

قال تعالى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ .

هذا نهي عن الصلاة على المنافقين والكافرين وتحذير من القيام على قبورهم عند الدفن وإن كان سبب نزول هذه الآية في شأن الصلاة على عدو الله رأس المنافقين عبدالله بن أبي ابن سلول لعنه الله وقد كان من المثبطين عن الخروج إلى تبوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من الذين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك إلى المدينة أصيب عدو الله عبدالله بن أبي بمرض استمر عشرين يوما كان ابتداؤها من ليالي بقيت من شوال وتوفي في ذي القعدة من السنة التاسعة للهجرة ، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : لما توفي عبدالله بن أُبَي جاء ابنه عبدالله ابن عبدالله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يُكَفِّنُ فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟ فقال رسول الله صلى

ا الله عليه وسلم : إنما خَيَّرني ا الله فقال : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ وسأزيده على السبعين. قال: إنه منافق. قال : فصلى رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم فأنزل ا الله : ﴿ ولاتصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ﴾. ومعنى قوله في الحديث : (وقد نهاك ربك أن تصلي عليه) أي نهاك ربك أن تدعو له وتستغفر له كما جاء بهذا اللفظ في الرواية الثانية عن ابن عمر رضي ا الله عنهما حيث قال : وقد نهاك ا الله أن تستغفر لهم وهذا لابد منه لأن النهي عن الصلاة على المنافقين لم ينزل إلا بعد الصلاة على عبدا الله بن أبي. كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عمر بن الخطاب رضي ا الله عنه قال : (لما مات عبدا الله بن أبي ابن سَلُول دُعِيَ له رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم ليصلي عليه فلما قام رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم وَثَبْتُ إليه فقلت يا رسول ا الله أتصلي على ابن أُبَي وقد قال يوم كذا : كذا وكذا ؟ قال : أُعَدِّدُ عليه قوله. فتبسم رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم وقال : أَخرّ عني يا عمر . فلما أكثرت عليه قال : إني خُيِّرتُ فاخترت ، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها. قال : فصلى عليه رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآية من براءة : ﴿ ولاتصل على أحد منهم مات أبداً ﴾ إلى قوله : ﴿ وهم فاسقون *﴾ قال : فعجبت بعد من جُرأتي على رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم ، وا الله ورسوله أعلم. كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ لمسلم من حديث جابررضي ا الله عنه قال: أتى النبي صلى ا الله عليه وسلم قبر عبدا الله بن أبي فأخرجه من قبره فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه اهـ ولا شك أن هذا العمل من رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم كان سياسة

شرعية لتطييب قلب ولده عبدا لله بن عبدا لله بن أبي كما أن فيه إشارة إلى أن قميص رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وريقه لا ينفع من مات على غير الإسلام.

قال تعالى :

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

هذا تأكيد لقوله عز وجل في الآية الخامسة والخمسين من هذه السورة المباركة حيث قال عز وجل : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد ا لله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون *﴾ فهاتان الآيتان من المتشابه المثاني الذي ذكره ا لله عز وجل بقوله : ﴿ ا لله نَزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ وليس هذا تكريراً مجرداً بل كل آية من الآيتين قد اشتملت على إشارات بلاغية تنبه إلى إعجاز القرآن حيث اقترنت جملها بحروف تناسب مقام كل واحدة من الآيتين وتنادي ببلاغته وأنها في الذروة في مقامها التي سيقت فيه ، فقد قال في الآية الأولى : ﴿ فلا تعجبك ﴾ بالفاء وقال هنا : ﴿ ولا تعجبك ﴾ بالواو والفرق بينهما أنه عطف الآية الأولى على قوله: ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كارهون*﴾ وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق لشدة المحبة للأموال والأولاد فحسن العطف عليه بالفاء في قوله : ﴿ فلا تعجبك ﴾ وأما في هذه الآية فليس في الآية التي قبلها ذكر للإنفاق فكانت مستأنفة لا تناسبها الفاء وإنما يناسبها الواو التي للاستئناف. وقال تعالى في الأولى : ﴿ فلا تعجبك

أموالهم ولا أولادهم ﴾ وأسقط حرف (لا) هنا فقال : ﴿ وأولادهم ﴾ والسبب أن حرف (لا) دخل في الآية لزيادة التأكيد ليدل على أنهم كانوا معجبين بالأموال والأولاد وإعجابهم بالأولاد أكثر وفي إسقاط حرف (لا) هنا إشعار بتساويهما وعدم الفرق بينهما حيث اختلفت الحالتان. وقال تعالى في الآية الأولى : ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم ﴾ بحرف اللام وقال هنا : ﴿ إنما يريد الله أن يعذبهم ﴾ بحرف (أن) لأن جرسها أنسب في هذا المقام ، ولاشك أن اللام و (أن) يتعادلان فتأتي إحداهما مكان الأخرى ، كما قال عز وجل : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله ﴾ ومعناه وما أمروا إلا أن يعبدوا الله. وكما قال عز وجل : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ وقال : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾. وقال تعالى في الآية الأولى : ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ وقال هنا ﴿ في الدنيا ﴾ فهذه التصاريف البلاغية تلفت الانتباه إلى أن هذا القرآن العظيم قد أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

قال تعالى :

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٩٠) لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٩١) وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾ .

هذا بيان لأخلاق حزب الشيطان من المنافقين وأخلاق حزب الرحمن من المؤمنين يوضح فيه نكوص المنافقين عن الجهاد في سبيل الله وأنهم إذا دُعُوا إلى الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم للجهاد سارعوا إلى الاعتذار بالأعذار الكاذبة والاستئذان في القعود خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن حزب الرحمن يسارعون إلى الجهاد في سبيل الله ويبذلون أموالهم وكل نفيس لديهم فأعد الله لهم الخيرات والنعيم المقيم في جنات النعيم ، وأشار عز وجل إلى أنه لا يقعد عن الجهاد لغير عذر إلا الذين كذبوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعرض عز وجل صورة مشرقة للمؤمنين العاجزين عن الجهاد لعدم قدرتهم على السفر بسبب عدم وجود ما يحملهم إلى أرض الجهاد وأنهم لما جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملهم وقال لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقونه ويعينهم على الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين *﴾ أي وإذا أنزل الله عز وجل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم سورة يأمر فيها

المنافقين بالإيمان با لله والجهاد مع رسوله صلى ا لله عليه وسلم ودعاهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إلى الخروج معه في الغَزْوِ سارع أغنياء المنافقين وهم أولوا الطول منهم القادرون على القتال بأموالهم وأنفسهم واستأذنوا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في التخلف وقالوا اتركنا وَأذَنْ لنا في القعود مع نسائنا وذرارينا ، وهذا شبيه بقوله عز وجل : ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلتْ سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نَظَر المغشِيِّ عليه من الموت فَأَوْلَى لهم * طاعةٌ وقولٌ معروف فإذا عَزَمَ الأمرُ فَلَوْ صَدَقُوا ا لله لكان خيرا لهم *﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿ ينظرون إليك نظر المغشيِّ عليه من الموت ﴾ إعلان بأنهم بلغوا الغاية في الجبن والهلع فهم إذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس وإذا لم تكن حرب كانوا أكثر الناس كلاما وأطولهم ألسنة كما قال عز وجل : ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغْشَى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾ وهم كما قال الشاعر:

أفي السلم أعياراً جفاءً وغلظةً وفي الحرب أشباه النساء الفوارك

ومعنى قوله عز وجل: ﴿ رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالف وطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يفقهون*﴾ أي أحب هؤلاء المنافقون لأنفسهم أن تنحط رجولتهم وأن يرضوا بأن يكونوا كالنساء وقد جلبت لهم هذه المعاصي انطماس ضمائرهم فختم ا لله على قلوبهم فلا يفقهون شيئاً ولا يعقلون أسباب السعادة ولا أسباب الشقاوة. وقوله عز وجل : ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون * أعد ا لله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم *﴾ بعد ذم المنافقين على

نكولهم وتخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاهم بأخس صفات الرجولة شرع في الثناء على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين الذين يسارعون إلى الجهاد ويبذلون أموالهم وأنفسهم ووعدهم عز وجل بالخيرات وهي منافع الدارين من النصر والغنيمة في الدنيا والقرار في الفردوس الأعلى وجنات النعيم وأنهم هم الفائزون وأنه أعدّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار يخلدون فيها لا يريمون منها ولا يتحولون عنها وأنهم لذلك فازوا فوزاً عظيماً ونجحوا نجاحاً كبيراً ، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ بيان بأن الأعراب الذين كانوا يسكنون حول المدينة لم يكونوا سواء فمنهم من جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دعا للخروج لغزو الروم في تبوك فبالغ في الاعتذار ليتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من لم يجئ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكشف نفاقه وظهر انه مكذب بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وتوعد الله الذين أجرموا منهم فقال : ﴿ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم *﴾ أي سيقع بالكافرين منهم عذاب أليم وعقاب موجع. وفي قوله عز وجل ﴿ منهم ﴾ إشعار بأن بعض المعذرين تخلف كسلاً وبعضهم تخلف كفراً أما من قعد عن المجيء والاعتذار فقد نص الله عز وجل هنا على أنهم كانوا كافرين مكذبين بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم كاذبين في دعواهم أنهم مؤمنون بالله وبرسوله صلى اله عليه وسلم.

وقوله عز وجل : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله

غفور رحيم * ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألاّ يجدوا ما ينفقون ﴾ بيان بأصحاب الأعذار المقبولة التي تبيح لأصحابها التخلف ولا حرج عليهم ، بل قد يشركهم الله عز وجل في أجر الغزاة والمجاهدين. فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (إن أقواماً خَلْفَنَا بالمدينة ما سلكنا شِعْباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العُذْرُ). كما روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال : (إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرا، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم، حبسهم المرض. وفي رواية : إلا شَرِكُوكُم في الأجر). قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال فذكر منها ما هو ملازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد ومنه العمى والعرج ونحوهما ولهذا بدأ به. ومنها ما هو عارض بسبب مرض عَنَّ له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم وهم محسنون في حالهم هذا ولهذا قال : ﴿ ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم *﴾ اهـ

وقوله عز وجل : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ الآية . أي ولا حرج على الذين إذا ما جاءوك ليطلبوا منك أن تحملهم معك إلى غزوة تبوك وقلت لهم : لا أجد ما أحملكم عليه فانصرفوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون. وقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق أبي بردة

عن أبي موسى قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله لهم الحُمْلان إذْ هم معه في جيش العسرة (وهي غزوة تبوك) فقلت: يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم. فقال : والله لا أحملكم على شيء ، ووافقته وهو غضبان ولا أشعر . فرجعت حزيناً من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن مخافة أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجد في نفسه عليَّ. فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ألبث إلا سُوَيعَة إذ سمعت بلالاً ينادي : أي عبد الله بن قيس ، فأجبته. فقال : أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك. فلما أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خذ هذين القرينين وهذين القرينين وهذين القرينين لستة أبعرة (ابتاعهن حينئذ من سعد) فانطلق بهن إلى أصحابك فقل إن الله (أو قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم) يحملكم على هؤلاء فاركبوهن. قال أبو موسى : فانطلقت إلى أصحابي بهن فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملكم على هؤلاء ، ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألته لكم ، ومَنَعَهُ في أول مرة ثم إعطاءه إياي بعد ذلك ، لا تظنوا أني حدثتكم شيئاً لم يقله ، فقالوا لي : إنك عندنا لَمُصَدَّقٌ ، ولنفعلَنَّ ما أحببتَ. فانطلق أبو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنعه إياهم ثم إعطاءهم بعدُ فحدثوهم بما حدثهم به أبو موسى سواء. وفى رواية للبخاري ومسلم واللفظ لمسلم : فلما انطلقنا قال بعضنا لبعض: أغفلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمينه. لا يبارك لنا. فرجعنا إليه فقلنا : يا رسول الله ، إنا أتيناك نستحملك وإنك حلفت أن لا تحملنا ثم

حملتنا، أفنسيت يا رسول الله ؟ قال : إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها فانطلقوا فإنما حملكم الله عز وجل.

قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

بعد أن بين الله عز وجل أنه لا لوم ولا عقوبة ولا سبيل للمؤاخذة على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم ووصفهم عز وجل بأنهم محسنون في حالهم هذا ، ردَّ الملامة والمؤاخذة على الذين يستأذنون في القعود خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أهل غنى وطول وسعة وقدرة وانحطت أخلاقهم وأساءوا حيث رضوا بأن يجلسوا مع الخوالف من النساء في البيوت ويتركوا الغزو فختم الله على قلوبهم بما اكتسبوا من المعاصي والذنوب

فهم قد جهلوا سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة ، وأنهم جبناء رعاديد يعتمدون في الدفاع عن أنفسهم على الكذب واختلاق المعاذير وتأكيد كذبهم بالأيمان الكاذبة الفاجرة ، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن لا يقبلوا اعتذارهم ويخبروهم بأن الله عز وجل كشف سرهم وفضح أمرهم ، وسيرى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عملهم فيما يستقبلون من الأيام هل يتوبون إلى الله ويذكرون ويرجعون عن نفاقهم أو يستمرون على ضلالهم وغيهم وأنهم لابد ميتون مفارقون لهذه الحياة الدنيا موقوفون بين يدي عالم الغيب والشهادة الذي يعلم السر والعلانية ولا تخفى عليه خافية فيوبخهم على ما اقترفوا من الكفر والنفاق ويجازيهم على ما اكتسبوا أسوأ الجزاء في نار الجحيم ثم أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين قبل رجوعهم من تبوك بأن هؤلاء المنافقين سيسارعون إلى الحلف بالأيمان الكاذبة لتكفوا عن تأنيبهم إذا رجعتم إليهم ويأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يعرضوا عنهم فلا يؤنبوهم لعل ترك تأنيبهم بعد إخبارهم بسوء أعمالهم يؤثر في نفوس بعضهم فيتوبون إلى الله ويؤمنون بالله ورسوله وينخرطون في سلك المؤمنين ظاهراً وباطناً ، ولاشك أن هذا الأسلوب التربوي قد أثر في نفوس الكثيرين منهم فدخلوا في دين الله ولم يستمر على نفاقه إلا اثنا عشر رجلا منهم.

ومعنى قوله عز وجل: ﴿ إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء *﴾ أي إنما الملامة والمؤاخذة على الذين يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأذن لهم في القعود من الغزو وهم أهل غنى وطول وسعة وقدرة بدنية على الغزو . وقوله عز وجل : ﴿ إنما ﴾ للمبالغة في التأكيد لا لإفادة الحصر ، فمن ارتكب حداً من حدود الله أو معصية توجب التعزير من المنافقين أو غيرهم من

المؤمنين استحق المؤاخذة وعوقب بما شرع الله عز وجل لمؤاخذته من العقوبة. وقوله عز وجل : ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون* ﴾ هو شبيه بالآية السابعة والثمانين من هذه السورة ، غير أنه في هذا المقام جعله جزء آية ، وفي الآية السابعة والثمانين جعله آية كاملة. كما أنه في المقام الأول قال : ﴿ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ وفى هذا المقام قال : ﴿ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون * ﴾ وهذا لون من التصريف البلاغي فحذف الفاعل في المقام الأول وبنى الفعل لما لم يسم فاعله ، وفي المقام الثاني سمى الفاعل فبنى الفعل لما سمى فاعله. وفي المقام الأول قال : ﴿ فهم لا يفقهون* ﴾ فسلب منهم الفقه والفهم وفى المقام الثاني سلب منهم العلم ، وهذا شبيه بقوله عز وجل في سورة (المنافقون) : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا و لله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل و لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون * ﴾ فنفى عنهم الفقه أولا ثم نفى عنهم العلم ثانياً ، ولاشك أنه لو نفى العلم أولاً لم يكن لنفي الفقه بعد ذلك معنى ، لأن نفي العلم يقتضي نفي الفقه بخلاف نفي الفقه فإنه لا يقتضي نفي العلم فمن انتفى عنه العلم التحق بالدواب والأنعام وخرج من سلك أهل الإدراك والعقل الإنساني.

وقوله عز وجل : ﴿ قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم ﴾ بتوجيه الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم : لا تعتذروا لن نؤمن لكم ، مع أن صدر الآية كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين حيث كانوا يعتذرون له صلى الله عليه وسلم ولأصحابه لكنه لما كان الجواب من وظيفته

هو صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ قل لا تعتذروا ﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ أي لن نصدقكم على ما تقولون فقد أخبرنا الله عز وجل من أخباركم وأعلمنا بحقيقة أمركم وما كَنَّتهُ صدوركم. والتعبير بمن في قوله عز وجل : ﴿ من أخباركم ﴾ لأن دأب الكرام إذا عاتبوا لا يستقصون. كما أشار إلى ذلك قوله عز وجل في سورة التحريم : ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعض ﴾. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ هو دعوة المنافقين إلى التوبة إلى الله وإخلاص العمل لله وحده مع التهديد بفضحهم إذا استمروا على نفاقهم ثم مردهم إلى الله عز وجل ووقوفهم بين يديه يوم القيامة. ومعنى ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون *﴾ أي فيخبركم بما أعلنتم وأسررتم من أعمالكم فيجازيكم بما عملتم ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره*﴾.

وقوله عز وجل : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون *﴾ إلى : ﴿ الفاسقين ﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم إنهم رجس أي خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم ومأواهم في آخرتهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون أي من الآثام والخطايا ، وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله فإن الفسق هو الخروج ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها

من جحرها للإفساد ويقال : فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها اهـ وقد قال البخاري في صحيحه في تفسير سورة التوبة : باب قوله : ﴿ سيحلفون با لله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ حدثنا يحي حدثنا الليث عن عُقيل عن ابن شهاب عن عبدالرحمن بن عبدا لله أن عبدا لله بن كعب بن مالك قال : سمعت كعب بن مالك حين تخلف عن تبوك : وا لله ما أنعم ا لله عليَّ من نعمة بعد إذ هداني أعظم من صدقي رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن لا أكونَ كَذَبْتُهُ فأَهْلِكَ كما هلك الذين كذبوا حين أُنْزِلَ الوحي : ﴿ سيحلفون بـا لله لكم إذا انقلبتم إليهم ﴾ إلى ﴿ الفاسقين ﴾ اهـ

قال تعالى :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

هذا بيان بتفاوت الناس في الكفر والنفاق ، وأن الأعراب هم أشد الناس كفراً ونفاقاً وأقلهم معرفة بالعلوم الشرعية المنزلة من ا لله عز وجل على رسوله محمد صلى ا لله عليه وسلم. والأعراب هم سكان البادية والعرب هم المتكلمون

باللغة العربية سواء كانوا من سكان البادية أو الحاضرة. قال في المصباح : وأما الأعراب بالفتح فأهل البدو من العرب ، الواحد أعرابي بالفتح أيضا وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتياد للكلأ ، وزاد الأزهري فقال : سواء كان من العرب أو من مواليهم فمن نزل البادية وجاور البادين وظعن بظعنهم فهم أعراب ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء اهـ وقال في مختار الصحاح: البدو : البادية وهي ضد الحاضرة اهـ.

والمقصود من قوله عز وجل : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ﴾ الآية يعني جنس الأعراب لا كل الأعراب لقوله عز وجل بعد ذلك : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن با لله واليوم الآخر ﴾ الآية. وقد أخبر ا لله تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين . وقال أبو السعود العمادي في تفسيره : ﴿ أشد كفراً ونفاقاً ﴾ من أهل الحضر لجفائهم وقسوة قلوبهم وتوحشهم ونشأتهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم ، وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما في قوله تعالى : ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ إذ ليس كلهم كما ذكر على ما ستحيط به خبراً اهـ. ولا شك أن الأصل في الأعراب هو التنقل والارتحال طلباً للمراعي والتماساً للعشب لرعي مواشيهم ، أما من استقر منهم في مكان لا يرتحل منه وتقرى فيه وصار ذا جماعة في هذا المكان فإن اسم الأعرابية يزول عنه لزوال سببه كما فعل الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود رحمه ا لله حين جعل للبادية هِجَراً يسكنونها وابتنى لهم أبناؤه المساجد والمدارس واجتمعوا فيها بالعلماء ، فقد أصبحوا من سكان القرى لا من أهل البادية.

ومعنى قوله عـز وجـل : ﴿ وأجـدر ألا يعلمـوا حـدود مـا أنـزل ا لله علـى رسوله ﴾ أي أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله صلـى ا لله عليـه وسلم. وتذييل الآية بقوله : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ للتأكيد على علمه وحكمته في تقسيم الأرزاق بين الناس في العلم والجهـل والإيمـان والكفـر والنفـاق واللـين والشدة. وليس لقائل أن يقول : إذا كان الأعـراب جـاهلين بمـا أنـزل ا لله علـى رسوله صلى ا لله عليه وسلم فكيف يصح الاحتجاج بألفاظهم من شـعر ونـثر ، فإن الجواب هو أن العلمـاء لا يحتجـون بلغتهـم في بيـان الأحكـام الشـرعية بـل يحتجون بألفاظهم في بيـان معـاني الألفـاظ ، لأن القـرآن نـزل بلغتهـم وكذلـك حديث رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم كان بلسانهم.

وقوله عز وجل : ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمـاً ويـتربص بكـم الدوائر ﴾ أي ومن أهل البادية منافقون يعتبرون نفقتهم الـتي ينفقونهـا في جهـاد الكفار أو في معونة المسلمين أو في بعض ما ندب ا لله عباده إليه مغرما أي غرامة لا يرجون لها ثواباً ولا يدفعون بها عن وجوههم يوم القيامة عقاباً لكفرهم با لله ورسوله ، بل يعتبرون ذلك خسـراناً وهلاكـاً للأمـوال مشـتق مـن الغـرام وهـو الهلاك ومنه قوله عز وجل : ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ ويتربص بكم الدوائـر ﴾ أي وينتظـر أن تحـل بكـم الدوائـر وتنقلـب عليكـم الأيام فيتخلصوا منكم. والدوائر جمع دائرة وهي ما يحيط بالإنسـان مـن مصيبـة ونكبة وأصلها ما يحيط بالشيء مطلقاً.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ عليهم دائرة السَّوء ﴾ هي جملة معترضـة للدعـاء على هؤلاء الأعراب المنافقين المتربصين دوائر السوء بالمؤمنين ، أي أحاطت بهـم وانقلبت عليهم الأيام ودار عليهم العذاب والهلاك لا عليكم أيها المؤمنـون فـأنتم

أنصار ا لله وأنصار رسوله صلى ا لله عليه وسلم وأنتم جند ا لله وقد وعد ا لله جنده بالنصر كما قال عز وجل : ﴿ إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون *﴾. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن با لله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند ا لله وصلوات الرسول ألاَ إنها قربة لهم سيدخلهم ا لله في رحمته إن ا لله غفور رحيم *﴾ بيان بأن الأعراب ليسوا سواء، فمنهم المنافق ومنهم المؤمن المستجيب لله ولرسوله صلى ا لله عليه وسلم ، ولما بيّن فريق المنافقين من الأعراب ، ذكر فريق المؤمنين منهم. ومعنى قوله عز وجل ﴿ ومن الأعراب من يؤمن با لله واليوم الآخر ﴾ الآية أي ومن أهل البادية من يؤمن با لله واليوم الآخر ويَعُدُّ ما ينفق في سبيل ا لله وجهاد أعدائه ومعونة المسلمين قربة يتقرب بها إلى ا لله عز وجل رجاء أن يدفع ا لله بها النار عن وجهه يوم القيامة ورجاء دعوات رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم حيث كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إذا جاءه أحد بصدقة ينفقها في سبيل ا لله دعا له بخير واستغفر له ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبدا لله بن أبي أوفى قال : (كان النبي صلى ا لله عليه وسلم إذا أُتِي بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال : اللهم صل على آل أبي أوفى). وكما سيأتي في قوله عز وجل : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ألا إنها قربة لهم سيدخلهم ا لله في رحمته ﴾ الآية أي ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿ سيدخلهم ا لله في رحمته إن ا لله غفور رحيم *﴾.

قال تعالى :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل ما تميز به جنس الأعراب من شدتهم في كفرهم ونفاقهم وجهلهم بما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر فريقاً من منافقي الأعراب ثم ذكر فريقا من مؤمني الأعراب وما وعد الله به من إدخالهم في رحمته ، ذكر هنا فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان سواء كانوا من أهل البادية كأبي ذر الغفاري الذي كان يسكن البادية قبل هجرته ثم هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كانوا من سكان الحاضرة من أهل مكة وأهل المدينة وأهل الطائف وغيرهم من سكان القرى والريف والمدن. وقد ذكر الله عز وجل هنا أنه رضي عنهم ورضوا عنه ووعدهم بجنات تجري تحتها الأنهار يسكنون فيها أبداً لا يريمون منها ولا يتحولون عنها وأنهم فازوا الفوز العظيم. والمراد بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم من هاجر الهجرتين أو صلى للقبلتين أو شهد بدراً أو شهد بيعة الرضوان في الحديبية. وأفضل السابقين على الإطلاق أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وقد سأل الشعبي ابن عباس رضي الله عنهما عن أول الناس إسلاماً فقال : أبو بكر ، أوَ ما سمعت قول حسان رضي الله عنه :

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة   فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خـير البـرية أتقـاها وأعـد لـها بعـد النبي وأوفـاها بما حـملا

الثـاني التـالي المحـمود مـشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا

ثم بقية الخلفاء الأربعة ثم العشرة المبشرون بالجنة ثم البدريون ثم أصحاب غزوة أحد ثم أهل بيعة الرضوان. وقد بين الله عز وجل فضل من أنفق مـن قبـل فتـح مكة وقاتل فقال عز وجل : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبـل الفتـح وقـاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا مـن بعـد وقـاتلوا وكـلاً وعـد الله الحسـنى والله بما تعملون خبير *﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ والذيـن اتبعوهـم بإحسـان ﴾ أي والذيـن اتبعـوا السابقين الأولين بإحسان ونهجوا منهجهم وأحبـوا جميـع أصحـاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهـم أجمعـين. وقـد أكـد الله عـز وجـل مـا تضمنته هذه الآية في مواضع من كتابه الكريم حيـث قـال عـز وجـل في سـورة الحشر : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغـون فضـلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصـادقون * والذيـن تبـوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجـدون في صدورهـم حاجـة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهـم خصاصـة ومـن يُـوقَ شُـحَّ نفسـه فـأولئك هـم المفلحـون * والذيـن جـاءوا مـن بعدهـم يقولـون ربنـا اغفـر لنـا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذيـن آمنـوا ربنـا إنـك رءوف رحيم *﴾ . فقوله عز وجـل : ﴿ والذيـن اتبعوهـم بإحسـان ﴾ يشـمل كل من جاء بعد السابقين الأولـين مـن المهـاجرين والأنصـار ونهجـوا منهجهـم وسلكوا سبيلهم واستغفروا لهم وأحبوهـم مـن قلوبهـم ، وهـو شبيه بقولـه عـز وجل: ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم *﴾ وقـد أعمـى الله

بصائر أهل الأهواء الذين يسبون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاسيما الشيخين الجليلين وزيري رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ويسبون ذا النورين عثمان بن عفان رضي الله عنهما علماً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وقف على جبل أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فرجف بهم فضربه برجله وقال : (اثبت أحد فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيدان) كما رواه البخاري. وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سب أحد من أصحابه فقال كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيبه). لكن أهل الأهواء انعكست عقولهم وانتكست قلوبهم فصاروا يتلذذون بسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر أن رجلاً من أهل الأهواء طعن في بعض أصحاب رسول الله بحضرة أحد علماء السلف فقال له : ادن مني . فدنا منه ، فقال له : هل أنت من المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ؟ فقال هذا المنحرف عن الدين الحق : لا. فقال له الشيخ : هل أنت من الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ؟ قال : لا. فقال له الشيخ : وأنا أقسم بالله أنك لست على منهج الذين جاءوا من بعدهم لأنهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا وأنت تسبهم وتلعنهم وقد امتلأ قلبك غِلاً عليهم.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ أي أحبهم الله عز وجل وأحبوا الله عز وجل. وقوله عز وجل : ﴿ وأعد لهم جنات تجري

تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم *﴾ قد لوحظ أن الله تبارك وتعالى وصف الجنات في سورة التوبة فقال في الآية الثانية والسبعين : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ ولم يقل : ﴿ أبداً ﴾ ، ثم ذيل الآية بقوله : ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ فجاء بلفظ (من) قبل (تحتها) وجاء بالضمير المؤكد بعد قوله : (ذلك). كما ذكر وصف الجنة في الآية التاسعة والثمانين فقال : ﴿ أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم *﴾ فأتى بكلمة (من) قبل (تحتها) ولم يأت بالضمير بعد قوله : (ذلك) فقال : ﴿ ذلك الفوز العظيم *﴾ وقال في هذا المقام من سورة التوبة : ﴿ وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم *﴾ فلم يأت بكلمة (من) قبل قوله : (تحتها) وجاء بكلمة : (أبداً) بعد قوله : (خالدين فيها). وقال تبارك وتعالى في الآية الحادية عشرة بعد المائة : ﴿ وذلك هو الفوز العظيم *﴾ فقال : (وذلك) وجاء بالضمير المؤكد فقال : ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ كما لوحظ أن كلمة : (من) لم تحذف مع قوله : (تحتها) في أي مقام آخر من القرآن الكريم غير هذا المقام كما أنه جاء في ثلاثة مقامات فقط قوله : ﴿ من تحتهم الأنهار ﴾ أحدها في سورة يونس عند قوله عز وجل : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم *﴾ وثانيها في الآية الثالثة والأربعين من سورة الأعراف عند قوله عز وجل : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار ﴾ الآية ، وثالثها في سورة الكهف عند قوله عز وجل : ﴿ أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها

على الأرائك ﴾ الآية ، وأعاد الضمير في هذه المقامات الثلاث لأهل الجنة ، أما سائر المقامات الأخرى فقد أعاد الضمير فيها إلى الجنة فقال : (تحتها) أو (من تحتها) وهذا كله من المتشابه المثاني الذي بلغ الذروة في البلاغة وأعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

قال تعالى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) ﴾ .

بعد أن بيّن عز وجل أحوال الأعراب مطلقاً وما تميزوا به عن سكان الحاضرة ، وذكر أن منهم منافقين وأن منهم صالحين ، وأتبع ذلك بذكر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بما يشمل من آمن من الحاضرة والبادية، شرع هنا في بيان منافقي المدينة ومن حولها من الأعراب. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ﴾ أي ومن أحياء العرب القريبة من مدينتكم النبوية من كل جهاتها بعض الأعراب المنافقين وبعض أهل المدينة منافقون أيضاً. ومعنى قوله عز وجل:﴿ مردوا على النفاق ﴾ أي تمرسوا فيه وأتقنوه حيث يتمكنون من إخفاء نفاقهم. ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ أي لا تعرفهم يا محمد نحن نعلمهم ، وهذا كان قبل أن يعرّفه الله عز وجل بهم كما قال عز وجل في سورة محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله

أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم *﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم *﴾ أي سينزل الله بهم عذاباً بعد عذاب ثم يساقون إلى عذاب عظيم في نار جهنم.

قال تعالى :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾ .

لما بيّن عز وجل حال المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك من الحاضرة والبادية وحذّر من المنافقين المتمرسين في النفاق من أهل المدينة وممن حولها من الأعراب ، شرع في بيان من تأخر عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم بالله وتصديقهم برسوله صلى الله عليه وسلم فقال عز وجل : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم *﴾ قال البخاري في صحيحه : باب قوله : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم*﴾ حدثنا مُؤَمِّلٌ هو ابن هشام حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا عوف حدثنا أبو رجاء حدثنا سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا : (أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهينا إلى مدينة مبنية بِلَبِنِ ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشطرٌ كأقبح ما أنت راءٍ ، قالا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه ،

ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوءُ عنهم فصاروا في أحسن صورة ، قالا لي : هذه جنة عدن وهذاك منزلك ، قالا : أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم) ، وقوله : (كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح) برفع شطر قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : خرّجوه على أن (كان) تامة و (شطر) و (حسن) مبتدأ وخبره اهـ

قال تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

أمر الله عز وجل في مقامات كثيرة من كتابه الكريم بإيتاء الزكاة والحض عليها وقد ورد ذلك في السور المكية والمدنية فمن السور المكية التي ورد فيها الأمر بالزكاة أو الحض عليها سورة الأنعام حيث يقول عز وجل : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ وسورة الأعراف حيث يقول عز جل : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ﴾ وفي سورة الرعد : ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾ وفي سورة مريم : ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا *﴾ وفيها أيضاً : ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا *﴾ ، وفي سورة المؤمنون حيث يقول : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ وفي سورة النمل حيث يقول : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون

الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون *﴾ ويقول في سورة الروم : ﴿ وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون *﴾ ويقول في سورة لقمان : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون *﴾ ويقول عز وجل في سورة فصلت : ﴿ وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون *﴾ ويقول في سورة الذاريات : ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم *﴾ ويقول في سورة المعارج : ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم *﴾.

أما السور المدنية فقد أكثر الله عز وجل من الأمر فيها بالزكاة مقروناً بالأمر بالصلاة حيث يقول عز وجل في سورة البقرة في الآية الثالثة والأربعين : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ ويقول في الآية العاشرة بعد المائة : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ ويقول في الآية السابعة والسبعين بعد المائتين : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتووا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون *﴾ ويقول في سورة النساء في الآية الثانية والستين بعد المائة : ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ﴾ ويقول في سورة التوبة في الآية الخامسة : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم *﴾ ، ويقول في الآية الحادية عشرة : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين *﴾ وقال في هذا المقام من سورة التوبة : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ الآية.

والصلاة والزكاة من أهم أركان الإسلام وقد أمر الله عز وجل بهما على

سبيل الإجمال وعهد ببيانهما إلى السنة النبوية. وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة الصلاة وأوقاتها وتولى الله عز وجل بيان مصارف الزكاة في كتابه الكريم حيث قال : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم *﴾ وبيّن رسوله صلى الله عليه وسلم مقادير الزكاة كما بين الأموال التي تجب فيها الزكاة لأن قوله عز وجل في هذا المقام : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ يعم سائر الأموال وهو عام أريد به الخصوص إذ يخرج من الأموال أنواع الأموال التي لا زكاة فيها كالبيوت والأراضي التي ليست للتجارة وكذلك ما نقص من الأموال عن نصاب الزكاة ، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس على المسلم في فرسه وغلامه صدقة). وأخرج مسلم في صحيحه من طريق سفيان بن عيينة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة). كما أخرج مسلم من طريق ابن وهب من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس في العبد صدقة إلا صدقة الفطر) اهـ . أي إن صدقة الفطر يخرجها السيد عن عبده وجوباً. وقد أشار الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري إلى أنه لا خلاف عند أهل العلم في أن الفرس المعد للركوب لا للتجارة لا زكاة فيه وكذلك العبد المعد للعمل لا للتجارة ، أما ما أعد للتجارة من فرس أو عبد ففيه الزكاة إذا بلغت قيمته نصاباً لأن زكاة التجارة ثابتة بالإجماع كما نقل ابن المنذر وغيره فيكون مخصصاً لعموم هذا الحديث اهـ. وتقاس السيارات التي يشتريها أصحابها للركوب على الفرس المعد

للركوب فلا زكاة فيها كذلك مهما بلغت قيمتها ، كما روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس فيما دون خمس أواق صدقة). وبلفظ : (ليس فيما دون خمس ذود صدقة من الإبل وليس فيما دون خمس أواق صدقة وليس فيما دون خمسة أَوْسُقٍ صدقة). كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس فيما دون خمس أواق من الوَرِق صدقة وليس فما دون خمس ذود من الإبل صدقة وليس فما دون خمسة أوسق من التمر صدقة).كما روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بألفاظ منها قال : (ليس فيما دون خمسة أوساق من تمر ولا حَبّ صدقة). ومنها : (ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة وليس فيما دون خمس ذود صدقة وليس فيما دون خمس أواق صدقة). ومنها : (ليس في حب ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق وليس فيما دون خمس ذود صدقة وليس فيما دون خمس أواق صدقة). كما روى البخاري في صحيحه من حديث سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (فيما سقت السماء والعيون أو كان عثرياً العشر وفيما سقي بالنضح نصف العشر). كما روي البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كتب له : (هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين والتي أمر الله بها رسوله : في كل أربع وعشرين من الإبل فما دونها الغنم في كل خمس شاة ، فإذا بلغت خمساً وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض أنثى ، فإن لم تكن فابن لبون ذكر، فإذا بلغت ستاً وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لبون أنثى ، فإذا

بلغت ستاً وأربعين إلى ستين ففيها حقة طروقة الجمل ، فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين ففيها جذعة ، فإذا بلغت ستاً وسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لبون ، فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل فإذا زادت على عشرين ومائة ففي كل أربعين بنت لبون ، وفي كل خمسين حقة ، ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل فليس فيها صدقة ، إلا أن يشاء ربها. وفي صدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاة شاة ، فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين ففيها شاتان ، فإذا زادت على مائتين إلى ثلاثمائة ففيها ثلاث شياه ، فإذا زادت على ثلاثمائة ففي كل مائة شاة، فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة من أربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها ، ولا يجمع بين متفرق ، ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة ، وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية. ولا يخرج في الصدقة هرمة ، ولا ذات عوار ، ولا تيس إلا أن يشاء المصدق ، وفي الرقة ربع العشر ، فإن لم تكن إلا تسعين ومائة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها ، ومن بلغت عنده من الإبل صدقة الجذعة وليس عنده جذعة وعنده حقة فإنها تقبل منه الحقة ويجعل معها شاتين إن استيسرتا له أو عشرين درهماً. ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده الحقة وعنده الجذعة فإنها تقبل منه الجذعة ويعطيه المصدق عشرين درهما أو شاتين).

وهذا الحديث العظيم فرّقه البخاري رحمه الله على أبواب في كتاب الزكاة من صحيحه فساق بعضه في باب لا يجمع بين مفترق ولا يفرق بين مجتمع عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه كتب له التي فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة

اهـ قال الحافظ في الفتح : قال مالك في الموطأ : معنى هذا الحديث أن يكون النفر الثلاثة لكل واحد منهم أربعون شاة وجبت فيها الزكاة فيجمعونها حتى لا تجب عليهم كلهم فيها إلا شاة واحدة. أو يكون للخليطين مائتا شاة وشاتان فيكون عليهما فيها ثلاث شياه فيفرقونها حتى لا يكون على كل واحد إلا شاة واحدة اهـ . ثم قال البخاري : باب ما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية ثم ساق من حديث أنس رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه كتب له التي فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية). وقد فسر بعض أهل العلم الخلطة بالاجتماع في المسرح والمبيت والحوض والفحل. وقد تستعمل الخلطة بمعنى الشركة لكن الشركة أخص من الخلطة. قال الحافظ في الفتح : وفي جامع سفيان الثوري عن عبيدالله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن عمر رضي الله عنهما : ما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بالسوية . قلت لعبيدالله : ما يعني بالخليطين؟ قال : إذا كان المراح واحداً والراعي واحداً والدلو واحداً اهـ . قال الصنعاني في سبل السلام : والتراجع بين الخليطين أن يكون لأحدهما مثلاً أربعون بقرة وللآخر ثلاثون بقرة ومالهما مشترك فيأخذ الساعي عن الأربعين مسنة وعن الثلاثين تبيعاً فيرجع باذل المسنة بثلاثة أسباعها على خليطه وباذل التبيع بأربعة أسباعها على خليطه لأن كل واحد من السنين واجب على الشيوع كأن المال ملك واحد اهـ . ثم قال البخاري : باب من بلغت عنده صدقة بنت مخاض وليست عنده ، وساق عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه كتب له فريضة الصدقة التي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم : (من بلغت عنده من الإبل صدقة الجذعة وليست عنده جذعة وعنده حقة). الحديث إلى

قوله : (فإنها تقبل منه بنت مخاض ويعطي معها عشرين درهماً أو شاتين).
وبالرغم من أن البخاري لم يسق في هذا الباب من الحديث ما يكون نصاً على ترجمته فقد قال الحافظ في الفتح نقلاً عن ابن رشيد : إنما مقصده أن يستدل على من بلغت صدقته بنت مخاض وليست عنده هي ولا ابن لبون لكن مثلاً عنده حقة وهي أرفع من بنت مخاض لأن بينهما بنت لبون. وقد تقرر أن بين بنت اللبون وبنت المخاض عشرين درهماً أو شاتين وكذلك سائر ما وقع ذكره في الحديث من سن يزيد أو ينقص إنما ذكر فيه ما يليها لا ما يقع بينهما بتفاوت درجة فأشار البخاري رحمه الله إلى أنه يستنبط من الزائد والناقص والمنفصل ما يكون منفصلاً بحساب ذلك فعلى هذا من بلغت صدقته بنت مخاض وليست عنده إلا حقة أن يردّ عليه المصدق أربعين درهماً أو أربع شياه جبراناً أو بالعكس فلو ذكر اللفظ الذي ترجم به لما أفهم هذا الغرض فتدبره. انتهى كلام ابن رشيد ثم قال الحافظ : قال الزين بن المنير : من أمعن النظر في تراجم هذا الكتاب وما أودعه فيها من أسرار المقاصد استبعد أن يغفل أو يهمل أو يضع لفظاً بغير معنى أو يرسم في الباب خبراً يكون غيره به أقعد وأولى ، وإنما قصد بذكر ما لم يترجم به أن يقرر أن المفقود إذا وجد الأكمل منه أو الأنقص شرع الجبران كما شرع ذلك فيما تضمنه هذا الخبر من ذكر الأسنان فإنه لا فرق بين فقد بنت المخاض ووجود الأكمل منها قال : ولو جعل العمدة في هذا الباب الخبر المشتمل علي ذكر فقد بنت المخاض لكان نصاً في الترجمة ظاهراً ، فلما تركه واستدل بنظيره أفهم ما ذكرناه من الإلحاق بنفي الفرق وتسويته بين فقد بنت المخاض ووجود الأكمل منها وبين فقد الحقة ووجود الأكمل منها والله أعلم اهـ ثم قال البخاري : باب زكاة الغنم وساق عن أنس رضي الله عنه أن

أبا بكر كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين : (بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين والتي أمر الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم فمن سئلها من المسلمين على وجهها فليعطها ومن سئل فوقها فلا يعط : في كل أربع وعشرين من الإبل فما دونها من الغنم من كل خمس شاة فإذا بلغت خمساً وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض أنثى) الحديث إلى قوله : (وفي الرقة ربع العشر فإن لم تكن إلا تسعين ومائة فليس فيها شيء إلا أن يشاء ربها). قال المصنف في الفتح : قوله : إلا تسعين ومائة يوهم أنها إذا زادت على التسعين ومائة قبل بلوغ المائتين أن فيها صدقة وليس كذلك وإنما ذكر التسعين لأنه آخر عقد قبل المائة والحساب إذا جاوز الآحاد كان تركيبه بالعقود كالعشرات والمئين والألوف. فذكر التسعين ليدل على أنه لا صدقة فيما نقص عن المائتين اهـ وقد صح الخبر أنه ليس فيما دون خمس أواق صدقة. ثم قال البخاري رحمه الله : باب لا تؤخذ في الصدقة هرمة ولا ذات عوار ولا تيس إلا ما شاء المصدق ، ثم أخرج عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه كتب له فريضة الصدقة التي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم : (ولا يخرج في الصدقة هرمة ولا ذات عوار ولا تيس إلا ما شاء المصدق).

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ هما صفتان للصدقة أي إن الزكاة مطهرة لأصحاب الأموال مذهبة لأوضار المال وهي كذلك سبب عظيم من أسباب نزول البركة على أصحاب الأموال وأموالهم فالتزكية مبالغة في التطهير وهي تفيد النماء والبركة في المال وقد قال الله عز وجل : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين * ﴾. وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه

وسلم وهو الصادق المصدوق أنه ما نقص مال مـن صدقة فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضـي ا لله عنـه أن رسـول ا لله صلـى ا لله عليـه وسلم قال : (ما نقصت صدقة من مـال ومـا زاد ا لله عبـداً بعفـو إلا عـزاً ومـا تواضع أحد لله إلا رفعه ا لله عز وجل). كمـا روى الـترمذي وقـال : حديـث حسن صحيح من حديث أبي كبشة عمر بن سعد الأنماري رضـي ا لله عنـه أنـه سمع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقـول : (ثلاثـة أقسـم عليهـن وأحدثكـم حديثاً فاحفظوه : ما نقص مال عبد من صدقة) الحديث.

وقوله عـز وجـل : ﴿ وصَـلِّ عليهـم إن صلاتـك سـكن لهـم ﴾ أي وادع للمتصدق بأن ا لله يباركه ويبارك له ويخلـف عليـه بخير ويستغفر لـه فـإن هـذا الدعاء يملأ قلبه طمأنينة ويفرح بدعاء النبي صلـى ا لله عليـه وسـلم لـه وكذلـك دعاء خلفاء المسلمين وأولياء أمورهم للمتصدقين. وقد سقت في تفسير قوله عـز وجل : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن با لله واليوم ويتخذ ما ينفق قربـات عنـد ا لله وصلـوات الرسـول ﴾ حديـث عبـدا لله بـن أبـي أوفـى رضـي ا لله عنهمـا عنـد الشيخين قال : كان النبي صلى ا لله عليه وسلم إذا أُتيَ بصدقة قوم صلى عليهـم فأتاه أبي بصدقته فقال : (اللهم صَلِّ على آل أبي أوفى).

وقد منع المرتدون في عهد أبي بكر رضي ا لله عنه الزكـاة بدعـوى أن هـذه الآية الموجبة للزكاة قد انتهى حكمها بموت رسـول ا لله صلـى ا لله عليـه وسـلم لأن ا لله قال فيها : ﴿ خـذ مـن أموالهـم صدقـة تطهرهـم وتزكيهـم بهـا وصـل عليهم ﴾ وهذا خاص بالرسول فلا نؤديها لغيره. قـال ابـن كثـير رحمـه ا لله في تفسير هذه الآية : ولهذا اعتقد بعض مـانعي الزكـاة مـن أحيـاء العـرب أن دفـع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً بالرسول صلى ا لله عليه وسـلم

ولهذا احتجوا بقوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ الآية. وقد ردَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال الصديق : (والله لو منعوني عناقاً - وفي رواية عقالاً - كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعه) اهـ وقال القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله : أما قولهم : إن هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فلا يلتحق به غيره فهو كلام جاهل بالقرآن غافل عن مأخذ الشريعة متلاعب بالدين ، فإن الخطاب في القرآن لم يرد باباً واحداً ولكن اختلفت موارده على وجوه ، فمنها خطاب توجه إلى جميع الأمة كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ﴾ ونحوه ، ومنها خطاب خُصَّ به ولم يُشْركه فيه غيره لفظاً ولا معنى كقوله : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ وقوله : ﴿ خالصة لك ﴾ ، ومنها خطاب خُصَّ به لفظاً وشَرَكه جميع الأمة معنىً وفعلاً كقوله : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾ وقوله : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمتَ لهم الصلاة ﴾ فكلّ من دَلَكَتْ عليه الشمس مخاطب بالصلاة، وكذلك كل من قرأ القرآن مخاطب بالاستعاذة وكذلك كل من خاف يقيم الصلاة بتلك الصفة ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ ، وعلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي اتق الله ﴾ و ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ اهـ

وفي قوله عز وجل : ﴿ وصل عليهم ﴾ دليل واضح لأهل السنة والجماعة الذين إذا صَلَّوْا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في غير التشهد قالوا :

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وقد يزيدون : ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين مستدلين بهذه الآية الكريمة وبقوله تبارك وتعالى : ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً * ﴾ أما من يبغضون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم يقتصرون على قولهم : صلى الله عليه وآله. والذي حملهم على هذا هو بغضهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين.

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله : هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها. وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدق صدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من تصدق بِعِدْل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّهُ حتى تكون مثل الجبل).

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ أي فليعلموا أن الله هو يقبل

توبة المسيئين من عباده متجاوزاً بها عن سيئاتهم التي ارتكبوها فإن باب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من المغرب فيغلق ، وأن الله عز وجل يتقبل صدقات المتصدقين من عباده فيجازيهم بها أضعافاً مضاعفة وأن الله هو التواب الرحيم. والاستفهام في قوله عز وجل : ﴿ ألم يعلموا ﴾ للتقرير والتحضيض والتأكيد. ومعنى (عن) في قوله عز وجل : ﴿ عن عباده ﴾ للمجاوزة. والكلام موجه لكافة العباد ليعرفوا ربهم ولا ييأسوا من رحمته ومغفرته لذنوب المذنبين ولو كانت مثل زبد البحر ، وليحرصوا على التصدق من أموالهم. والتعبير بالأخذ في قوله عز وجل : ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ لتهييج العباد على البذل والإنفاق في سبيل الله وأن الصدقة تقع في يد الله عز وجل فلا تضيع عنده ، ويجازي عليها أضعافاً مضاعفة وهو الغني الكريم الذي لا تنفد خزائنه ولا ينقص ما عنده على كثرة ما يعطيه ، فمن تصدق بصدقة فليوقن أن الله هو الآخذ لها والمثيب عليها ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : (يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمتَ أنك لو عدتَه لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتُك فلم تطعمني قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمتَ أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمتَ أنك لو سقيته لوجدتَ ذلك عندي ؟

قال تعالى :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

هذا تأكيد لما جاء في الآية الرابعة والتسعين من هذه السورة المباركة حيث يقول عز وجل فيها : ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون * ﴾ وهو ترغيب في الأعمال الصالحة وترهيب من الأعمال السيئة وإعلام بأن ما يخفيه الإنسان لا يخفى على الله عز وجل وأن الله مخرج ما يكتمون ، وأنه سيفضح المنافقين يوم القيامة كما قال عز وجل : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية * فأما من أُوتيَ كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه * فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية * وأما من أُوتيَ كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أُوتَ كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * ﴾ ، فالآية الرابعة والتسعون وهذه الآية من المتشابه المثاني ، وقد اشتملت كل واحدة منهما على ألوان من الأساليب البلاغية المناسبة لمقامها. والمقصود من الآيتين غرس الخوف من الله في نفوس الناس سواء كانوا منافقين أو مؤمنين ، وانه لا ينفعهم في دينهم ودنياهم إلا الإخلاص لله عز وجل ، قال البخاري رحمه الله : قالت عائشة رضي الله عنها : إذا أعجبك حُسنُ عمل امرئ فقل : ﴿ اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾.

قال تعالى :

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

هذا بيان لقسم من الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خروجه لغزوة تبوك وقد كانت حالهم تختلف عن حال جميع المتخلفين الآخرين حيث كانوا أصدق المتخلفين لهجة ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جاءوا إليه صلى الله عليه وسلم واعتذروا إليه فأرجأهم ونهى الناس عن كلامهم ومخالطتهم حتى نزلت توبة الله عليهم وهم الثلاثة الذين خلفوا وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، وقد قرأ نافع وحمزة والكسائي : ﴿ مُرْجَئُونَ ﴾ وقرأ بقية السبعة : ﴿ مُرْجَوْن ﴾. وقد فسر أحد أصحاب القصة وهو كعب بن مالك رضي الله عنه كلمة ﴿ مرجون ﴾ فقال فيما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عنه رضي الله عنه : قال كعب : (وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفْنَا عن الغزو ، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه اهـ

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ أي هم تحت عفو الله ومشيئته إن شاء عذبهم وإن شاء تاب عليهم وعفا عنهم. و(إما) في اللسان العربي إذا قيل : إما كذا وإما كذا لوقوع أحد الشيئين. ولا شك أن الله

عالم بما يصير إليه أمرهم ولكنه خاطب العباد بما يعلمون ليكون الأمر عندهم على الخوف والرجاء حتى ينزل حكمه فيهم ، ورحمته عز وجل تسبق غضبه ، وقد ذيل الآية بقوله عز وجل : ﴿ والله عليم حكيم *﴾ لتأكيد أنه تبارك وتعالى لا يخفى عليه ما يؤول إليه أمرهم لأنه العليم بما كان وبما يكون وبما لا يكون لو كان كيف يكون وهو الحكيم فيما يقضي به بين عباده.

قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

هذه صورة أخرى من الصور التي كان المنافقون يخططون بها للقضاء على الإسلام ويحاولون فيها بث الفرقة بين المسلمين وإعداد العدة للتعاون مع اليهود والنصارى لحرب الإسلام وإطفاء نوره. وكان الذي وضع لهم هذه الخطط أبا عامر الفاسق الذي كان يعرف بالراهب وهو خزرجي تنصّر في الجاهلية وكان من أعيان الخزرج وله فيهم منزلة كبيرة ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه

وسلم مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون من الأوس والخزرج والمهاجرين وصارت للإسلام كلمة عالية وأيدهم الله بنصره يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه وأظهر العداوة للدين الحق وخرج فاراً إلى مكة لتأليب كفار قريش على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستجابوا له واجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وجاءوا لحرب رسول الله صلى الله عله وسلم يوم أحد ، وقام عدو الله أبو عامر الفاسق بحفر حفائر ليسقط فيها المسلمون وقد وقع رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى هذه الحفر فجرح وجهه صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله). وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليه أن يموت بعيداً طريداً فاستجاب الله دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم. وذكر البغوي في تفسيره أن أبا عامر قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أمات الله الكاذب منا طريداً شريداً فقال النبي صلى الله عليه وسلم : آمين. فلما فرغ الناس من أحدورأى أبو عامر أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في ارتفاع ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأظهر هرقل استعداده لذلك وأقام عنده أبو عامر وأخذ يكاتب أهل النفاق في المدينة ويعدهم ويمنيهم ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يكون مرصداً له إذا قدم عليهم وسبباً في تفريق كلمة المسلمين ، فشرعوا في بناء مسجد بالقرب من مسجد قباء في الناحية الشمالية منه فلما فرغوا من بنائه قبيل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه أن يأتي إليهم ويصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على

تقريره ، وذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم إنما بنوه ليصلي فيه الضعفاء وأهل العلة منهم في الليلة الشاتية وحلفوا أنهم لا يريدون ببنائه إلا الحسنى ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه على جناح سفر ، فلما قفل راجعاً من تبوك واقترب من المدينة نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما دبره المنافقون من الكفر والتفريق بين جماعة المسلمين من أهل مسجد قباء الذي أسس على التقوى من أول يوم ، ونهى الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فيه ، وأنزل عليه قوله عز وجل: ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ﴾ الآيات الأربع ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فهُدِمَ هذا المسجد وحُرِّق قبل وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة. وقد هلك أبو عامر الفاسق طريداً شريداً بقنسرين من أرض الشام.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين جماعة ابتنوا مسجداً لمضارة مسجد قباء ليصلي فيه بعضهم دون مسجد قباء القريب منه المؤسس على تقوى الله ويصلي بعض أهل مسجد قباء فيه أي في مسجد قباء فيتفرقون ويختلفون بسبب ذلك. وكان من مكر هؤلاء المنافقين وتدبيرهم السيء أن يكون مسجدهم معقلاً من معاقل الكفر بالله ومرصداً للمنافقين ولأبي عامر الفاسق الذي حارب الله ورسوله من قبل.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولَيحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى ﴾ أي وليحلفنَّ بانوه ما أردنا ولا قصدنا ببنائه إلا الرفق بالمسلمين والمنفعة لهم والتوسعة على أهل العلة ومن عجز عن المسير إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو

مسجد قباء. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وا لله يشهد إنهم لكاذبون *﴾ أي وا لله يعلم خُبث ضمائرهم وكَذِبَهم فيما يحلفون عليه. قال ابن كثير رحمه ا لله في قوله تعالى : ﴿ وا لله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ أي فيما قصدوا وفيما نَوَوْا ، وإنما بَنَوْهُ ضراراً لمسجد قباء وكفراً با لله وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب ا لله ورسوله من قبل وهو أبو عامر الفاسق الذي يقال له : الراهب لعنه ا لله.

وقوله عز وجل : ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ نهيٌ له صلى ا لله عليه وسلم والأمة تَبَعٌ له عن أن يقوم فيه ، أي يصلي أبداً ، ثم حثه على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى ، وهي طاعة ا لله وطاعة رسوله ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله لهذا قال تعالى : ﴿ لَمسجد أسس على التقوى من أول يوم أَحَقُّ أن تقوم فيه ﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال : (صلاة في مسجد قباء كعمرة). وفي الصحيح أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً. وفي الحديث أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عين له جهة القبلة ، فا لله أعلم اهـ. أما ما رواه مسلم من حديث أبي سلمة بن عبدالرحمن قال : مَرَّ بي عبدالرحمن بن أبي سعيد الخدري قال : فقلت له : كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال : قال أبي : دخلت على رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في بيت بعض نسائه فقلت : يا رسول ا لله : أين المسجد الذي أسس على التقوى ؟ قال : فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض ثم قال : هو مسجدكم هذا. ثم قال : سمعت أباك يذكره اهـ فإن هذا الحديث لا يتعارض مع كون مسجد قباء أسس

على التقوى فكلا المسجدين قد أسسهما رسول الله صلى الله عليه وسلم على التقوى ، ولاشك أن مسجد قباء أسس أول قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مهاجراً حيث نزل أولاً بقباء وأسس المسجد فيها. وقد روى البخاري في صحيحه من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير قال : (وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حَرُّ الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما آووا إلى بيوتهم أَوفَى رجل من اليهود على أُطُمٍ من آطامهم لأمر ينظر إليه فَبَصُرَ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مُبَيِّضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهوديُّ أن قال بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جَدُّكم الذي تنتظرونه ، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فَعَدَلَ بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول. فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيي أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أبو بكر حتى ظلّلَ عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك ، فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى) الحديث. وقد ألهم الله تبارك وتعالى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو المُلْهَمُ المحدَّث فاستشار المسلمين في وضع ابتداء للتاريخ الإسلامي فاتفق الصحابة رضي الله عنهم وأجمعوا على رأي عمر رضي الله عنه في أن يكون ابتداء التاريخ الإسلامي من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى المدينة. قال البخاري في صحيحه : باب التاريخ : من أين أرّخوا التاريخ ؟ ثم ساق بسنده إلى سهل بن سعد رضي الله عنه قال : (ما عَدُّوا من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولا من وفاته ، ما عَدُّوا إلا من مقدمه المدينة). قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : أفاد السهيلي أن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم .. ﴾ لأنه من المعلوم أنه ليس أول الأيام مطلقاً فتعين أنه أضيف إلى شيء مضمر وهو أول الزمن الذي عزّ فيه الإسلام وعَبَدَ فيه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ربه آمناً وابتدأ بناء المسجد اهـ.

وقوله عز وجل : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المُطَّهِّرين * ﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية : حدثني عبد الأعلى بن واصل قال: ثنا إسماعيل بن صُبَيْح اليشكري قال : حدثنا أبو أُوَيْس المدني عن شرحبيل ابن سعد عن عويم بن ساعدة وكان من أهل بدر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء : (إني أسمع الله قد أثنى عليكم الثناء في الطُّهُور ، فما هذا الطُّهُور؟ قالوا : يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أن جيراناً لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا. وقد وصف الحافظ ابن حجر في التقريب عبد الأعلى بن واصل بأنه ثقة وإسماعيل بن صبيح اليشكري بأنه صدوق ، وأبا أويس المدني بأنه صدوق يهم ، وشرحبيل بن سعد بأنه صدوق اختلط بآخرة ، من الثالثة ، مات سنة ثلاث وعشرين يعني بعد المائة وقد قارب عمره المائة سنة. وذكر أن البخاري أخرج له في الأدب المفرد وأبو داود وابن ماجه.

قال تعالى :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

هذا بيان لتجلية الفرق بين مسجد قباء ومسجد الضرار وأنهما لا يستويان، فالأول وضع أساسه ورفع بنيانه على تقوى وخوف من الله عز وجل وأقيم ابتغاء مرضاة الله ، والثاني وضع أساسه وأقيم بنيانه على حافة هاوية وطرف هُوَّة سحيقة سهلة الانجراف إذا جاءها السيل انهار هذا المبنى مع من بناه وهَوَى في مكان سحيق ينتهي بهم إلى جهنم ونار الجحيم ، فشتان ما بين المسجدين وما أبعد البون بينهما. والاستفهام في قوله عز وجل : ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ﴾ لتقرير خيرية مسجد قباء وفضل أهله الذين أقاموه على تقوى وخوف من الله عز وجل وابتغاء مرضاة الله. والاستفهام في قوله عز وجل : ﴿ أم من أسس بنيانه على شفا جُرُف هار فانهار به في نار جهنم ﴾ لتوبيخ هؤلاء المنافقين الذين بنوا مسجدهم لا على تقوى من الله ولا ابتغاء مرضاته بل لقصد الضرار لأهل مسجد قباء ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وللكفر بالله ورسوله وللتفريق بين المسلمين ومعقلاً للمنافقين ولأبي عامر الفاسق الذي حارب الله ورسوله من قبل. وهذا شبيه بمن أقام بناءه ووضع أساسه على حافة هوة سهلة الانجراف لا يحمي من بناه ولا نفع له فيه بل يُرْدِيه في مكان سحيق يهوي به إلى نار جهنم. والشَّفا حرف الشيء وطرفه

وحافته وشفيره والجرف هي الأرض الرخوة التي يجرفها السيل ويذهب بها. ومعنى (هار) أي سريع الانهيار والسقوط حيث يتداعى بعضه في إثر بعض كما ينهار الرمل إذا حفر بجانبه بئر .

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فانهار به في نار جهنم ﴾ أي فسقط ببانيه في نار جهنم. وأصل كلمة جهنم من الجهنام وهي البئر السحيقة البعيدة القاع. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين * ﴾ أي والله لا يوفق القوم المعتدين المتجاوزين طريق الحق السالكين طريق الضلال ولا يسددهم بل يخذلهم ويكلهم إلى أنفسهم التي ترديهم فإذا رأوا سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تَقَطعَ قلوبهم ﴾ أي قد أورثهم هذا الصنيع الشنيع شكاً ونفاقاً لا يغادر قلوبهم حتى يموتوا. و (إلا) في قوله عز وجل : ﴿ إلا أن تقطع ﴾ بمعنى إلى كما قرئ بها شذوذاً عن الحسن البصري ، والمعلوم أن القراءة الشاذة إذا رويت من طريق صحيح فإنها لا تعتبر قرآناً وإنما يستفاد منها في التفسير كأحاديث الآحاد إذا صحت. ومعنى تقطع أي تتفتت.

وقوله عز وجل : ﴿ إلا أن تَقَطَّعَ قلوبُهم ﴾ هو كناية عن أن النفاق قد لزمهم لا يفارقهم أبداً إلى يوم القيامة بسبب بنائهم لمسجد الضرار وهذا كقوله عز وجل : ﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ﴾ وهو إنذار للمؤمنين وغيرهم بأن المعصية قد تحول بين العبد وبين لقاء الله على الإيمان كما قال عز وجل : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم * ﴾ وقد أثر عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه كان يقول لمماليكه : تزوجوا فإن العبد إذا زنى نزع الله

منه سربال الإيمان فإن شاء أمسكه وإن شاء رده.

قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل شأن مسجد الضرار الذي أسس على غير تقوى الله والمسجد الذي أسس على تقوى من الله ورضوان ، وأشار إلى ما أعده لكلا الفريقين مما يؤكد أن الأعمال بالنيات لأن كل واحد من الفريقين بنى مسجداً حيث أعد الله لمن بنوا مسجد الضرار نار جهنم ، وأعد لمن بنوا مسجد قباء جزيل فضله ورضاه ، ذكر هنا هذه المبايعة التي تمت بين السيد وعبده والمشتري هو السيد والبائع هو عبده ومملوكه وقد حصل البائع من بيعه على ربح بسبب بيعه هذا لم يحصل على مثله أحد قط في مبايعة تمت في الحياة الدنيا، حيث أعطى الله الجنة ثمناً لنفوس هو خالقها وأموال هو رازقها ، وهذا الثمن يحصل عليه البائع بمجرد نية البيع وتأكيد العزم عليه ، وقد مر في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ﴾

الآية ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر). فإن المؤمن إذا نوى الجهاد أو خرج من بيته للقتال في سبيل الله حصل على أجر المقاتل سواء قتل في سبيل الله أو رجع إلى أهله سالماً غانماً. فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر وغنيمة أو أدخله الجنة) وفي لفظ : (تضمن الله لمن خرج في سبيله وفي لفظ تكفل الله – وفي لفظ للبخاري : وتوكل الله - للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة). قال الحافظ في الفتح : وقوله : تضمن الله وتكفل الله وانتدب الله بمعنى واحد ومحصله تحقيق الوعد المذكور في قوله تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ أي إن الله عز وجل قد قبل من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيل الله وأثابهم وعوضهم عن أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. وقوله تبارك وتعالى : ﴿ بأن لهم الجنة ﴾ للإفادة بأن الثمن مؤجل إلى الدار الآخرة وأنه مكفول لهم ومضمون بوعد من الله عز وجل ، ولذلك قال تبارك وتعالى : ﴿ وعداً عليه حقا ﴾. وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلونَ ويُقْتَلُون ﴾ هو استئناف بياني كأنه قيل : كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل: ﴿ يقاتلون في سبيل الله ﴾ أي يجاهدون أعداء الله

لإعلاء كلمة الله ويبذلون في سبيل ذلك أنفسهم وأموالهم.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فَيَقْتُلُون ويُقْتَلُون ﴾ أي فيهيئون أنفسهم لضرب رقاب أعدائهم ويستعدون للموت في سبيل الله. قال أبو السعود العمادي في قوله عز وجل : ﴿ فيقتلون ويقتلون ﴾ بيان لكون القتال في سبيل الله بذلاً للنفس وأن المقاتل في سبيله باذل لها وإن كانت سالمة غانمة فإن الإسناد في الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما ولا اشتراط الاتصاف بأحدهما البتة بل بطريق وصف الكل بحال البعض فإنه يتحقق القتال من الكل سواء وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم بل يتحقق ذلك وإن لم يصدر منهم أحدهما أيضاً كما إذا وجدت المضاربة و لم يوجد القتل من أحد الجانبين أو لم توجد المضاربة أيضا فإنه يتحقق الجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثير السواد اهـ.

وقوله عز وجل : ﴿ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ أي وعداً متحققاً ثابتاً مثبتاً في التوراة والإنجيل كما هو مثبت في القرآن. والمقصود من ذكر ثبوته في التوراة والإنجيل الإشارة إلي أن هذه المبايعة ليست مختصة بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم بل هي شريعته وشريعة المرسلين من قبله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقوله عز وجل : ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ قال أبو السعود العمادي : اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة في كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل وافٍ فإن إخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع إمكان صدوره عنهم فكيف بجناب الخلاّق الغني عن العالمين جل جلاله ، وسبك التركيب وإن كان على إنكار أن يكون أحدٌ أوفى بالعهد منه تعالى من غير تعرض لإنكار المساواة ونفيها لكن المقصود به قصداً مطرداً إنكار المساواة ونفيها قطعاً ، فإذا قيل : من أكرم من

فلان أو لا أفضل منه ، فالمراد به حتماً أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل اهـ

والالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله عز وجل : ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ لتشريف المؤمنين وزيادة سرورهم ، أي فسروا غاية السرور وافرحوا غاية الفرح بما تفضل الله عز وجل به عليكم من هذه المبايعة التي ربحتم فيها ربحاً لا تدانيه جميع أرباح الحياة الدنيا. وقوله عز وجل : ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ أي وما حصلتم عليه من الفوز هو أعظم فوز فليستبشر من التزم بهذا العقد ووفّى بهذا العهد بالفوز العظيم من الملك الحق الكريم.

وقوله عز وجل : ﴿ التائبون العابدون ﴾ الآية ، قال الزجاج : الذي عندي أن قوله : ﴿ التائبون العابدون ﴾ رفع بالابتداء وخبره مضمر أي التائبون العابدون – إلى آخر الآية – لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا إذا لم يكن منهم عناد وقصد إلى ترك الجهاد لأن بعض المسلمين يجزئ عن بعض في الجهاد اهـ وقد أشار الله عز وجل إلى أن القاعدين من المؤمنين إذا نصحوا لله ورسوله ولم يقعدوا مشاقة ولا سيما أصحاب العاهات وأدوا فرائض الله فإن الله عز وجل يتفضل عليهم بالجنة أيضاً غير أن منازلهم لا تكون كمنازل المجاهدين في الجنة حيث قال : ﴿ إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ وحيث يقول عز وجل : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً وكلاًّ وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما *﴾ والتائبون هم الراجعون إلى الله عز وجل الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا فاستغفروا لذنوبهم ومن

يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون. وأما العابدون فهم الذين يبذلون لله عز وجل أقصى غاية الحب مع أقصى غاية الذل ولا يصرفون شيئاً من عبادتهم لغير الله. وأما الحامدون فهم الذين يثنون على الله عز وجل وقد أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم). وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه : (والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض). والسائحون هم الذين يشدون الرحال إلى المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى وأصل السياحة في اللغة كما في القاموس : هي الذهاب في الأرض للعبادة. والراكعون الساجدون هم المصلون ، والآمرون بالمعروف هم الذين يدعون الناس إلى الخير ، والناهون عن المنكر هم الذين يحذرون الناس من الشرور والآثام ، والحافظون لحدود الله هم القائمون بطاعة الله الموفون بعهدهم إذا عاهدوا المنتهون عن المعاصي والآثام.

والواو في قوله عز وجل: ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ قد أطلق بعض العلماء عليها اسم واو الثمانية لأنهم لاحظوا أن المعدود إذا كان هو الثامن جيء بالواو كهذا المقام وكقوله عز وجل: ﴿ عسى به إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً ﴾ لأن أبكاراً هو الثامن في العدد هنا . وقد قال الله تبارك وتعالى عن أهل الجنة : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ﴾ وهي ثمانية أبواب. كما قال عز وجل في سورة الكهف : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم

كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ قال القرطبي في تفسيره عن الأستاذ النحوي أبي عبدا لله المالقي : أنهم إذا عدوا : واحداً ، اثنان ، ثلاثة، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة وثمانية. قال القرطبي : وهي لغة قريش.

وقوله تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين *﴾ أي وأخبر المؤمنين بخبر يدخل السرور عليهم حتى يظهر أثر ذلك السرور على بشرتهم بأن ا لله عز وجل قد وعد بالجنة كل من آمن با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وشهد أن لا إله إلا ا لله وأن محمداً رسول ا لله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً وفارق الدنيا على ذلك.

قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾ ﴾.

هذا المقام الكريم من الذكر الحكيم في هذه السورة المباركة (سورة براءة) هو أحد المقامات التي تتجلى فيها صورة البراءة من الشرك والمشركين مهما كانت صلتهم بالمؤمن وحبهم له وحرصهم على سلامته والدفاع عنه. وقد روى

البخاري ومسلم أن هذه الآيات نزلت في أبي طالب ومنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاستغفار له. وقد مات أبو طالب في السنة العاشرة من البعثة النبوية مع أن سورة براءة قد نزلت في شوال من السنة التاسعة للهجرة ، وليس هناك ما يمنع من ذلك فقد تكون في السورة المدنية آية مكية كما يكون في السورة المكية آية مدنية كسورة المزمل ، وقد أشرت إلى ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ من هذه السورة المباركة ، وقد نقل البغوي عن مقاتل في أول هذه السورة : أن الآيتين الأخيرتين منها من المكي ، وقد جاء في الصحيحين أيضاً بعد ذكر نزول قوله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ ، ونزلت : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ ، وقال النووي في شرح صحيح مسلم : فقد أجمع المفسرون أنها - أي ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ - قد نزلت في أبي طالب ، ونقل أن الزجاج وغيره نقل إجماعهم على هذا ، وقال النووي : وهي عامة فإنه لا يهدي ولا يضل إلا الله اهـ وقد كان أبو طالب يبذل نفسه في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي كفله بعد موت عبدالمطلب لأنه شقيق أبيه عبدالله وقد كان موقناً في قلبه بأن محمداً رسول الله لكنه أبى أن يشهد بذلك خوف لحوق عار بآبائه كما زعم ، وقصائده ودفاعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغاية القصوى ، فهو يمدح بني هاشم وبني المطلب الذين آزروه في نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اجتمعت قريش وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب ألا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ،

وعلّقوا صحيفتهم في جوف الكعبة وتقاسموا على الكفر ، وأن أبا طالب دعا بني هاشم وبني المطلب لنصرته وحماية رسول الله صلى الله عليه وسلم من شر المشركين وأنه استجاب لأبي طالب جميع بني هاشم وبني المطلب مؤمنهم بإيمانه وكافرهم بحمية الجاهلية ولم يشذ منهم غير أبي لهب لعنه الله فانحاز إلى قريش ، وقد أثنى أبو طالب على بني هاشم وبني المطلب الذين سارعوا لإجابته والانتصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفي ذلك يقول :

إذا اجتمعتْ يوماً قريش لِمفْخَرٍ ... فعبد مناف سِرُّها وصَميمُها

وإن فَخرتْ يوماً فإن محمداً ... هو المصطفى من سِرِّها وكريمها

تداعت قريش غَثها و سَمِينُها ... علينا فلم تَظفرْ و طاشتْ حُلُومُها

وكنا قديماً لا نُقِرُّ ظُلامةً ... إذا ما ثنوا صُعرَ الرقاب نُقِيمُها

ونَحْمِي حماها كل يوم كريهة ... ونضرب عن أحجارها مَنْ يرومها

بنا انتعش العُودُ الزواءُ وإنما ... بأكنافنا تَنْدى وتَنْمَى أرُومُـهَا

وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الغداة من فتح مكة وكذلك في حجة الوداع إلى مكان تقاسم المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم تحدثاً بنعمة الله وتذكيراً بأن الله صدق وعده لرسوله وللمؤمنين وأنجزه لهم ومكّن لهم وبدَّلهم بعد خوفهم أمنا كما وعدهم ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال في لفظ مسلم: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بمنى ولفظ البخاري : قال النبي صلى الله عليه وسلم من الغد يوم النحر وهو بمنى ثم اتفقا أنه قال : نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر . وذلك أن قريشاً وبني كنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يُسْلِمُوا إليهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني بذلك المُحَصَّب. وفي لفظ للبخاري من حديث أسامة بن زيد قال: قلتُ يا رسول الله أين تنزل غداً -في حجته- قال: وهل ترك لنا عقيلٌ منزلاً؟ ثم قال: نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة المحصَّب حيث قاسمتْ قريش على الكفر وذلك أن بني كنانة حالفت قريشاً على بني هاشم أن لا يبايعوهم ولا يؤووهم. قال الزهري: والخيف الوادي. وفي لفظ للبخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ننْزِلُ غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر. زاد البخاري يريد المُحَصَّب. وفي لفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد قدوم مكة: مَنْزِلُنا غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر. وقوله: حين أراد قدوم مكة يعني بعد رجوعه من منى لطواف الوداع. وفي لفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد حنيناً: منزلنا غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر. وهذا الحديث يشعر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب النزول في خيف بني كنانة وهو المحصَّب ويقال له الأبطح والبطحاء وهو مسيل واسع فيه حصباء ينتهي إليه سيل وادي مني فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزله ليتذكر المسلمون ما كانوا فيه، فيشكروا الله تعالى على ما أنعم به عليهم من الأمن بمكة في المكان الذي تمالأت قريش فيه على قتله وإيذاء من معه، ولما دخلت بنو هاشم وبنو المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب أبي طالب دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش بأن يُعين الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بسنين كسني يوسف أو أشد، فأصاب

قريشاً القحط ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري في باب : إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط من طريق مسروق قال : أتيت ابن مسعود فقال : إن قريشاً أبطئوا عن الإسلام فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأخذتهم سَنَةٌ حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام ، فجاءه أبو سفيان فقال : يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم ، وإن قومك هلكوا فادع الله ، فقرأ : فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين. ثم عادوا إلى كفرهم فذلك قوله تعالى : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ يوم بدر ، ثم قال البخاري : وزاد أسباط عن منصور : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقوا الغيث. وفي لفظ لمسلم من طريق مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من الناس إدباراً فقال : اللهم سَبْعٌ كَسَبع يوسف. قال : فأخذتهم سَنَةٌ حصتْ كلَّ شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان فأتاه أبو سفيان فقال : يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم ، قال الله عز وجل : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم *﴾ إلى قوله : ﴿ إنكم عائدون ﴾ الحديث. وقد أشار أبوطالب في قصيدته اللامية المشهورة إلى اجتماع قريش وتآمرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبني هاشم وبني المطلب ، وأكد أنه لن يسلم محمداً صلى الله عليه وسلم بحال ، وعتب على قريش وأشار إلى استسقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ، وفي ذلك يقول :

ولما رأيتُ القوم لا وُدَّ فيهموا ... وقد قطعوا كلَّ العرى والوسائِلِ
وقد جاهرُونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوَعُوا أمرَ العَدُوِّ المزايِلِ

وقد حالفوا قوماً علينا أظنة ... يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول

وفيها يقول :

أعوذ برب الناس من كل طاعن ... علينا بسوء أو مُلِحٍّ بباطل
وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه ... وراقٍ ليرقى في حراءٍ ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

وفيها يقول :

كذبتم وبيت الله نبزى محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم في الحديد إليكموا ... نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل

وفيها يقول :

وما ترك قوم لا أب لك سيدا ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضل

وفيها يقول :

ومر أبو سفيان عنّي معرضاً ... كما مر قيل من عظام المقاول
يفر إلى نجد وبرد مياهه ... ويزعم أني لست عنكم بغافل
ويخبرنا فعل المناصح أنه ... شفيق ويُخفي عارمات الدواخل
أمُطعم لم أخذلك في يوم نجدةٍ ... ولا مُعظمٍ عند الأمور الجلائل

وفيها يقول :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً ... عقوبة شر عاجلا غير آجل

بميزان قسط لا يخيس شعيرةً ... له شاهد من نفسه غير عائل

لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا ... بني خلف قيضا بنا والغياطل

ونحن الصميم من ذؤابة هاشم ... وآل قصي في الخطوب الأوائل

وسهم ومخزوم تمالوا وألبوا ... علينا العدى من كل طمل وخامل

وفيها يقول :

أعبد مناف أنتموا خير قومكم ... فلا تشركوا في أمركم كل واغل

فقد خفت إن لم يصلح الله أمركم ... تكونوا كما كانت أحاديث وائل

وفيها يقول :

فوالله لولا أن أجيء بسبةٍ ... تُجَرُّ على أشياخنا في المحافل

لكنا اتبعناه على كل حالةٍ ... من الدهر جدًّا غير قول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مُكَذَّبٌ ... لدينا ولا يُعنَى بقول الأباطل

حدبت بنفسي دونه وحميته ... ودافعت عنه بالذُّرا والكلاكل

وقول أبي طالب : العدو المزايل أي المفارق المجانب البين العداوة. وقوله : أظنّةً أي متهمين. وقوله : بسمراء سمحة أي برمح وقوس مواتية. وقوله : وأبيض عضب من تراث المقاول أي وسيف أبيض قاطع صقيل بتار ورثناه عن آبائنا أشباه الملوك ، أو مما أهدته الملوك لآبائنا ، إذ المقاول جمع مقول كمنبر وهو الملك ويقال له أيضاً القَيْل. وقوله : وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة .. الخ البيت يعني موضع قدمي إبراهيم عليه السلام وأثر قدميه في الحجر لما قام عليه وهو يبني الكعبة وهو المعروف بمقام إبراهيم المذكور في قوله تعالى : ﴿ واتخذوا

من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وقد أبقاه الله تعالى شاهداً على أن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة وتوارثت معرفة ذلك القبائل جيلاً بعد جيل ، وقد وصفه الله تعالى بأنه من الآيات البينات حيث يقول : ﴿ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ﴾. وقول أبي طالب : نبزي محمداً أي نقهره ونبطش به ، والمعنى : لا نقهر محمداً ولا نبطش به وكذب من يظن فينا ذلك. وقوله : ونُسلمهُ أي ولا نُسلمهُ. وقوله : حتى نُصرع حوله أي ولن نُسلم محمداً ولن نخذله حتى نهلك دونه. وقوله : ونذهل عن أبنائنا والحلائل أي وحتى لا يبقى فينا من يتذكر ولده أو حليلته. وقوله : وينهض قوم في الحديد إليكموا نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل ، أي وحتى نكون قد فقدنا عقولنا وصرنا كالروايا وهي الإبل التي تحمل الماء فوقها ذات الصلاصل أي المزاداتُ التي يُسمعُ لها صلصلة. وقوله : وما ترك قوم لا أب لكل سيداً ..الخ البيت ، الذمار هو الحمى ، والذرب هو الفاحش ، والمواكل هو المتخاذلُ الذي يكل أمره إلى غيره ولا رأي له ، وهو يعني أن محمداً صلى الله عليه وسلم سيدٌ يحمى حماه ، ولا يترك نصرته ويُسيء إليه إلا المتخاذل الذي يكل أمره إلى غيره. وقوله : وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ، يعنى أن محمداً صلى الله عليه وسلم ذو منزلة كريمة عند الله ، وهو يُستسقى به بالمطر ، وقد أشار أبو طالب بهذا إلى قصة القحط الذي أصاب قريشاً بسبب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، وأنهم لما اشتد بهم القحط وأجدبوا جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بمكة وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستسقي لهم وأن يطلب من الله أن يغيثهم ، فاستسقى لهم فنزل عليهم الغيث لكنهم مع ذلك استمروا على كفرهم وعنادهم على حد قوله تعالى في ذلك : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان

مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون *﴾ إلى قوله : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ أي مستمرون على كفركم وضلالكم وعنادكم. وقد ذكر البخاري في صحيحه من حديث عبدا لله بن عمر رضي ا لله عنهما قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي صلى ا لله عليه وسلم يستسقي فما ينزل حتى يجيش كلُّ ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وهو قول أبي طالب. وقوله : ثمال اليتامى أي يحوط اليتامى ويرعى شئونهم ويتولى أمورهم ويقوم بحاجتهم. وقوله : عصمة للأرامل أي يعصم الأرامل ويحفظهن ويمنعهن مما يضرهن ويحميهن ، والأرامل جمع أرملة وهي الفقيرة التي لا زوج لها ، وقد يستعمل في الرجال على سبيل التوسع على حد قول الشاعر :

تلك الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

وقوله : يفر إلى نجد ، أي يخذلنا أبو سفيان ويهرب منا إلى الطائف طلباً لبرد مياهه فالمراد بنجد في هذا البيت هو الطائف لارتفاعها إذ النجد ضد الغور . وقوله : ويُخفي عارمات الدواخل أي ولا يُظهر ما يمتلئ به قلبه من الحقد علينا، فالعارمات هي الدواهي الشديدات ، والدواخل جمع داخلة وهي النية والمذهب. وقوله : لا يخيس شعيرة أي لا يخطئ مقدار حبة شعير . وقوله : غير عائل أي غير جائر . وقوله : قيضاً بنا أي عوضاً عنا. وقوله : والغياطل هم فخذٌ من بني سهم بن عمرو بن هصيص كان يقال لأمهم الغيطلة ، والغيطلة تطلق على الظلمة الشديدة والشجر الملتف واختلاط الأصوات والبقرة الوحشية وغلبة النعاس. وقوله : تمالوا أي تمالئوا واجتمعوا وتشايعوا. وقوله : وألَّبوا علينا ، أي سارعوا وجمعوا واجتمعوا علينا بالظلم والعداوة والتحريض والإفساد. وقوله :

من كل طمل ، الطمل هو الرجل الفاحش الذي لا يبالي ما صنع ، وتطلق الطمولة على اللئيم والأحمق واللص. وقوله : وخامل ، الخامل هو الساقط الذي لا نباهة له. وقوله : فلا تُشركوا في أمركم كل واغل ، أي فلا تُدخلوا في شئونكم الواغل وهو الضعيف النّذل الساقط المقصر في الأشياء المتطفل على الناس في طعامهم وشرابهم. وقول أبي طالب : فوالله لولا أن أجيء بسُبّة تُجر على أشياخنا في المحافل لكُنا اتبعناه إلى آخر البيت. أي لولا أن دخولي في الإسلام يُلحق بآبائنا الذّمّ بأنهم ماتوا على غير الهدى ويسمُهُم أهل المحافل والمجالس بالنقص لذلك لكنت سارعت إلى الدخول في الإسلام ، لأني موقن أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يمنعني من الدخول في دينه إلا التزامي بما كان عليه آبائي ، ويؤكد ذلك أبو طالب بقوله : لقد علموا أن ابننا لا مُكذب لدينا .. الخ ، ولذلك قال أبو طالب في نونيته المشهورة :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أُوسد في التراب دفيناً
ودعوتني وعلمت أنك صادق	ولقد صدقت وكنت قبلُ أمينا
وعرضت ديناً قد علمت بأنه	من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذارى سبة	لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

وقد استمر حصار قريش لبني هاشم وبني المطلب نحو ثلاث سنوات حتى أصاب المسلمين ومن معهم جهد شديد فأكلوا ورق الشجر والجلود اليابسة ولم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا خفية ، وكانت قريش تؤذي من أرسل إلى بعض أقاربه شيئا من الصلات ، إلى أن قام في نقض الصحيفة نفرٌ من قريش كان من أشدهم في ذلك صنيعاً هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث العامري ، وكان هشام واصلا لبني هاشم لرحمٍ كانت بينه وبينهم ، وقام معه في نقض

الصحيفة زهيرُ بنُ أبي أمية بن المغيرة المخزومي وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب فهو ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان معهما المطعم بن عدي وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فاتعدُوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك ، وأجمعوا أمرهم على نقض الصحيفة فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حُلةٌ ، فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس اللباس وبنو هاشم هلكى لا يُباعُ ولا يُبتاعُ منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمةُ ، فقال أبو جهل وكان في ناحية المسجد : كذبت والله لا تُشقُّ. فقال زمعةُ بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كُتبت. فقال أبو البختري : صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ، ولا نُقرُّ به. فقال المطعم بن عديٍّ : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأُ إلى الله منها ومما كتب فيها ، فقال هشام نحواً من ذلك ، فقال أبو جهل : هذا أمر قُضي بليل ، تُشُووِرَ فيه بغير هذا المكان. فقام المطعم إلى الصحيفة فشقّها ، وبعد أن شُقّت الصحيفةُ ، خرج بنو هاشم وبنو المطلب من الشّعب وخرج منه من معهم من المسلمين فقال أبو طالب قصيدة داليّة يمتدح فيها أولئك النفر الذين قاموا في نقض الصحيفة ، ويبعث البشرى بذلك إلى المهاجرين بالحبشة ، ويمدح بني هاشم وبني المطلب الذين آزرُوه في نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي ذلك يقول أبو طالب :

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرود

فيخبرهم أن الصحيفة مزقت ... وأن كلَّ مَن لم يرضه الله مفسد

تراوحها إفك وسحر مجمع ... ولم يُلف سحر آخر الدهر يصعد

تداعى لها من ليس فيها بقرقر فطائرها في رأسها يتردد
وكانت كفاء رقعة بأثيمة لِيُقطع منها ساعد ومقلد
ويظعن أهل المكّتين فيهربوا فرائصهم من خشية الشر تُرعد
ويترك حَرَّاث يقلب أمره أيْتهِم فيهم عند ذاك وينجد
وتصعد بين الأخشبين كتيبة لها حدج سهم وقوس ومِرهد
فمن ينش من حضار مكة عزة فعزتنا في بطن مكة أتلد
نشأنا بها والناس فيها قلائل فلم ننفك نزداد خيراً ونحمد
ونطعم حتى يترك الناس فضلهم إذا جعلت أيدي المفيضين ترعد
جزى الله رهطاً بالحجون تجمعوا على ملأٍ يهدي لحزم ويرشد
قعوداً لدى خطم الحجون كأنهم مقاولة بل هم أعز وأمجد
أعان عليها كل صقر كأنه إذا ما مشى في رفرف الدرع أحرد
جريء على كل الخطوب كأنه شهاب بكفي قابس يتوقد
من الأكرمين من لؤي بن غالب إذا سيم خسفاً وجهه يتربد
طويل النجاد خارج نصف ساقه على وجهه يسقى الغمام ويسعد
عظيم الرماد سيد وابن سيد يحض على مقرى الضيوف ويحشد
ويبني لأبناء العشيرة صالحاً إذا نحن طفنا في البلاد ويمهد
ألظ بهذا الصلح كل مبرإٍ عظيم اللواء أمره ثم يحمد
قضوا ما قضوا في ليلهم ثم أصبحوا على مهلٍ وسائر الناس رقدٌ
هموا رجعوا سهل بين بيضاء راضياً وسر أبو بكر بها ومحمد
متى شُرِّك الأقوام في حَل أمرنا وكنا قديماً قبلها نُتودد
وكنّا قديماً لا نقر ظلامة وندرك ما شئنا ولا نتشدّدُ

فيال قصي هل لكم في نفوسكم وهل لكموا فيما يجيء به غد

فإني وإياكم كما قال قائل لديك البيان لو تكلمت أسود

وقول أبي طالب : بحريّنا يعني الذين بأرض الحبشة من المسلمين ، وقد نسبهم إلى البحر لركوبهم إياه في طريق هجرتهم إلى الحبشة. وقوله : وا لله بالناس أرودُ ، أي وا لله أرفق بالناس ، ومنه : رويدك أي رفقاً وقد جاء بلفظ التصغير لأنهم يريدون به تقليلاً أي ارفق قليلا وليس له مكبر من لفظه. والقرقر: الذليل لأن القرقر في الأصل هو الأرض الموطوءة التي لا تمنع سالكها ، ويجوز أن يكون المراد : ليس بذي هزل لأن القرقرة الضحك. وقوله : فطائرها في رأسها يتردد ، أي فحظها من الشؤم والنحس ملازم لها لا يفارقها. والرقعة بضم الراء هي التي تكتب. والمقلد : موضوع القلادة من العنق. وقوله : ويظعن أهل المكتين فيهربوا ، أي ويغادر ويسافر أهل مكة ويفروا منها خوفا على أنفسهم ، والمراد بالمكتين مكة وإنما أوردها بلفظ التثنية لأنهم كانوا يكثرون في أشعارهم من تثنية البقعة الواحدة كقول الشاعر :

بالرقمتين له أجر وأعراس والحمّتين سقاكِ ا لله من دار

وقول زهير بن أبي سلمى المزني : ودارٍ لها بالرقمتين. وكقول عنترة :

كيف القرار وقد تربع أهلها بعنيزتين وأهلنا بالغيلم

وكقول عنترة أيضاً :

شَربَت بماء الدُّحرُضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم

وكقول الشاعر : تسألني برامتين سلجما.

فالرّقمة الروضة وقد ثناها الشاعر : وعنيزة اسم موضع وقد ثناها الشاعر كذلك. والدحرض ماء وقد ثناه كذلك ورامة موضع بالبادية وقد ثناه الشاعر

أيضاً. والمراد بالمفيضين في قوله : إذا جعلت أيدي المفيضين ترعد ، أي المفيضين بالقداح في الميسر وكان لا يُفيض معهم في الميسر إلا سخيٌّ كأن أبا طالب يصفهم بأنهم يطعمون إذا بخل الناس. وقوله : جزى الله رهطا بالحجون تجمعوا يريد بهم هشام بن عمرو العامري وزهير بن أبي أمية المخزومي والمطعم بن عدي وأبا البختري بن هشام وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد. وقوله : خطم الحجون ، أي مقدمة الحجون فالخطم المقدمة والحجون موضع بأعلى مكة. وقوله : كأنهم مقاولة أي كأنهم ملوك. وقوله : كأنه إذا ما مشى في رفرف الدرع أحرد ، أي كأن الواحد من هؤلاء الرهط إذا مشى كأنه صقر يمشي بطيئاً لثقل ما عليه من لباس الحرب ، فرفرف الدرع هي فضولها وجوانبها وما تدلى منها ، والحَرَد هي أن تثقل الدرع على الرجل فيتثاقل في المشي فيصير كالمتبختر ، وقد روي بلفظ أجرد بالجيم بدل أحرد بالحاء و الأجرد السبّاق. وقوله جريء على كل الخطوب ، أي شجاع في جميع أحواله وشئونه ، وقد روي : على حل الخطوب ، كما روي على جُلّى الخطوب أي عظائم الأمور وكبار الحوادث. وقوله : هموا رجعوا سهل بن بيضاء الخ البيت ، أي إن هؤلاء الأماجد الذين مزقوا صحيفة المقاطعة تسببوا في عودة سهل بن بيضاء إلى داره بمكة مسروراً كما سُرّ بذلك أبو بكر الصديق ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسهل بن بيضاء هو سهل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن ضبة بن الحارث بن فهر ويعرف بابن البيضاء ، والبيضاء هي أُمُّهُ وهي دعد بنت جحدم ابن أمية بن ضرِب بن الحارث بن فهر ، وبنو البيضاء ثلاثة سهل وسهيل وصفوان. وقول أبي طالب : لديك البيان لو تكلمت أسود ، هو مثل يُضرب لمن يحاول استنطاق من لا ينطق ، وأصله أن قتيلا قتل عند جبل يقال له أسود

و لم يعرف القاتل فقال قائل : لديك البيان لو تكلمت أسود أي أنت أيها الجبل لو كنت تنطق لكشفت حقيقة القاتل وشهدت عليه. هذا وقد كان خروج بني هاشم وبني المطلب من الشعب في السنة العاشرة من البعثة النبوية وقد مات أبو طالب بعد أشهر من خروجهم من الشعب ، وكذلك ماتت خديجة رضي الله عنها في نفس هذه السنة فاشتدت المصائب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صابر محتسب يبلغ رسالة الله والله يعصمه من الناس. وقد كان أبو طالب عضداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم يرد عنه كيد المشركين. كما كانت خديجة رضي الله عنها وزيرة صدق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إسلام أبي طالب ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهداية القلوب بيد الله وحده ؛ وقد أصر أبو طالب على دين آبائه خشية أن تناله سُبَّةٌ بأنه رغب عن دين عبد المطلب ، فقد روى البخاري في صحيحه من طريق ابن المسيب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة ودخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل فقال : أي عمٍّ قل لا إله إلا الله كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب : فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك ما لم أُنه عنه ، فنزلت : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ ، ونزلت : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾. وفي لفظ للبخاري من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أي

عم ، قل لا إله إلا الله أُحاجُّ لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرنّ لك ما لم أُنه عنك فنزلت : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾. وفي لفظ للبخاري من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال : أي عمّ قل لا إله إلا الله كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضُها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم : على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله. قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك ، فأنزل الله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ وفي لفظ البخاري من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب : يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب. فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا

الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك. فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ ما كان للنبي ﴾ الآية. وفي رواية مسلم من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عم قل لا إله إلا الله كلمةً أشهدُ بها عند الله. فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضُها عليه ويُعيدُ له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك. فأنزل الله عز وجل : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ وأنزل الله تعالى في أبي طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ وفي رواية لمسلم من حديث العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : قلت يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟ قال نعم : وجدته في غمراتٍ من النار فأخرجته إلى ضحضاح. وفي رواية للبخاري في صحيحه من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال : هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار . وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث العباس بن عبد المطلب أنه قال : يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك

ويغضب لك؟ قال : نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدّرك الأسفل من النار . وفي رواية للبخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وذكر عنده عمُّه فقال : لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيُجعلُ في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغُه. وفي رواية لمسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أهون أهل النار عذاباً أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغهُ. وقوله : في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح : الغمرات جمع غمرة بإسكان الميم وغمرةُ الشيء شدته ومزدحَمُهُ. والضحضاح أصله الماء اليسير الذي يصل إلى الكعبين والمراد هنا أنه أخرج إلى مكان من جهنم يصل إلى كعبيه فقط كأنه لابس نعلين من النار ولكنه مع ذلك يغلى منهما دماغه. وموت أبي طالب بهذه الصفة آيةٌ بينةٌ على أن الله تعالى هو وحده لا شريك له المهيمنُ على خلقه ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه ، يهدي من يشاء فضلا ويُضل من يشاء عدلا ، وأن الأنبياء والمرسلين وسائر عباد الله الصالحين ليسوا بمسيطرين على خلق الله ، ولذلك صارت زوجةُ نوح وولدُه وزوجةُ لوط وأبو طالب إلى ما صاروا إليه ، وصارت زوجة فرعون إلى ما صارت إليه مما أوضحه القرآن الكريم وجلاّه ، ليعلم الناسُ أن الأمر كله لله ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولله الحكمة البالغة والحجة القاطعة التي يجب الإيمان بها والتسليم لها. كما أن في هذا دليلا ساطعا على الفرق بين علم القلب وتصديقه ، فعامة أهل مكة كانوا في قرارة قلوبهم يعلمون أن محمداً رسول الله وأنه ليس بكذاب ولا ساحر ولا شاعر ولا مجنون على حد قوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم إنه ليحزنك

الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون *﴾ وكقوله تعالى في أهل الكتاب : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون *﴾ وكقوله تعالى في قوم فرعون : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا *﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم *﴾ أي ما ينبغي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا للمؤمنين أن يطلبوا مغفرة الله عز وجل للمشركين بالله المقرين بألوهية غيره من الأصنام والأوثان ، ولو كان هؤلاء المشركون من أقرباء رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أقرباء المؤمنين الذين كانوا يحبونهم ، بعد ما اتضح لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن هؤلاء المشركين فارقوا الدنيا وهم مقرون بألوهية أصنامهم وأوثانهم وسائر معبوداتهم من غير الله عز وجل الذي هو أغنى الشركاء عن الشرك ، والذي أنزل في كتابه أنه لا يغفر أن يُشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، حيث يقول عز وجل : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ في آيتين من سورة النساء ولا يتبين موت المشرك على شركه إلا عند النزع والمعاينة أما قبل ذلك عندما يكون من الممكن دعوة المشرك إلى الإيمان بالله وحده ومناقشته فإنه لم يكن قد تبين أنه من أصحاب الجحيم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو أبا طالب إلى قول لا إله إلا الله قبل المعاينة والنزع بدليل محاورته للنبي صلى الله عليه وسلم ومع أبي جهل وعبد الله بن أبي أمية ، فلما هلك على الكفر تبين أنه من أصحاب الجحيم. وقد قال الله عز وجل : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم

الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ لأن المراد بحضور الموت هو النزع والمعاينة أما قبل ذلك فيمكن قبول توبته ، ولا يحرم الدعاء له بالهداية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم اهد دوساً وأتِ بهم مسلمين). فإذا جاءت الغرغرة فإنه لا ينفعه دعاء ولا يجوز للمسلمين الاستغفار له ، لأن قوله عز وجل في هذا المقام : ﴿ ما كان للنبي ﴾ هو بمعنى النهي أي لا يجوز ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ و ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ﴾.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم * ﴾ هذا بيان لعذر إبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه حيث قال : ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين * ﴾ وكان قد وعده بهذا الاستغفار في قوله : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً * ﴾ ثم جزم على الاستغفار بقوله : ﴿ لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ﴾. وقد ذيّل الله تبارك وتعالى قوله : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه ﴾ الآية بقوله : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ الذي يشعر بعلية الاستغفار لأن الأوّاه هو الرحيم بعباد الله المتوجع لما يلحقهم من الشر المتأوه لما يتقين أنه يؤذيهم. والتأوه هو أن يسمع للصدر صوت يتنفس الصعداء من حرارة الصدر فيخرج ذلك النَّفَس ويقول المكروب : أوه. والحليم هو الصفوح عمن أساء إليه. كما ذيل الله عز وجل آية سورة الممتحنة بقوله تبارك وتعالى : ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ﴾ وهو يشعر أيضاً بعلية الاستغفار لإفادته تيقن إبراهيم بحماية الله له من شر أبيه وقد أشرت في تفسير الآية الأولى في هذا المقام بأنه مادام المشرك

حياً متمكناً من المحاورة لم يصل إلى حد النزع والغرغرة فإنه يجوز له الدعاء بالهداية. وقد يعبر الداعي له بطلب المغفرة له والصفح عنه بتوفيقه للتوبة والرجوع إلى الله مع تنازل الداعي عن حقه فيما أصابه من الأذى من جهة المشرك لينال الداعي جزاء الصابرين كما قال عز وجل : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون *﴾ وعلى هذا قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين *﴾ وقد نبه الله المسلمين إلى أنه لا يلزمهم أن يتجاوزوا عن سيئات الكفار في حقهم لأن حرص إبراهيم عليه السلام عن التجاوز كان سببها الصفة التي وصفه الله عز وجل بها في قوله هنا : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم *﴾ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكاد يبخع نفسه ويهلكها من شدة حزنه على كفر عشيرته به كما قال عز وجل : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا *﴾ وقال عز وجل : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين *﴾ ولا يطلب من المؤمنين أن يفعلوا ذلك ، ولذلك لما أمر الله عز وجل المؤمنين بأن يتأسوا بإبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ، استثنى الله عز وجل فقال : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ وخص هذا الأمر بإبراهيم عليه السلام مع أبيه ولذلك لم يقل لأستغفرن لكم بل قال : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾. وقوله عز وجل : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ أي فلما اتضح لإبراهيم أن أباه قد أصر على الكفر حتى فارق الحياة وأيقن أنه مات كافراً انتهى عن الاستغفار له.

وقوله عز وجل : ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم

ما يتقون إن الله بكل شيء عليم *﴾ هو قاعدة كلية تفيد أن الله الرءوف الرحيم لا يظلم أحداً من خلقه ولا يعذب عباده إلا بعد البيان لهم ، ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فهو يبين لعباده طريق الخير وطريق الشر ويقيم لهم الحجة والبرهان كما قال عز وجل : ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ أي بينا لهم طريق الخير وطريق الشر ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أي فسلكوا طريق الشر وعدلوا عن طريق الخير ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون *﴾ فمن انحرف عن شرع الله وكفر بالله خذله الله ووكله إلى نفسه فدمرها وأوردها نار الجحيم.

وقوله عز وجل : ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل إنه لن يضل قوما إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة ، كما قال تعال : ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ الآية ، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم ﴾ الآية قال : بيان الله عز وجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة ، وفي بيانه لهم معصيته وطاعته عامة فافعلوا أو ذروا اهـ وفي هذا تحذير من ارتكاب المعاصي لأنها سبب للضلال والهلاك وطريق إلى ترك الرشاد والهداية.

وقوله عز وجل : ﴿ إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير *﴾ هذا إعلان للناس جميعاً بأن الله عز وجل هو رب كل شيء وسيده ومليكه وأن له السلطان القاهر والملك التام في السموات والأرض وأنه هو وحده الذي يحيي ويميت ، كما قال عز وجل : ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم

أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾ فلا نصر ولا عز ولا تمكن في الأرض لأحد كائنا من كان إلا بحول الله وقوته ، فلا تشركوا بالله شيئا ولا تقدموا حُب أحد على حب الله وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تُقدموا بين يدي الله ورسوله ، فالحلال ما أحل الله ورسوله ، والحرام ما حرّم الله ورسوله ، فإن أعداء المسلمين هم الذين لا يؤمنون بالله ورسوله ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق الذي بعث الله به شيخ المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم فاتخذوهم أيها المؤمنون عدوا ، ولا تتخذوا منهم أولياء ولا بطانة لكم ولو كانوا آباءكم أو أبناءكم أو إخوانكم أو أزواجكم أو عشيرتكم إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون.

قال تعالى :

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

هذا بيان بفضل الله ورحمته وإحسانه وجوده على رسوله وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى المهاجرين والأنصار الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعوه في غزوة تبوك في وقت العسرة حيث كان الخروج إلى تبوك في لهيب الحر وشدة القيظ وقلة الظهر وندرة الزاد ولذلك سميت غزوة العسرة ، وسمي الجيش جيش العسرة حيث اجتمع عليهم عسرة الحر وعسرة

الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء ، وقد روى مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد - شك الأعمش - قال : لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، قالوا : يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادّهنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افعلوا ، قال : فجاء عمر فقال : يا رسول الله إن فعلت قلّ الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثم ادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، قال : فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم قال : فجعل الرجل يجيء بكف ذرة قال : ويجيء الآخر بكف تمر قال : ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة ثم قال : خذوا في أوعيتكم قال: فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه قال : فأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضلة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ ،

قال ابن جرير رحمه الله : يقول تعالى ذكره : لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته نبيّه محمداً صلى الله عليه وسلم والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام وأنصارَ رسوله في الله الذين اتبعوا رسول الله في ساعة العسرة منهم من النفقة والظّهر والزاد والماء اهـ والمراد بساعة العسرة أي وقت العسرة ويشمل وقت غزوة تبوك. وقوله تبارك وتعالى : ﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق

منهم ﴾ أي من بعد ما بلغ بهم الضيق والجهد والعسرة حداً لولا صيانة الله لهم لزاغت قلوب بعضهم ولكن الله عز وجل صانهم فلم تزغ قلوبهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * ﴾ أي ثم رزقهم الله الإنابة إليه والثبات على الحق لرأفته ورحمته بهم.

قال تعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل توبته ورضاه عن جميع المؤمنين الذين شهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزة تبوك أعلن رضاه وتوبته على الثلاثة الذين خلّفوا وهم المُرجَون لأمر الله وهم كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين بن كعب الأنصاري السَّلمي وهلال بن أمية بن عامر بن قيس الأنصاري الواقفي ومرارة بن الربيع الأنصاري العامري. وقد روى البخاري ومسلم قصة هؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم من طريق عبدالله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعادٍ ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله

عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدرٍ وإن كانت بدر أذكر في الناس منها كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، وا لله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط ، حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، و لم يكن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، يريد غزوةً إلا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في حرٍ شديدٍ ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم كثيرٌ لا يجمعهم كتاب حافظ ، يريد الديوان ، قال كعب فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي ا لله وغزا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع و لم أقضِ شيئاً فأقول في نفسي أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجِدُّ فأصبح رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم والمسلمون معه ، و لم أقضِ من جهازي شيئاً فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت و لم أقضِ شيئاً ثم غدوت ثم رجعت و لم أقضِ شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يُقدَّر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر ا لله من الضعفاء و لم يذكرني رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعبٌ؟ فقال رجل من بني سلِمة يا رسول ا لله : حبسه

بُرداه ونظره في عِطفه. فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلتَ ، وا لله يا رسول ا لله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح عني الباطل ، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيءٍ فيه كذبٌ فأجمعتُ صدقه وأصبح رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قادماً وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى ا لله فجئته فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضَب ثم قال : تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : ما خلَّفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت بلى إني وا لله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذرٍ ، ولقد أُعطيتُ جدلاً ، ولكني وا لله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن ا لله أن يسخطك عليّ ولئن حدثتك حديث صدقٍ تجد عليّ فيه إني لأرجو فيه عفو ا لله ، لا وا لله ما كان لي من عذرٍ ، وا لله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي ا لله فيك. فقمت وثار رجال من بني سلِمة فاتبعوني فقالوا لي وا لله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزتَ أن لا تكون اعتذرت إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بما اعتذر إليه المتخلفون قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لك ، فوا لله

مازالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ، ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما ؟ قالوا مُرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أُسوةٌ فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبَنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرَت في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يُكلمني أحدٌ وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ثم أصلي قريباً منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة النّاس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوا لله ماردّ علي السلام ، فقلت يا أبا قتادة ، أنشدك با لله هل تعلمني أحب الله ورسوله ، فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته ، فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار قال فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبطيٌّ من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالكٍ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغني أنّ صاحبك قد جفاك ، و لم يجعلك الله بدار هوانٍ و لا مضيعة فالْحقْ بنا نواسك، فقلت لما قرأتها وهذا أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها حتى إذا

مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال إنّ رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ، قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أُمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إنّ هلال ابن أُمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربك قالت إنه والله ما به حركة إلى شيءٍ والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أُمية أن تخدمه فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ، فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلةً من حين نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلةً وأنا على ظهر بيتٍ من بُيُوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخٍ أوفى على جبل سَلع بأعلى صوته يا كعبُ بنَ مالك أبشر قال فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يُبشروننا وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون وركَض إليَّ رجل فرساً وسعى ساعٍ من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس فلمّا جاءني الذي سمعت صوته يُبشرني نزعتُ له ثوبَيَّ فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذٍ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله صلى

ا لله عليه وسلم فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً ، يُهنّوني بالتوبة يقولون : لتهنِك توبةُ ا لله عليك ، قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام إليَّ طلحة بن عبيد ا لله يهرول حتى صافحني وهنأني ، وا لله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة. قال كعب فلما سلمت على رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يومٍ مر عليك منذ ولدتك أُمك ، قال قلت أمن عندك يا رسول ا لله أم من عند ا لله ، قال لا بل من عند ا لله ، وكان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمرٍ وكنّا نعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول ا لله إنّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى ا لله وإلى رسول ا لله قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قلت فإنّي أمسك سهمي الذي بخيبر فقلت يا رسول ا لله إنّ ا لله إنما نجاني بالصدق وإنّ من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، فوا لله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه ا لله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أحسن ممّا أبلاني ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إلى يومي هذا كذباً وإنّي لأرجو أن يحفظني ا لله فيما بقيت ، وأنزل ا لله على رسوله صلى ا لله عليه وسلم : ﴿ لقد تاب ا لله على النّبيّ والمهاجرين ﴾ إلى قوله : ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ ، فوا لله ما أنعم ا لله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن ا لله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحدٍ. فقال تبارك وتعالى : ﴿ سيحلفون با لله

لكم إذا انقلبتم ﴾ إلى قوله : ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾. قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلفوا ﴾. وليس الذي ذكر الله مما خُلفنا عن الغزو إنّما هو تخليفه إيّانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ أي حتى صاروا في حالة من الوحشة والضيق والكرب والمحاصرة حيث هجرهم الأقارب والأباعد فصارت الأرض مع اتساعها كأنها في أعينهم جُبٌّ. ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ أي امتلأت صدورهم ضيقاً من الهم والوحشة. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ أي وتيقنوا أنه لا مفر لهم من الله إلا إلى الله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجعل في ورده إذا أوى إلى فراشه قوله : (لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك) ، فقد روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا فلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت. فإنك إن مُت في ليلتك مُت على الفطرة وإن أصبحت أصبت أجراً). وقد روى البخاري ومسلم من حديث البراء رضي الله عنه نحوه إلا أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم

اضطجع على شقك الأيمن ، وقل : اللهم أسلمت نفسي إليك). وساق الحديث.

وقوله عز وجل : ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * ﴾ أي ثم مَنّ عليهم بتوبته وأعلن ذلك في كتابه ورزقهم الثبات ليستمروا ويستقيموا على توبتهم إلى الله عز وجل. والتعبير بثم في قوله عز وجل : ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ لتراخي المدة التي ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فيها وهي خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامهم إلى إعلان التوبة عليهم ، ولا شك أن من كان في مثل حالهم آنذاك تكاد تكون الساعة عليه شهراً ، بخلاف أيام المسرات فإنها تنقضي سريعاً.

قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

هذا تنبيه من الله عز وجل وأمر لجميع المؤمنين من وقت نزول هذه الآية إلى يوم القيامة بالاقتداء بهؤلاء الثلاثة الذين خُلّفوا في ملازمة قول الصدق وتقوى الله عز وجل في السراء والضراء وقد تحققوا أن الصدق منجاة وأن الكذب مهواة ، والصدق لا يأتي إلا بالخير كما قال عز وجل : ﴿ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾. وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي

إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً) ، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الصدق طمأنينة وأن الكذب ريبة فقد روى الترمذي وقال : حديث صحيح من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة).

قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ .

هذا عتاب للمخلفين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسلاً لا نفاقاً و لا كفراً حين ما دعاهم للخروج إلى تبوك ، وبيانٌ لعظيم أجر الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبيه إلى ما فات هؤلاء المعذرين من الأعراب وغيرهم من الخير بتخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر الإمام الطبري رحمه الله في تفسير هاتين الآيتين أن الله عز وجل عنى بها الذين وصفهم بقوله : ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ﴾ الآية ، ثم قال جل ثناؤه : ما كان لأهل المدينة الذين

تخلفوا عن رسول الله ولا لمن حولهم من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد معه أن يتخلفوا خلافه و لا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ندب في غزوته تلك كل من أطاق النهوض معه إلى الشخوص إلا من أذن له أو أمره بالمقام بعده فلم يكن لمن قدر على الشخوص التخلف ، فعدّد جل ثناؤه من تخلف منهم فأظهر نفاق من كان تخلفه منهم نفاقاً وعَذَرَ من كان تخلفه لعذر وتاب على من كان تخلفه تفريطاً من غير شك ولا ارتياب في أمر الله إذا تاب من خطأ ما كان منه من الفعل اهـ وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قل لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ الآية ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال : إن بالمدينة لرجالاً ، ما سرتم مسيراً و لا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر).

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ أي ما يليق ولا يصح ولا يستقيم لأهل المدينة وقبائل العرب المجاورة لها أن يتأخروا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لقربهم وجوارهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ أي ولا يرضوا لأنفسهم أن تكون في راحة ودعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشدة والمشقة ، إذ اللائق بمن كان مؤمناً أن يقي بنفسه نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاسيما إذا كان قريب الدار والجوار . وأشار إلى أن هؤلاء المتخلفين حرموا أنفسهم من أجر عظيم حيث يقول : ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ و لانصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار

ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ والظمأ : العطش ، والنصب : التعب ، والمخمصة : المجاعة. ومعنى : ﴿ ولا يطئون موطئا ﴾ أي ولا يدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم أرضاً. ومعنى : ﴿ يغيظ الكفار ﴾ أي يغضبهم ويذلهم ويقهرهم. ومعنى : ﴿ ولا ينالون من عدو نيلا ﴾ أي ولا يصيبون من عدوهم قتلا أو أسرا أو سبيا أو غنيمة أو هزيمة. ومعنى قوله : ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ﴾ أي إلا سُجّل لهم في صحائف أعمالهم أنهم عملوا هذه الأعمال الصالحة التي يجزل الله بها الأجر ويُعظِم لهم بها الفضل ، لأنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره ، وهم قد أحسنوا لما عملوا هذه الأعمال فكُتِبوا في المحسنين ، وسُجِّلوا في سجلات الصالحين.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون * ﴾ أي ولا يبذل هؤلاء المجاهدون في سبيل الله بذلاً قليلاً ولو كتمرة ولا كثيرة كما فعل عثمان ابن عفان رضي الله عنه حيث جهز جيش العسرة من ماله، فقد عنون البخاري في صحيحه فقال : باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي رضي الله عنه وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من يحفر بئر رومة فله الجنة فحفرها عثمان ، وقال : من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزه عثمان اهـ. ومعنى : ﴿ ولا يقطعون وادياً ﴾ أي ولا يمرون بوادٍ من الأودية مقبلين أو مدبرين. ومعنى : ﴿ إلا كتب لهم ﴾ أي إلا سجل ممشاهم وآثارهم وقيدت لهم حسنات توضع في موازين أعمالهم الصالحة يوم القيامة. وقوله : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون * ﴾ أي ليثيبهم الله عليها أحسن ما يجزى به عباده الصالحين.

قال تعالى :

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى فضل الجهاد في سبيله وحرض المسلمين على القتال ، ذكر هنا ضرورة طلب العلم وحض على التفقه في الدين لإرشاد الناس إلى ما فيه الخير لهم وتحذيرهم مما فيه الشر لهم وتعريفهم بحقوق الله وحقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقوق بعضهم على بعض ، للإشعار بأن الأمة لا يستقيم حالها ولا يستتب أمرها وأمنها إلا بقوة تردع أعداءها وتحمي حماها وتدفع في نحور المعتدين وتحمي حقوق المظلومين ، وعلم ينير لها طريقها ومنهج يقيم لها سلوكها ويهديها سواء السبيل ، لأن السيف مع الجهل أشبه بقوة الأسُود وبطش الحيوانات المفترسة ، كما أن العلم بلا قوة تحميه مآله الاضمحلال والزوال ، وهذا من كمال شريعة الإسلام وأنها دين الفطرة التي تقتضي صيانة الدين والنفوس والعقول والأعراض والأموال ، وقد أشار الله عز وجل في هذه الآية الكريمة إلى أن الجهاد وطلب العلم من فروض الكفاية التي إذا قام بها البعض سقط الطلب عن الباقين وإذا لم يقم بها أحد أثم الجميع. ولما كان الناس ليسوا سواء في فطرتهم وميولهم واستعدادهم وقُدرتهم حيث يتفاوتون في الجهاد وفي طلب العلم ، كما أنه لو فرض الجهاد على الجميع وكذلك طلب العلم لتعطلت المصالح كالزراعة والصناعة والتجارة وغيرها ، لذلك جعلت الشريعة بعض الفروض فرض عين وبعضها فرض كفاية لتلتئم

مصالح العباد لدنياهم وأخراهم ، فقد يكون الإنسان عاجزاً عن الجهاد ذا قدرة واسعة على طلب العلم ، وقد يكون القادر على الجهاد غير مؤهل لطلب العلم والتفقه في شريعة الله ، ولم يعرف في تاريخ الأمم أمة حرصت على العلم كحرص أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد حاز أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قصب السبق في طلب العلم والتفقه لما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يتلوه عليهم من الكتاب ويعلمهم من السنة كقوله عز وجل : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وكقوله تبارك وتعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وكقوله صلى الله عليه وسلم : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) رواه البخاري ومسلم من حديث معاوية رضي الله عنه ، وكما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة) ، وكما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له). ومن شدة حرص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على طلب العلم والتفقه في الدين أنهم كانوا يتناوبون رعاية إبلهم حتى يجلس بعض من لا نوبة عليه في رعاية الإبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يفوتهم شيء من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أفعاله بقدر طاقتهم كما كان يفعل ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عقبة بن عامر رضي الله عنه ، فقد قال أبو

داود في سننه : حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني ثنا ابن وهب سمعت معاوية - يعني ابن صالح - يحدث عن أبي عثمان عن جبير بن نفير عن عقبة بن عامر قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خُدام أنفسنا نتناوب الرعاية رعاية إبلنا، فكانت عليّ رعاية الإبل فروّحتُها بالعشِيّ فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس فسمعته يقول : ما منكم من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ثم يقوم فيركع ركعتين يُقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا قد أوجب فقلت: بخ بخ ما أجود هذه ، فقال رجل من بين يَدَيّ : التي قبلها يا عقبة أجود منها ، فنظرت فإذا هو عمر بن الخطاب ، فقلت : ما هي يا أبا حفص ؟ قال : إنه قال آنفاً قبل أن تجيء : ما منكم من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ثم يقول حين يفرغُ من وضوئه : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء. قال معاوية : وحدثني ربيعة بين يزيد عن أبي إدريس عن عقبة بن عامر اهـ وقال البخاري في صحيحه في كتاب العلم : باب التناوب في العلم وساق بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما عن عمر قال : (كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك) الحديث ، وفي لفظ للبخاري في المظالم من صحيحه عن عمر قال : (إني كنت وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على النبي صلى الله عليه وسلم فينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره وإذا نزل فعل مثله) الحديث ، وفي لفظ للبخاري في كتاب النكاح من صحيحه عن عمر

رضي الله عنه قال : (كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهم من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على النبي صلى الله عليه وسلم فينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلتُ جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غيره وإذا نزل فعل مثل ذلك) الحديث ، وقد رواه مسلم في كتاب الطلاق من صحيحه عن عمر رضي الله عنه قال : (وكان لي جار من الأنصار فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك) الحديث.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ و ما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ أي وما يستقيم للمؤمنين أن يذهبوا ويتوجهوا جميعاً للتفقه في الدين ، لما في ذلك من تعطيل مصالحهم في مزارعهم ومتاجرهم ومصانعهم وجهادهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون *﴾ أي فهلا قصد وتوجه من كل جماعة من جماعات المسلمين بعضهم وانصرفوا إلى مجالس العلم لتحصيله من مصادره ليتبصروا ويتثقفوا في دين الله لينتفعوا به في أنفسهم وليكونوا على بصيرة في شريعة الإسلام وليقوموا بتعليم جماعتهم ومن يحتاج إلى التفقه في دين الله ، ويرشدوهم إلى ما يسلك بهم طريق الجنة ويبتعد بهم عن طريق أهل النار ، ويحذروهم من غضب الجبار ، وليكونوا هداة مهتدين ، ودعاة مرشدين.

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

توجيه من الله عز وجل أن يبدءوا بقتال الأقرب فالأقرب من الكفار وأن يحرصوا على أن لا يتركوا موقعاً قريباً من بلاد الكفار ويتجاوزوه إلى ما وراءه من الأماكن البعيدة لأن ذلك يؤدي إلى وجود بُؤر من أهل الكفر وراءهم مما يؤدي إلى خلخلة مواقع المسلمين وضعف مراكز تواجدهم وقطع الطريق بين طرق إمداداتهم ، وهو تنبيه إلى (استراتيجية) لا غنى عنها لمن يريدون إخراج الناس من الظلمات إلى النور. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي و احرصوا على أن يحس الكفار أنكم لا تتهاونون في نشر دين الله وإعلاء كلمته ، وقد انطبع المسلمون على هذا الخلق فصاروا أشداء على الكفار رحماء بينهم كما أخبر عز وجل عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم *﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم *﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين *﴾ أي وثقوا بنصر الله لكم إذا اتقيتموه وأطعتم أوامره وابتعدتم عن انتهاك محارمه ، لأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، ومن كان الله معه فهو المنصور ومن وكله الله إلى نفسه فهو المخذول المدحور . قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ولهذا بدأ رسول الله صلى عليه وسلم بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ودخل الناس من

سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً ، شرع في قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل كتاب ، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بواحد وثمانين يوماً فاختاره الله لما عنده وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به فوطد القواعد وثبت الدعائم ، ورد شارد الدين وهو راغم ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام ، وبيّن الحق لمن جهله ، وأدى عن الرسول ما حمله ، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح الله ببركة سفارته البلاد ، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد ، وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله ، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده ، وولي عهده الفاروق الأواب ، شهيد المحراب ، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين ، وقمع الطغاة والمنافقين ، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً ، ففرقها على الوجه الشرعي والسبيل المرضي ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً ، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار فكسى الإسلام رياسة حلة سابغة ، وأُمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة ، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وعلت كلمة الله وظهر دينه وبلغت الملة الحنيفة من أعداء الله غاية

مآربها وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رقيقاً لأخيه المؤمن غليظاً على عدوه الكافر كقوله تعالى : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ وقوله : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أنا الضحوك القتال) يعني أنه ضحوك في وجه وليه قتال لهامة عدوه. وقوله : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه ، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم ، ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل الأعداء في سَفال وخسار ، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله ، والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم اهـ.

قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

هذا هو المقام الأخير في هذه السورة المباركة من مقامات التنديد بالمنافقين وكشف ما تكنه صدورهم وينفلت من ألسنتهم من الكفر والنفاق. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ أي وإذا أنزل الله عز وجل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم سورة وتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس انشرحت لها صدور المؤمنين وازدادوا بسببها إيماناً في قلوبهم ورسوخاً في دينهم ، لكن المنافقين ليسوا كذلك فمنهم من ينفلت لسانه لبعض إخوانه من المنافقين سخرية واستهزاء ويقول أيكم زادته هذه السورة الجديدة إيماناً وتصديقاً بالله عز وجل وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم مشككاً فيها ومستهزئاً بها. وقد تولى الله تبارك وتعالى الجواب قمعاً لهذا المنافق فقال : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون *﴾ أي فأما المؤمنون المصدقون بالله وبكتابه الذي أنزل وبرسوله الذي أرسل فإنهم يزدادون بنزول ما ينزل من القرآن تصديقاً فوق تصديقهم

ويقيناً على يقينهم لما جعل الله عز وجل في قلوبهم وبصائرهم من الأنوار التي تجعلهم يستقبلون ما ينزل من القرآن بشوق وفرح فتتأثر به نفوسهم وتنشرح له صدورهم ويزداد به يقينهم وتصديقهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون *﴾ أي وأما المنافقون المريضة قلوبهم فيزدادون حسرة في نفوسهم وضيقاً في صدورهم ورجساً ونجاسة فوق رجسهم ونجاستهم ، وتنطبع على الشر والكفر والنفاق قلوبهم فإذا ماتوا على حالهم فارقوا الدنيا وهم كافرون ، وكما قال عز وجل : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّدُ في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون *﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾. و (إلى) في قوله عز وجل : ﴿ إلى رجسهم ﴾ بمعنى مع. والتعبير بإلى لإفادة انضمام كفرهم الجديد إلى كفرهم القديم.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون *﴾ أي أو لم يعتبر هؤلاء المنافقون بما يُسلط عليهم من الامتحان والابتلاء الذي يفضح أسرارهم ويكشف أستارهم في كل سنة مرة أو مرتين مما كان يقتضي رجوعهم إلى الحق وتوبتهم من النفاق والشك لكنهم لانطماس بصائرهم لا يتوبون من نفاقهم ولا يتعظون بمصائبهم و لا ينجحون في اختبارهم.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون *﴾ صورة أخرى من صور نفاقهم وهلعهم ومحاولتهم التخفي والتكتم على ضلالهم

وريبهم، وهذا يبرز ما هم فيه من الجبن والذل والخوف ، فبعضهم يلمز كمن قال : أيكم زادته هذه إيماناً وبعضهم يتبادل مع رفاقه النظرات ذلاً وهلعاً وخوفاً من المسلمين ويحاول الهروب من مجلس التلاوة حتى لا يسمع القوارع التي تقرعهم ، فإذا وجدوا غفلة من عيون المسلمين عنهم انصرفوا. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ صرف ا لله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون *﴾ أي خذلهم ا لله فلم تنشرح صدورهم للإسلام بسبب انعدام فقههم وفهمهم ، وهذا كقوله عز وجل : ﴿ فلما زاغوا أزاغ ا لله قلوبهم ﴾ ، وفي قوله عز وجل : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم و ماتوا وهم كافرون *﴾ حجة قاهرة ودليل قطعي على زيادة الإيمان في قلوب المؤمنين. قال البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه : باب زيادة الإيمان ونقصانه وقول ا لله تعالى : ﴿ وزدناهم هدى ﴾ ، ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ ، وقال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ فإذا ترك شيئاً من الكمال فهو ناقص اهـ وقال ابن كثير رحمه ا لله في تفسيره : وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء ، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك اهـ وقال الشيخ علي بن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي في شرحه على العقيدة الطحاوية : والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً منها قوله تعالى : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ الأنفال ، ﴿ ويزيد ا لله الذين اهتدوا هدى ﴾ مريم. ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ المدثر. ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ الفتح : ٤. ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا

حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ آل عمران : ١٧٣. وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها إن الزيادة باعتبار زيادة المؤمَن به ؟ فهل في قول الناس : ﴿ قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ آل عمران : ١٧٣ زيادة مشروع؟ وهل في إنزال السكينة على قلوب المؤمنين زيادة مشروع ؟ وإنما أنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين مرجعهم من الحديبية ليزدادوا طمأنينة ويقيناً ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ آل عمران : ١٦٧. وقال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ التوبة : ١٢٥. وأما ما رواه الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية ، فقال : حدثنا محمد بن الفضل وأبو القاسم الساباذي ، قالا : حدثنا فارس بن مردويه ، قال : حدثنا محمد بن الفضل بن العابد قال : حدثنا يحيى بن عيسى قال : حدثنا أبو مطيع عن حماد ابن سلمة عن أبي المهزّم عن أبي هريرة قال : جاء وفد ثقيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله ، الإيمان يزيد وينقص ؟ فقال: (لا . الإيمان مكمل في القلب ، زيادته كفر ونقصانه شرك). فقد سئل شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير رحمه الله عن هذا الحديث فأجاب : بأن الإسناد من أبي الليث إلى أبي مطيع مجهولون لا يعرفون في شيء من كتب التواريخ المشهورة. وأما أبو مطيع فهو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي ، ضعفه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعمرو بن علي الفلاّس والبخاري ، وأبو داود والنسائي وأبو حاتم الرازي وأبو حاتم محمد بن حبان البستي والعقيلي وابن عدي والدار قطني وغيرهم. وأما أبو المهزم ، الراوي عن أبي هريرة ، وقد تصحّف على الكتّاب ،

واسمه يزيد بن سفيان ، فقد ضعفه أيضاً غير واحد وتركه شعبة بن الحجاج وقال النسائي : متروك ، وقد اتهمه شعبة بالوضع ، حيث قال : لو أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثاً.

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم النساء بنقصان العقل والدين. وقال صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين). والمراد نفي الكمال ، ونظائره كثيرة ، وحديث شُعب الإيمان ، وحديث الشفاعة ، وأنه يخرج من النار من في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، فكيف يقال بعد هذا : إن إيمان أهل السموات والأرض سواء؟ وإنما التفاضل بينهم بمعان أخر غير الإيمان ؟ وكلام الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى كثير أيضاً ، منه قول أبي الدرداء رضي الله عنه : من فِقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينتقص. وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه : هلموا نزدد إيماناً ، فيذكرون الله تعالى عز وجل. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه: اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً. وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لرجل : اجلس بنا نؤمن ساعة. ومثله عن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه. وصح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان : إنصاف من نفسه ، والإنفاق من إقتار ، وبذل السلام للعالَم. ذكره البخاري رحمه الله في صحيحه. وفي هذا المقدار كفاية وبالله التوفيق اهـ وقول ابن أبي العز رحمه الله : ذكره البخاري رحمه الله في صحيحه هو إشارة إلى ما جاء في صحيح البخاري رحمه الله في كتاب الإيمان حيث قال : بابٌ إفشاءُ السلام من الإسلام ، وقال عمار : ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان : الإنصاف من

نفسك ، وبذل السلام للعالَم ، والإنفاق من الإقتار ، ثم ساق بسنده من طريق أبي الخير عن عبد الله بن عمرو أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خير؟ قال : تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف اهـ وقوله : وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف هو بمعنى وبذل السلام للعالَم أي لمن عرفت ومن لم تعرف.

قال تعالى :

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ .

هذا ختام المسك من سورة التوبة المنزلة على خاتم النبيين وشيخ المرسلين محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين. وهاتان الآيتان المباركتان كانتا مكتوبتين عند أبي خزيمة أو خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه. قال البخاري رحمه الله في صحيحه : باب جمع القرآن ، ثم ساق بسنده عن ابن شهاب عن عبيد بن السبّاق أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أرسل إليّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقُراء القرآن وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هذا والله خير

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبّع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هو والله خير . فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع غيره : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ﴾ حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر اهـ وليس معنى قوله في الحديث : حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره، أنها لم تتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن القرآن يثبت بخبر الواحد لأن مراد زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه لم يجدها مكتوبة إلا عند خزيمة ابن ثابت أو أبي خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه لكنها كانت محفوظة في صدور القراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا لا يكتفون بالحفظ في صدورهم بل كانوا يضمون إلى ذلك وجودها مكتوبة ، وتَواترُ نقلها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأساس في ذلك. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري عند قوله في الحديث: لم أجدها مع أحد غيره ، أي مكتوبة لما تقدم من أنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة ثم قال : والحق أن المراد بالنفي نفي وجودها مكتوبة لا نفي كونها محفوظة اهـ وقد أورد

البخاري هذا الحديث في تفسير سورة التوبة حيث قال : باب قوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ﴾ الآية ثم ساق بسنده عن الزهري قال : أخبرني ابن السبّاق : أن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، وكان ممن يكتب الوحي ، قال : أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وإني لأرى أن تجمع القرآن. قال أبو بكر : قلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر : قال زيد بن ثابت : وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبى بكر وعمر . فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسُب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحدٍ غيره ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ﴾ إلى آخرها ، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . تابعه عثمان بن عمر والليث عن يونس عن ابن شهاب وقال الليث : حدثني عبد الرحمن بن

خالد عن ابن شهاب وقال : مع أبي خزيمة الأنصاري وقال موسى عن إبراهيم: حدثنا ابن شهاب : مع أبي خزيمة وتابعه يعقوب بن إبراهيم عن أبيه وقال أبو ثابت : حدثنا إبراهيم وقال : مع خزيمة أو أبي خزيمة اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ أي لقد أتاكم برسالة الله عز وجل إليكم نبي عظيم ورسول كريم من أشرف بيوتكم وأرفع أنسابكم ، حيث يعتبر عمود نسبه صلى الله عليه وسلم في الذروة من أعمدة أنساب العرب ، وقد جرت سنة الله عز وجل أن يبعث الرسل في أنساب قومها أي في أشراف آبائهم وأمهاتهم كما جاء في حديث أبى سفيان مع هرقل عندما سأله : أذو نسب فيكم ؟ قال : نعم هو فينا ذو نسب ، فقال هرقل : وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. كما رواه البخاري وغيره ، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم اهـ ولا تكاد قبيلة من قبائل العرب إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم صلة نسب بها ، فقد اجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في نزار بنو ربيعة بن نزار وقد صاروا قبائل شتى ، منهم بنو أسد وضبيعة ، ومن بني أسد بكر وتغلب وعنز أبناء وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دُعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة، ومنهم بنو عبد القيس بن أفصى والنمر بن قاسط ومنهم بنو حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ، ومنهم بنو عجل بن لجيم ومن بكر أيضا بنو مرة ، ومن ربيعة أيضاً بنو عنزة بن أسد بن ربيعة ، ومن عنزة آل سعود ملوك المملكة العربية السعودية أعز الله بهم الإسلام وأعزهم بالإسلام ، كما اجتمع

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مضر بنو قيس عيلان ، وإلى قيس عيلان ترجع قبائل غطفان ، وهوازن وسُليم ومازن ومن هوازن بنو سعد بن بكر وبنو كلاب وبنو جُشم ومنهم كعب بن ربيعة وبنو هلال بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان ونسبي في بني هلال ، وكذلك بنو نمير وبنو جعدة وبنو قشير وبنو عقيل بن كعب بن ربيعة ومنهم بنو المنتفق وبنو خفاجة ، ومن هوازن أيضاً بنو سلُول وبنو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن ومن قيس عيلان أيضا بنو عبس وذبيان ومن ذبيان بنو فزارة ومنهم عدوان وباهلة ، وفي إلياس يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو تميم بن مُر بن أدّ بن طابخة بن إلياس وبنو ضبة بن أدّ والرباب ومزينة ومن بني تميم زيد مناة بن تميم وعمرو والحارث ومن زيد مناة بن تميم بنو حنظلة بن مالك بن زيد مناة ومن ذريته مجدد الدين وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله. وفي مدركة يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو هذيل بن مدركة وهم رهط عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وفي خزيمة يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو أسد والقارة، وفي كنانة يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملْكان ومَلْك وعمرو وعامر وعبد مناة ، ومن عبد مناة بنو بكر ومن بني بكر بنو الديل وبنو مدلج وبنو ليث وبنو ضمرة ، وفي النضر يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو يخلد بن النضر ، وفي فهر يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو محارب بن فهر وبنو الحارث بن فهر رهط أبي عبيدة عبد الله بن عامر بن الجراح ، وبنو أسد بن فهر وفهر هو قريش فكل من كان من ولده فهو قرشي ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي ، وقيل إن قريشاً هو النضر بن كنانة والمعتمد عند العلماء هو أن قريشاً لقب فهر بن مالك بن النضر ، وفي غالب

يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو تيم الأدرم ، وفي لؤي يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو عامر بن لؤي وبنو سامة بن لؤي وفي كعب بن لؤي يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو عدي بن كعب رهط عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد رضي الله عنهما ، وبنو جُمح وبنو سهم رهط عمرو بن العاص رضي الله عنه ، ويجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب بنو تيم بن مرة رهط أبي بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وفي كلاب بن مرة يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو زهرة بن كلاب رهط آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كذلك رهط سعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهما ، وفي قصي يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو عبد الدار رهط الشيبيين حجبة الكعبة المشرفة وبنو عبد العزى رهط خديجة بنت خويلد رضى الله عنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن بنى عبدالعزى ورقة بن نوفل والزبير بن العوام رضى الله عنه وفي عبد مناف يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس وفي عبد المطلب يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو أبي طالب على وجعفر وعقيل ، كما يجتمع معه في عبد المطلب بنو العباس وبنو الحارث وبنو أبي لهب ، وقد كان لآباء رسول الله صلى الله عليه وسلم مجد مميز بين قبائل العرب فجده قصي هو أول من جمع أمر قريش بعد تفرقهم وتشتتهم ، وقد ولي أمر البيت الحرام وأمر مكة كلها ، وكانت له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز الشرف كله على قريش ، وقد قطع مكة رباعا بين قومه قريش فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة ،

وقد سمّتهُ قريش مُجمعا : لما جمع من أمرها ، وتيمنت به ، فما تنكح امرأة ، ولايتزوج رجل من قريش ، ولا يتشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره ، واتخذ لنفسه دار الندوة وجعل بابها إلى المسجد الحرام تجتمع فيها قريش لقضاء أمورها ، وفي قصي يقول الشاعر :

قُصيّ لعمري كان يُدعى مُجمعا   به جمع ا لله القبائل من فهر

وقد كان عبد الدار بِكر قصي فلما كبر قصي دفع لعبد الدار مفتاح الكعبة وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، وكانت خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب فيصنع به طعاماً للحجاج ضيافة لهم على أنهم ضيوف ا لله ، وهم أحق الضيف بالكرامة.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ أي يؤلمه عنتكم ومشقتكم وما يسبب لكم عذابا في الدنيا أو في الآخرة وما يجلب لكم من شر ، وقوله عز وجل : ﴿ حريص عليكم ﴾ أي يبذل أقصى جهده فيما ينفعكم ويرفع الضر عنكم ، ويجلب لكم خير الدنيا والآخرة كالرائد الذي لا يكذب أهله ويسعى في إرشادهم إلى ما فيه رغد عيشهم وجلب السعادة لهم ، وقد كان من أظهر آثار حرصه صلى ا لله عليه وسلم على هداية الناس أنه كان يشتد حزنه إذا استمروا في كفرهم حتى بلغ به الحزن درجة كاد يبخع نفسه أي يهلكها بسبب استغراق الكفار في ضلالهم ، كما قال عز وجل : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا * ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ وقد ضرب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لنفسه في حرصه على الخير للناس ونفعهم مثلاً فقال فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى رضي ا لله عنه عن النبي صلى ا لله عليه قال :

(إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعينيّ وإني أنا النذير العريان فالنّجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلتهم وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتّبع ماجئت به ومثل من عصاني وكذّب ما جئت به من الحق). وفي رواية لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثلي كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدوابُّ التي في النار يقعن فيها وجعل يحجزهنّ ويغلبنه فيتقحمن فيها ، قال : فذلكم مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلُم عن النار ، هلُم عن النار ، فتغلبوني ، تقحَّمون فيها). وفي لفظ لمسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبُّهن عنها ، وأنا آخذٌ بحجزكم عن النار وأنتم تَفلّتون من يدي) اهـ وقد أعلمه الله عز وجل بأن أكثر الناس لا يؤمنون حيث يقول عز وجل : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ رءوف رحيم *﴾ أي هو صلى الله عليه وسلم رءوف رحيم بكل مؤمن سواء كان عربياً أو كان أعجمياً. والرأفة والرحمة بالمؤمنين كانت من الصفات التي انطبع عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أشار الله إلى ذلك في قوله عز وجل : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ وقد أشار الله عز وجل إلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو نبي الرحمة حيث يقول عز وجل : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين *﴾. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فإن تولوا فقل حسبي

الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم *﴾ أي فإن أعرض الكفار من المشركين واليهود والنصارى والمنافقين و لم يستجيبوا لك فيما دعوتهم إليه من إخلاص العبادة لله وحده ونبذ ما هم عليه من الكفر والضلال فاستمسك بالعروة الوثقى التي منّ الله عز وجل عليك بها وقل : ﴿ حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم *﴾ أي الله عز وجل وحده هو الذي يكفيني شركم ويدفع في نحوركم وينصرني عليكم مهما كان جمعكم ومهما تحزبت ضدي أحزابكم فإني فوضت أمري إلى الله وجعلت اعتمادي عليه وهو رب العرش العظيم لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه.

والأمر في قوله تبارك وتعالى : ﴿ فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو توجيه كذلك لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة أن يقولوا هذا القول مؤمنين به مطمئنين له إذا حزبهم أمر ، وقد قال أبوداود في سننه : حدثنا يزيد بن محمد الدمشقي ثنا عبد الرازق بن مسلم الدمشقي وكان من ثقات المسلمين المتعبدين قال : مدرك بن سعد قال يزيد : شيخ ثقة عن يونس بن ميسرة بن حلبس عن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات. كفاه الله ما أهمه وسند هذا الحديث حسن قال الحافظ ابن حجر في التقريب : يزيد بن محمد ابن عبد الصمد بن عبد الله الدمشقي أبو القاسم القرشي مولاهم صدوق من الحاديةعشرة وقال الحافظ ابن حجر في التقريب عبد الرازق بن عمر بن مسلم الدمشقي العابد ، صدوق من العاشرة ، ويونس بن ميسرة بن حلبس قال الحافظ في التقريب : ثقة عابد مُعمّر من الثالثة وأم الدرداء هي الصغرى من

زوجتي أبي الدرداء. وقد اشتمل هذا الذكر الوارد في هذه الآية الكريمة على أربع جمل : الأولى : حسبي الله والثانية لا إله إلا هو والثالثة : عليه توكلت ، والرابعة : وهو رب العرش العظيم ، وكلها في تقرير تجريد التوحيد لله عز وجل وحده لا شريك له ومن بينها كلمة التوحيد الكبرى التي هي مفتاح الإسلام ومفتاح الجنة. وهي لا إله إلا الله المشتملة على نفي جميع من يستحق أن يكون إلها وإثبات الإلهية لله وحده بطريق الحصر وهي التي دعت إليها جميع الرسل وأنزل الله من أجلها جميع الكتب وقد شهد الله عز وجل لنفسه بهذا التوحيد وشهدت به له ملائكته الكرام ورسله وأولوا العلم حيث يقول عز وجل : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم* ﴾ وقد أوجب الله تبارك وتعالى معرفة معنى لا إله إلا الله حيث يقول : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وأن الله تعالى حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يعني موقناً بمعناها ملتزماً بمقتضاها ومات على ذلك، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله حرّم النار على من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله) ، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما من عبد قال : لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة). وكلمة التوحيد تقتضي من العبد أن يُسلم وجهه لله عز وجل لا يصرف شيئاً من العبادة لغير الله تبارك وتعالى فلا يدعو مع الله أحدا ولا يشرك بالله شيئاً كما قال عز وجل لحبيبه وسيد خلقه محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ قـل إن صلاتـي و نسـكي و محيـاي ومـماتي لله رب العـالمين * لا شـريك لـه وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين *﴾ وقد جهل الكثير من الناس معنى لا إلـه إلا الله وصاروا إذا حز بهم أمر أو مرض لهم مريض أو نحو ذلك ضرعوا إلى بعـض الموتى من أصحاب القبور وصاروا يستنجدون بهـم ويسـألونهم كشـف الضـر عنهم مع أن الله عز وجل قال لرسوله محمد صلى الله عليـه وسـلم : ﴿ قـل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنـت أعلـم الغيـب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ وقد اعتقد الكثير منهم - مع أنهـم يقولـون لا إلـه إلا الله - أن بعض الناس ولاسيما من اشتهر بالصلاح والتدين يعلمون الغيب ، مع أن الله عز وجل يقول في كتابه الكريم عن نفسه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهـر على غيبه أحد * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومـن خلفـه رصدا *﴾ كما اعتقد كثير من الناس أن الجن يعلمون الغيب ويذهبون إلى بعض الدجاجلة ليطلعوهم على أنواع من الغيب مع أن الله تبارك وتعالى ذكر أن الجن لا يعلمون الغيب حيث يقول عن سليمان عليه السلام : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نُذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقـدورٍ راسيات اعملـوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور * فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موتـه إلا دابة الأرض تأكل مِنسأته فلما خرّ تبينت الجنُّ أن لو كـانوا يعلمـون الغيـب مـا لبثوا في العذاب المهين *﴾ وقد بلغ الحال ببعض رجال الطرق الصوفية أن يدعوا أتباعهم إلى عبادتهم صراحة حتى قال قائلهم :

إذا كـنت في هم وغم فنادنـي ... أيا ..... أنجيك من كل ضيقة

فإسمي مكتوب على ساق عرشه ... وفي اللوح محفوظ فأتقن عبادتي

وقد صار أتباعه يرددون هذين البيتين عقب صلواتهم ، فلما وقفت عليهم وسمعت هذا منهم نبهتهم إلى أن هذا شرك أكبر فكيف يقعون فيه وهم يشهدون أن لا إله إلا ا لله ، فقال بعض مثقفيهم : هذه شطحات من الشيخ ، فحذرتهم من ا تباع هذه الشطحات لأنهم لو ماتوا على ذلك حرّم ا لله عليهم الجنة وكان ذلك في بعض البلاد الإفريقية وقد نظمت قصيدة في الرد على هذين البيتين الشنيعين على نفس الوزن والقافية وسميتها النصيحة فقلت :

بحمد إلهي قد بدأت مقالتي	وقد رمت فيها نصح أهل شريعتي
وذدت عن الحوض المبارك كل من	أراد به سوءاً لحقد ونقمة
وإن سلاحي قول ربي وسنة	أتانا بها المختار خير الخليقة
وأقوال أهل الفضل من سلف مضوا	على خير أخلاق وعلم وحكمة
فيا أيها الإنسان إن إلهنا	هو الأحد المقصود في كل حاجة
فإن كنت في ضيق فربك حاضر	فسله إذن ينجيك من كل ضيقة
وإن كنت في هم وغم فناده	يجبك ويكشف كل هم وغمة
ولا تسألن أحداً سواه وإن يكن	نبياً كريماً قد أتى بالرسالة
فللخالق التصريف جل جلاله	ومن يرج غير ا لله باء بذلة
فخير الورى المختار ما كان مالكاً	لنفع وذا نتلوه في نص آية
وقد قال للحبر الإمام ابن عمه	مقالة هدي في ابتغا الاستعانة
وقد حذر المختار عند وفاته	من امر عظيم بالغ في الخطورة
بأن لا يرى في الأرض قبر بمسجد	وقد شدد الإنكار في غير مرة
وذلك يرويه البخاري ومسلم	وأعلام أهل العلم خير الأئمة
وقد حدث الحفاظ أن رسولنا	نهى عن وجود القبر تحت بناية

ومن ذاك مروي الصحيح لمسلم ... فأخلص لدين الله دون تعلة

ولا تكتبن فوق القبور ولا تقل ... بتجصيصها فالنهي خير رواية

ولا تنذرن إلا لربك إنه ... قدير على إنصاف كل البرية

وقد قال خير الخلق إن نذوركم ... على رد أمر الله غير جديرة

ومن نذروا للصالحين فإنهم ... بذا أهل شرك في صميم غواية

ولا تأت عرافاً ليشفي ذا ضنى ... ويكشف ستراً عن أمور خفية

فليس لدى العراف علم بغائب ... وآتيه في كفر عميق وغفلة

وربك علام الغيوب وعنده ... مفاتيح كل الغيب من غير ريبة

وقد فرق الجهال دين محمد ... إلى شرعة تبدو وشرع الحقيقة

وقالوا لقول الله ظهر وباطن ... وباطنه يبدو لأصحاب وصلة

وما علموا أن الشريعة نهجها ... طريق الهدى فيها تمام السعادة

وما كان قول الحق مثل مقالهم ... تنزه عن أغراض أهل الضلالة

وإن كنت ترجو للإله تقرباً ... فبالفرض والمسنون خير وسيلة

ومجلس علم عند ربك فضله ... يزيد كثيراً عن سني عبادة

وأمر بمعروف وترك لمنكر ... وبُعدك عن فحش وبغي وغيبة

وتسليم كل الحال لله وحده ... ونهيك نفساً عن مقام خطيئة

فذاك لَعَمْرُ الحق أوضح منهج ... نهايته الحسنى وأفضل قربة

وحبك للأخيار حتم ولازم ... فداوم عليه كي تفوز برحمة

ومن يبتغ الحسنى بأفعال غيره ... فليست له حسنى ولا ظل جنة

وذلك نصحي قد نصحت ومن يرم ... سبيل الهدى فليستمع لنصيحتي

وأختم قولي بالصلاة على الذي ... به ختم الرحمن كل نبوة

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أعظم كلمة تُثْقِلُ ميزان العبد عند الله يوم القيامة هي كلمة لا إله إلا الله إذا قالها خالصاً من قلبه ومات عليها ، وأن صاحبها هو أسعد الناس بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه). كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ـ ومعاذ رديفه على الرحل ـ قال : يا معاذ . قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ، ثلاثاً. قال ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار . قال : يا رسول الله ، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذاً يتكلوا.

وقد سقت في تفسير قوله عز وجل : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم *﴾ ما رواه النسائي وابن حبان والحاكم من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (قال موسى صلى الله عليه وسلم : يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به. قال : قل لا إله إلا الله. قال : يا رب كل عبادك يقول هذا. قال : قل لا إله إلا الله. قال : إنما أريد شيئاً تخصني به. قال : يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة ، مالت بهم لا إله إلا الله) ، وقال الحاكم :

صحيح الإسناد. والحديث فيه درّاج بن سمعان أبو السمح وإن كان ضعيفاً إلا أنه عرف بالصدق في حديثه عن أبي الهيثم كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في التقريب حيث قال : صدوق في أبي الهيثم. كما روى الترمذي وقال : حسن غريب ، وابن ماجة وابن حبان والبيهقي والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه الذهبي من حديث عبدا لله بن عمرو بن العاص رضي ا لله عنهما أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال : (إن ا لله سَيُخَلِّصُ رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعةً وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب. فيقول : ألك عذر ؟ فيقول : لا يا رب. فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم. فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا ا لله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول : احضر وزنك. فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : إنك لا تظلم. قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم ا لله شيء.

وقد تم بحمد ا لله تعالى ومنته وتوفيقه ما قصدت إليه من تحرير هذا التفسير بعد فجر يوم الثلاثاء الثالث من شهر ذي الحجة الحرام لعام ١٤١٨هـ بمنزلنا بالرياض ، وكان البدء في تفسير قوله عز وجل : ﴿ واعلموا أنما غنتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ﴾ ... إلخ بعد ظهر يوم الإثنين غرة رجب الحرام لعام ١٤١٨هـ سائلاً ا لله عز وجل أن يتفضل بقبوله وأن يجعله في ميزان الأعمال الصالحة وأن يتجاوز عما يكون مني من تقصير ، وما توفيقي إلا با لله والحمد لله رب العالمين.

عبد القادر بن شيبة الحمد

الفهرس

الموضوع الصفحة

من سورة الأنفال

سورة التوبة:

فهرسة مكتبة فهد الوطنيّة أثناء النشر
شيبة الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء الأقاويل./عبد القادر شيبة الحمد-ط2..- الرياض،1432هـ
٦مج.

ردمك٢-٠٠-٧٧٥٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٤ -٧٧٥٦-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٦)

١-القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي٢٢٧/٦ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك٢-٠٠-٧٧٥٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٤-٧٧٥٦-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٦)

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

دمشق هاتف: ٢٢٢٤٩٩٠٠فاكس: ٢٢٣٨٤٩٠٠ص.ب١٣٢٧٧ موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢
E-mail: uloom.alquraan@gmail.com